السُّلوكُ الدُّرزي

سلسلة الحقيقة الصعبة "٩"

أنور ياسين

السلوك الدرزي

طبعة خامسة

دار "لأجل المعرفة"
ديار عقل - لبنان

سلسلة "الحقيقة الصعبة"

دار لأجل المعرفة، ديارعقل–لبنان

(قياس ١٧×٢٤ سم)

١. **قسّ ونبيّ**، بحث في نشأة الإسلام، أبو موسى الحريري، ٢٠٠١، ٣١٤ ص.

٢. **نبيّ الرحمة** ، بحث في مجتمع مكّة، أبو موسى الحريري، ١٩٨٥، ٢٠٨ ص.

٣. **عالم المعجزات**، بحث في تاريخ القرآن، أبو موسى الحريري، ١٩٨٦، ٢٥٠

٤. **أعربيٌّ هو؟** بحث في عروبة الإسلام، أبو موسى الحريري، ١٩٩٠، ٢٥٤ ص

٥. **العلويّون النّصَيريّون**، بحث في العقيدة والتاريخ، أ.م. الحريري، ٢٧٢ ص

٦. **بين العقل والنبيّ**، بحث في العقيدة الدرزيّة، أنور ياسين، ١٩٨١، ٤٦٤ ص.

٧. **رسائل الحكمة**، (كتاب الدروز المقدّس)، حمزة بن عليّ، إسمعيل التميمي، بهاء الدّين السّموقي، طبعة ٥، ١٩٨٦، ٨٦٤ صفحة.

٨. **مصادر العقيدة الدرزيّة**، حامد بن سيرين، ١٩٨٥، ٥٧٦ صفحة.

٩. **السلوك الدرزي** أنور ياسين، ١٩٨٦، ٢١٨ صفحة.

١٠. **مذبحة الجبل**، (حسر اللّثام عن نكبات الشام، تاريخ الحرب الأهليّة الدامية في لبنان سنة ١٨٦٠)، شاهين مكاريوس، ١٩٨٣، ٣١٠ صفحات.

١١. **المسيحيّة في ميزان المسلمين**، (ردّ على كتاب "الإسلام والمسيحيّة في الميزان" لـ شريف محمّد هاشم)، أبو موسى الحريري، ١٩٨٩، ٢٥٦ ص.

١٢. **نَزَعنا القناع**، (ردّ على كتاب "أنزعوا قناع بولس عن وجه المسيح"، لـ أحمد زكي)، ١٩٩٧، ٣٦٠ ص

١٣. **رغبات النفس والجسد**. (الحياة الجنسيّة في الإسلام)، أبو موسى الحريري، ٢٠٠٠، ٢٨٨ ص.

١٤. **موازين «الحقيقة الصعبة»**، (ردّ الحريري على ردود مسلمين)، ٢٠٠٠، ٢٣٦ صفحة.

١٥. **نصارى القرآن ومسيحيّوه**، أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ صفحة.

١٦. **المسيحيّة في ردود المسلمين** أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ ص.

مقدمة

أنا ابنُ هذه الأرض، وفـــردٌ من هذه الأمَّـة، أسـتظلُّ هذه السمـاء، وأنتمي الى هذا الوطن. لَمِـنَ الطبيعيّ أن أتمنّـاها أجملَ أرض، تحت أصفى سماء، وفي أرقى أمَّة، ترتع في أسعد وطن.

من هذا المنطلق رحتُ جـاهدًا في استكشـاف الطريق لبلوغ ما أتمنَّى. ورأيتُ السبيلَ الأقومَ ذاك الذي يُعالجُ مجموعاتٍ دينيَّة في أخصِّ معتقداتها الماورائيّة، ونظراتها الفلسفيّة، وقواعدها في التربية والتوجيه والأخلاق.

وأدهش مـا اكتـشـفتُ، من بين هذه المجـموعـات الدينيّـة، الديانة الدرزيّة. هذه الديانة تميّزتْ عن غـيرها، في كلِّ شيء: في نشأتها ومعتقداتها ونظرتها إلى اللَّه والكون والإنسان.

كـما تميّـزت في مواقـفهـا العدائيّـة من الأديان والطوائف والمذاهب جميعها؛ وذلك كما جاء في الميثاق الذي يتعهّده الدرزيُّ على نفسه: «أنّه قـد تبرّأً من جـميع المذاهب والمقـالاتِ والأديان والاعتـقادات كلّهـا على أصناف اخـتلافاتـها»[1]. وكانت بيـنها

(١) مـيـثاق وليّ الزمـان، رسـالة رقم ٥ من رسـائل الحكمـة، ص ٥٨. ترى

احــتكاكـاتٌ دمــويّة، ومطبّـاتٌ مـأســاويّة. وفــي هذه السنوات الأخيـرة، سنوات الفتـنة والكارثة، كان قـتلٌ وتـهجـيرٌ وتدمـيرٌ وخرابٌ ودمٌ ودموع.

***

ومن أجل ردم هوّاتٍ كثـيرة، وقضــاءٍ على الكوارث والمحن الموسميّة، كان لا بدّ لنا من اعتـماد المصارحة، وفقءِ الدمّل، عسى في ذلك بلوغًـا الى الشفــاء، وتحقيـقاً لعـيشٍ متناغمٍ مـتنامٍ على أرض واحدة.

فمن شــروط التعايش في حـياة مشتــركة تؤمِّن الازدهارَ المادّي والروحي، أن يلتقي أبناءُ الوطن الواحد علــى قواسمَ عامَّة وعلى نظرات موحّدة حول قضايا ثابتة ومسلّمات بديهيّة.

فــمرتجــانا من مواطـنينا أن نتلاقَى ونـتوافقَ على القـيم المطلقة التي تواعـد وتعاهد عليها البشــر منذ أن وعى العقلُ ذاتَه وأدركَ جــوهرَ وجودِه، ومـيّزَ الخـيرَ والشــرّ، وأن نتوحّــدَ على مفاهيم المحبة والتعاون والعدل والحق.

كيف نقـيم وطناً موحَّداً مـستقرًا مــتطوّراً إذا لم ننطلق من مسلّمات؟!

من هنا، كان علينا أن نعي حقيقــة ثابتة : لا وطن لتجمّعاتٍ بشــريّة تتبــاعد وتتناقض رؤيةً ورؤيا. لا أمن ولا أمــان لمواطنين

المراجع كاملة في باب المراجع.

مختلفين على قيم إنسانيّة حضاريّة ثابتة. لا راحة ولا استقرار ما دامتِ «الحقيقةُ» لم تُعلَن بعد.

***

على هذا، وفي سبيل هذه «الحقيقة»، كان توجّهي الى فئاتِ هذا الوطن، آملاً أن أستطيع نقْلَ هذه «الحقيقة» مهما كانت صعبة.

أتوجَّه إليكم أيُّها الطلاّب النجباء لتعلموا حقيقةَ الأمور التي تجري عندنا، منذ سنة ١٨٤٠ حتّى اليوم . وعندما تعلمون تنجون من ثلاثة : من جهلٍ غرق فيه آباؤكم، من غباوة لازمتْ قياداتكم، ومن إباداتٍ جماعيّة كادتْ تقضي عليكم.

أتوجَّه إليكم أيُّها الأساتذة النبلاء، أن تشيِّدوا للمعرفة منبراً، وأن تبنوا للعلم قبباً، وأن ترفعوا للنور منائر. ألتمس منكم أن تلقوا على طلاّبكم دروسًا من «الحقيقة الصعبة»، وأن تدخلوهم في «حزب لأجل المعرفة»، وأن تكشفوا لهم عن أسرار اللّه والكون والانسان.

أقصدكم أيُّها القضاة والمحامون الحاكمون بالعدل، لأن تكشفوا عن المجرمين والقتلة، أن تقيموا العدل وتحكموا بالحق، أن تدافعوا عنِ شعب اغتصبتْ حقوقُه، وأن تبيِّنوا للعالم المتمدّن أن الدفاع عن شرف الانسانيّة لا يزال يُعمل له في لبنان.

أكتب إليكم أيُّها اللبنانيُّون التعساء، لتعرفوا قداسة الأرض التي جَبَلتم تربتَها بالعرق والدم، ولتتأكَّدوا من ثلاثة : من

الإنســان والأرض والــرســالة الملقــاة عــلى عــاتقكم، ولتُــنقــذوا نفــوسكم من ثلاثة : من غـباوة القــادة وجــهل التاريخ وضــيق الآفاق.

أكتب إليكم أيُّها القادة الأغبيــاء لتدركوا مدى جهلكم تاريخَ آبائكم وأجــدادكم الأبطال الذين فتّــتوا الصــخر وأنبــتوا الــوعر، وأشــعلوا الأرض ازدهاراً، وصــفّفــوا المدرّجــات على منحــدرات الجبال، وأنتم، بغباوتكم، قضيتم على آثارهم المقدَّسة.

أكتب إليكم أيُّها المغتربون المتــغرِّبون عن الوطن لتساعدونا على التخلّص مــن قادةٍ أغبيــاء، بسببــهم جُعتــم وظُلمتم ودُنِّستْ أرضُكم، وبســببهم تغــرَّبتم وهَجَرتم، لأنّكم رفــضتم الانصــياع لحكمِ جَهَلَةِ التاريخ الأغبياء.

***

إلى جمعيّة الأمم المتّحدة،

إلى مجلس الأمن الدولي،

إلى دول العالم الحرّ،

إلى مسيحييّ العالم ومسلميه ويهوده،

إليكم جميعًا أرفع شكواي.

شكواي على أولئك الذين فتحوا للإجرام مدارس، شعارها قــولهم للوالدِين والمربّين: «عَلِّمــوا أولادَكم الحقــد». أولئك الذين مارســوا، على مدّ العصــور، جرائم قتــلِ الأبرياء، وذبحِ الأطفال والنســاء والشــيوخ. أولئك الذين دمّــروا المدنَ والقــرى والمنازلَ

ودورَ العبادة. أولئك الذين هجّروا الناس من بيوتهم، وأتلفوا لهم ما بنوه وأنبتوه بالجِدِّ والكَدِّ والعرق.

شكواي على «الدرزيَّة» كدينٍ وعقيدةٍ وتعاليم، لا على «الدروز» كأناسٍ هم ضحيّةُ هذا الدِّين وهذه العقيدة والتعاليم.

يدفعني الى ذلك ما وجدتُ في هذه العقيدة من حثٍّ على القتلِ والإجرام والانتقام. هذه العقيدة تفتّحت شتائم ولعنات على جميع الأنبياء ومختلف الأديان، ودعت الى التشبّه بـ «الحاكم» المعبود، كأغرب انسان على وجهِ الأرض بشذوذه وإجرامه، واحتمت بسرّيّةٍ رهيبةٍ منحها الدستورُ اللّبناني، لغباوة القادة عندنا، براءةَ ذمّة؛ كما اعتبرها «الأزهر» شيعةً من شيع الإسلام الحنيف.

***

منذ نشأتهم ارتكب الدروز، باسم الدرزيّة، أفظع جرائم التاريخ «التي انثالتْ على بلادنا، فاجتاحتِ النسلَ والضرعَ والحرثَ بالسيف والنار، فارتاع العالَمُ المتمدِّنُ لهولها، واستاء ذوو السلطان الأكبر في تركيّا وأوروبّا من فظائعها، وقبَّحوها وذمّوا مجترحيها ذمًّا لَبِسَنَا خِذْيُه وشَمَلَنَا عارُه»[٢].

ومنذ سنة ١٨٤٠ ارتكب الدروز، باسم الدِّين، مجازر «ماجَ الناسُ في تيّار أمواجها حتّى تغطّتْ أرضُ لبنان وسوريّة

---

(٢)المحرّرات السياسيّة، ج ٢ ص أ – ب.

بالدم المراق... دماء مسفوحة، وأشــلاء منتثرة، ورؤوس مقطّعة، وأضــلاع مكسَّرة، وأحــشاء ممزّقــة، وأفــئدة مــصدّعــة، وعظام مهــشّمة مطّرحة في كلٍّ مــكان. وبيوت مدمّرة، وأرض قــفر، ممّا كاد يلين له الجــماد، وينفر منه الوحشُ الضــاري في أفظع مظهر من مظاهر بربريّة الإنسان.

«وفي تضـاعـيف هاتيك المستفظعات أعـراضٌ منتهَكة على موارد الهـلكة، إلى غير ذلـك من ضـروب الشدّة والضـيق وألوان البؤس والضــيم والجوع والعري والبــرْدِ التي عمّتْ مَن سلِمَ من الرجالِ، كــهولاً وشيــوخًا، والنساءِ حــواملَ ووالدات، والأطفال، صبيانًا وبنات، ممّا تنفطرُ له المرائر وتتصدّع له الأفئدة»[٣].

وفي حـــروب الإبادة في لبنان ١٩٧٥-١٩٨٥، ألـصــورة إيّاها : من آلات الموت البـدائيّــة، كــالفــأس والســاطور، إلى تلال تتراشق بالقنابل والصواريخ والراجمــات، إلى مدن وقرى تهجَّر من سكّانها، وتدمَّر منازلها، وتُحرق جنائنها، وتُتلف مزروعاتها، وتُجرف معابدها وكلُّ أثَرٍ حضاريٍّ فيها.

عويل في كلٍّ بيت، صــراخ أطفال. دموع رجال. حــشرجة شيوخ. نحيب نساء. قلق شبّان وشابّات... قلوب الآباء والأمّهات تتمــزّق على فقـدان البنين. صدور الشــيوخ تتكسّر لمنـظر الدماء تهراق في الشــوارع. جثث هنا وهناك. ألموتى نبشت جثـثهم من قبورهم. ألعظام ديستْ وأهينت. ألمحامل حُطِّمت أخشابها. جدران

---

(٣) المرجع نفسه، ٢/أ.

المقـابر دُكّت، وأبوابهـا خُلِّعتْ؛ لكأنّك أمـام مشـهـد من مشـاهد الديونة.

هذه صورة عمّا حدث في لبنان على أيدي معتنقي الدرزيّة. وقد تكرّرت فصولها عشرات المرّات منذ سنة ١٨٤٠ حتّى اليوم. إنّهـا «مجـازر» حقـيـقيّـة راح ضحـيّـتَهـا عشـراتُ الألوف من المسيـحيّين، ودُمِّـرت معـها الألوفُ من المنازل والقـصور ودور العبادة.

لقد اعتُدِيَ على كرامةِ الإنسان في لبنان، بسببِ دينٍ هو من أغرب أديان هذا الكون. لقد امتُهِن في إنسانيّته، وانتُهِكَت حقوقُه. ولم يعدْ، مـعه، مكانٌ لأيٍّ من القيم الحـضاريّة ولأيٍّ مفـهومٍ من مـفاهيم الحـرِيّة والعـدالة والحقّ. والأغـرب من كلِّ شيء هو أنّ مرتكِبَ الجريمة يعمل بموجب واجبٍ دينيٍّ مقدّس.

***

هذا الواقع الدمويّ الأليم يثير في قلوبنـا شعوراً مزدوجاً : شعور الـشفقة على مـرتكب الجريمة، وشعور الدفـاع عن القيم الإنسانيَّـة المطلقة، أي الدفاع عن الإنسـان في لبنان، إذ هو المهدَّد أبداً، إنْ كان مرتكبَ الجريمة أو إن كان الضحيّة.

حمـايةُ هذا الإنسان، أكـان مجـرماً أم كـان ضحـيّـة، يجب علينا توعـيتُـه، وتوعيـتُه تـستلزم نقْلَ الصـورةِ بصدقٍ وأمـانةٍ وصراحةٍ. وجلاءُ الصورة يسـتلزم البحثَ عن المصادر الموثوقة، والاعتمادِ على شهودِ عِيانٍ ومؤرِّخين ذوي ثقة.

إنّ ما جرى في لبنان من «مذابح» تشير أصابع الاتّهام فيه إلى معتنقي الدرزيّة. هؤلاء هم الأبطال. بيد أنّ التهمة يجب أن توجّه أساساً إلى «الدرزيّة»، كدينٍ وعقيدةٍ وتعاليم، لا إلى «الدرزيّ»، كإنسانٍ هو من طينةِ هذا الوطن وتربته. فإنّي في «الدرزيّة» أبحث، وإلى «العقيدة» أوجّهُ اتّهامي. وأمّا الإنسانُ «الدرزيّ» فهو الضحيّة الكبرى لهذا «الدين». وكم أرجوه أن يساعدني في الكشف عن مخابئ هذه الديانة السرّيّة الرهيبة.

إنّ همّي في ما أكتب، تخليصُ إنسان هذه البقعة من الأرض من أديان تدعو إلى القتل في سبيل اللّه، وإلى الأخذ بشرائع منزَلة، وإلى ملفّاتٍ للحقيقة جاهزة، وإلى الاعتماد على الستر و«التقيّة» وإلى اتّباع المسايرة.

واذا كان في همّي بعض الغيرة على كرامة الانسان، فهو بسبب ما يدفعني إلى محبّة ذاك الذي سيسألني يومًا كما سألَ قايين قَبْلي: «ماذا صنعتَ بأخيك؟». وفي إيماني أنّه لن يقول لي أبداً: ماذا صنعتَ باللّه؟ أو ماذا صنعتَ بالقرابين؟ أو كيف دافعتَ عن العقيدة والدين؟ أو لماذا لم تقتلْ أخاك من أجلي؟ أو لماذا لم تصنِ الحكمةَ والحقيقةَ والكتابَ المنزل؟ أو لماذا لم تدافع عن حقوق اللّه وعن أنبيائه ورسله وملائكته؟

أستحلف اللّهَ، ربَّ السماوات والأرض، بأنّني لن أقصد النيلَ من أيِّ إنسان، أيًا كان دينُه ومعتقده. إنّي أصرُّ على التمييز بين الإنسان والعقيدة. ذاك أحبّه كنفسي، وهذه لي عليها ألف ألف سؤال وسؤال.

أخي الدرزيّ! ألنورُ لي ولكَ. وعلى كلٍّ منّا أن يشعّ بمقدار ما يُعطى. أمام ناظريَّ «حكمةٌ» من كتابك، إنْ مارستَ ما في مضمونها انقلبتْ موازينُ الحقِّ والعدل في الأرض. وهي، للأسف الكبير، تُمارَس في «الدرزيّة» بمنتهى الصرامة. بل هي عنوان عقيدتك. تقولُ الحكمةُ، بالحرف الواحد، ما يلي:

«صونوا الحكمةَ من غير أهلها...

ومَن سلَّمَهَا إلى غير أهلِها فَقَدْ تَغيَّرَ في اتِّباعِ الحقِّ يَقينُه.

فعليكمْ بحفظِها وصيانتِها من غيرِ أهلِها، والاستِتَارِ بالمألوفِ عندَ أهلِه.

فلا تَنكشفوا عندَ مَنْ غلبتْ عليه شَقْوَتُهُ وجَهْلُهُ.

فأنتم تَرونَهُم مِن حيثُ لا يرونكم.

وأنتم بما في أيدِيهِم عارِفون.

وعلى ما أَلِفُوهُ مِن زخرفِ قولِهم مُطَّلِعُون.

وهم عمَّا في أيدِيكم غافِلون.

وعمَّا اقتسبتُموه من نورِ الحكمةِ مَحجُوبُون.

لقد أُخْرِسوا ونَطَقْتُم.

وأُبْكِموا وسَمِعْتُم.

وعَمُوا وأَبصَرْتُم.

وَجهِلُوا وعَرَفْتُم»[٤].

---

(٤) رسائل الحكمة، رسالة رقم ٣٢ ص ٢٤٤ – ٢٤٥.

أيَّة «حكمة» هذه التي تهيبُ بأصحابها إلى الانغلاق والتقوقع؛ فيما أصحابُها يريدون من العالَمِ أن يكونَ منفتحًا عليهم؟! هل هي «حكمة» في أن تستنيرَ بنورِ الناس وتبادلَهم من عندك ظلمةً وشرًّا؟! وهل هي حكمةٌ في أن يمنعَ أصحابُ «الحكمة» الناسَ من معرفتها، ومن الاستضاءَة بنورها، وبالتالي من نشدان الخير والسعادة منها؟!

هل هي «حكمة» في أن تعرفَ وتَرى، ثمَّ تمنعَ غيرَك كلَّ معرفةٍ ورؤيةٍ؟! أيّةُ «حكمة» يراها عاقلٌ في هذه المبدإ الخطير والشرِّير، مبدإ «الاستتارِ بالمألوفِ عندَ أهلِه»، الذي قام عليه «السلوكُ الدرزي» في القديم والحديث ولا يزال؟!

يربأ اللَّه، سيّدُ الكون وربُّ الناس، أن يختارَ شعبًا على حساب شعب، ويخلِّصُ إنسانًا ويرذلَ آخر، ويهتمَّ بأمَّة من دون أخرى. إنّ نظريّة «الشعب المختار»، ومقولةَ «أنتم خير أمَّة أُخرِجَتْ للناس»، وحكمة «خير مَن وطِئ الأرضَ بِقَدَم»، هي نظريّاتٌ مرفوضة في الفلسفة واللاّهوت والقانون والعدل والحقّ؛ وغيرُ مقبولةٍ في أيِّ منطق.

فيا أخي الدرزيّ! إليكَ أتوجَّه وأقول : ألإنسانُ الذي فيكَ وفيَّ هو أسمى من «الحكمة» التي تُخفيها عنّي، ومن «الحقيقة» التي أدعوكَ إليها. لكَ عليَّ الحقيقة حقٌّ، ولي عليك الحكمة حقّ. إنْ وقفتَ معي جنَّبْتَني المعاثر، وإنْ بَقيتَ لي رافضًا وقعنا، أنا وأنتَ، في المهالك.

فلنبادرْ إلى العمل معاً. ولنتعاونْ في البحث عن «الحكمة» و«الحقيقة». لنتداعَ إلى حيثُ النور. ليشدِّدْ بعضُنا إزرَ بعض في سبيل حرِّيَّة الإنسان وكرامته. لِنُزِدِ الخيرَ في الأرض بحسبما وهَبَنا اللَّهُ من خيره. لنتعالَ على رواسبِ الذلِّ والقهرِ التي ملأتِ «الحكمة» انتقامًا وأحقادًا، فاضطررتَ أنتَ إلى الانكماشِ والتستّرِ؛ واضطررتُ أنا إلى إزعاجك في ما كشفتُ وأعلنت.

فها إنَّني أَبَيْتُ البقاء، ولي من العمر فوقَ الأربعين، في صفوف مَن وَصَفَتْهُمُ «الحكمةُ» بـ «الجهّال»، فمنعتْ عنهم المعرفةَ والنور. وبسببِ هذا المنع عشتُ قلقًا، مشكّكًا، مضطرِبًا، باحثًا عن كلِّ شيء : عن اللَّهِ، والإنسانِ، والحكمةِ، والحقيقةِ، والمعرفةِ، والمسلَّماتِ جميعِها. ودفَعني قلقي هذا إلى الدخول في حرَمِ كلِّ سرّ، وفي حقيقةِ كلِّ معتقَد. وأودى بي شَغَفي اللاّمحدودُ بالحرّيّة والمعرفةِ إلى إعلان كلِّ مستورٍ خفيّ، واظهارِ كلِّ محجوبٍ ممنوع، ومعالجةِ كلِّ لغزٍ يَحمِلُ سِرًا، وكشفِ النقاب عن أحداث التاريخ ما استطعت.

ألبحثُ في التاريخ هوايتي، والكشفُ عن الأسرارِ مهنَتي، والتحقيقُ عن كلِّ شيء في جِبلَّتي، والسعيُ «من أجلِ المعرفة» عملي، والكلامُ على «الحقيقة الصعبة» مطلبي، ومعالجةُ الألغاز دأبي وديدني... وبذلك سقطتْ عن عينيّ أقنعةٌ كثيرة، وزالتْ من عقلي رواسب تاريخيّة عديدة، وزالتْ من معتَقدي مقدَّساتٌ ومحَرَّمات، لا حصرَ لها ولا حدود... فطلبتُ «المعرفةَ» لأجل أن أحبَّ أكثر. وبقي عندي، من كلِّ ما سقط، الإنسانُ وحدَه.

من هذا المنطلق، أقدم على هذا البحث الخطير حول «السلوك الدرزي»، وأجدّ البحث في مدى مطابقته للعقيدة الدينيّة. ولا يحدوني إلى ذلك إلاّ إيماني الثابت بكرامةِ الإنسان وحرِّيَّتِه. وما من شكٍّ في إثارةِ حفيظةِ الدروز ونقمتِهم؛ وقد يرى الدروز، في بحثي، نيلاً من كرامتِهم ومسًّا بعقيدتهم؛ ولكن، ما حيلتي إذا ما كان في استئصال الدمَّل ألَم؟!

ومع هذا، قد لا يكون في استطاعتي تقديم الدواء الشافي. ولكن، يكفيني من ذلك تشخيصُ الداء، مستقصيًا أحداثًا تاريخيّةً، أنقلُها بكلِّ أمانة. وما كنتُ لأفتحَ جراحًا قديمةً لو لم يكن «السلوكُ الدرزي» هو إيّاه، في القديم والحديث. لكأنَّ هناك «مدرسةً» واحدة مستمرّة، لا تزال أبوابُ الانتسابِ إليها مشرَعةً على مدى الدهر، وقد ضمّت معلِّمينَ وطلاّبًا جُدُدًا، ضمن كوادرَ وقوانينَ ثابتةٍ جامدةٍ لم تتغيّر أبداً.

هذه المدرسةُ «كلاسيكيّة»، تقليديّة، لها نظرتها الواحدة المستمرّة. دروسها من «رسائل الحكمة» وتفاسيرِها المقدّسة. مدراؤها من آل جنبلاط وحماده وأبي شقرا. أساتذتها من مختلف العائلات الدرزيّة العريقة. طلاّبها دروزٌ من حوران ولبنان وفلسطين. أبنِيَتُها شُيِّدتْ، إثرَ المذابح، على رفاتِ المسلمين والمسيحيّين. زِيُّها سروالٌ أسود وقبَّعة بيضاء. آلاتُ الدفاع عنها فؤوس وسواطير ومناشير. نظامها الداخلي صمتٌ وكتمانٌ ومسائرة وباطنيّة وتقيّة.

فإلى «السلوك الدرزي»، في دروسه ومدارسه ومعلّميه.

***

بُنَيَّتي الحبيبة الوحيدة الباقيّة من الذبحِ والدمار!

في مدى عشر سنين، مـرَّ عليَّ وعليكِ وعلى أحبّائكِ أهوال وكوارث لا يستطيعُ القَدَرُ نفسُه أن يتحمّلها. لقـد قَتَل الدروزُ أخاكِ وابنَ خالتك. أحرقـوا مزارعنا، دمّـروا منازلَنا، ورشـقونا بأشدِّ القـذائف والصواريخ. ألانسانُ يموت. ألوطن يحكمـه قادةٌ أغبياء. مدنُه وقراه مهجورة إلاّ من الجَراذين.

بُنَيَّـتي! ها أنتِ اليـومَ في غربتكِ عن الـوطن، غريبـةٌ عنّي، وغريبـةٌ عن الأرضِ المُدَرَّجَةِ بجلاليـها التي كنتِ تهـوين الحرّيّة فيها، وغريبةٌ عن تقاليد القريةِ وعاداتها والأصحاب، تتحمّلين في هجرتك العـذاب والآلام، تبكين أرضاً وتاريخًا مَجيـدَين، قدَّر اللّهُ لهمـا قادةً هم في ذروة أغـبيـاء هذا الكون. قد تفكّرين بـالعودةِ إليها، ولكنْ تمهَّلي، تمهَّلي: ما زال الأغبياءُ يحكمون.

أسـتحلفُـكِ، يا بُنَيَّتي، بـاللّهِ، بالأرضِ والسـماء، بالحـرّيّةِ والجَمَال، أستحلفكِ بالجـبالِ التي تعانقُ النجوم، بالوحوشِ التي تستـضيء بظلمـةِ الليـالي، بـالطيـور التي هجّـرتْهـا القـذائفُ والقناديل، بالموجِ الذي يـفضحُ سـرَّ البـحـار، بالموتِ الذي يكمّلُ مسيـرةَ الحياة... أستـحلفكِ يا حرّيتي. إسمـعي. واعرفي بأنّني صامدٌ هنا لأجلك، لأجلِ أن تعودِين، ويعودُ معكِ أخوتُكِ وأخواتُكِ ممثّلو المعرفة والحقيقة والكرامة والشرف.

إسمــعي يا بُنَيَّتي، مــا أقول: إذا طُلِبَ منكِ أن تَخــتاري بين قــتلِ اللَّه وقتلِ إنســان، أقــتلي اللَّه، ولو ذبَّحــا على الصليب، وإذا قيل لكِ أن تخــتاري بين محبَّةِ الـلَّه ومحبَّةِ إنســان، اختاري هذه ولو على حساب تلك.

يا بُنَيَّتي! أعلني كلَّ ســرّ. أظهري كلَّ مســتــورٍ خفيّ. أطلبي المعرفة. قولي الحقيقة مهما كانت صعبة. وعندما تتملَّكين من كلٍّ هذه إرجعي إليّ. وها إنَّني اليومَ أُلقي عليكِ دروسًــا منها لتعرفي ما يجبُ معرفته، وتَسيري في النور.



القسم الأوّل

مَدَارِسُ الحكمة الدرزيّة

الدرس الأوّل : السيف والانتقام

الدرس الثاني : الثأرُ

الدرس الثالث : مدرسة الشتائم

الدرسُ الرابع : المسلمون وحربُ الابادَة

الدرس الخامس : ألصبر والاحتمال

جُلّتْ مـدرسـةُ الحكمةِ فـي بيروتْ، وجلّـتْ قبلهـا حكمـةُ اليـونانِ والرومان والفـرسِ والمصريّين عن أن تَنتـسِبَ بنوعٍ أو بآخـر إلى «الحكـمـة الدرزيّة». ويربأ حكمـاءُ الـعـرب وحكمـاءُ صهيون من أن يرفـعوا الانتقامَ والثأرَ والحقـدَ والغدرَ والشتائمِ إلى مسـتوى ما رفعـتْه إليه حكمةُ الدروز. هذه " الفـضائل " هي في الدرزيّة، موجِبـاتٌ دينيّةٌ مقدّسةٌ نَفّذَها أهلُ التـوحيد على أتمِّ ما هَدَى إليه «العقل».

الدرس الأوّل

السيف والإنتقام

أ - المنتقم الأعظم

أكثر من ثلاثمائة مرّة تعرِّف «رسائل الحكمة» بمؤسِّس الدرزيّة، حمزة بن علي، فتقول فيه إنّه «هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين، بسيفِ مولانا سبحانَه شدّة سلطانه»[١]. كما أنّ حمزة نفسَه يعرِّف بنفسِه فيقول: «أنا مُجَرِّدُ سيفِ التوحيد، ومُهلِكُ كلِّ جبّارٍ عنيد»[٢].

ويهدّد حمزة ويتوعّد، يرعد ويزبد، ينذر ويعلن: «أوحى إليّ سبحانه أنّه لا بدّ حتمًا من إنجاز الوعد المحتوم، وقتل كلِّ كافر ظلوم. وأُفني أهلَ الشرك والعناد، والمنافقين والأضداد. وأملكُ بسيفي جميعَ البلاد، وأحكمُ على جميع العباد. ففريقٌ

---

(١) أنظر الرسائل التالية : ٦/٦٣، ٧/٦٨، ٩/٧٣ و٨١ و٨٢، ١٠/٨٣ و٨٩ و٩٦، ١١/١٠١ و١٠٣و١٠٥، ١٢/١١٣ و١١٦ و١١٧ و١٢١و١٢٢ و١٢٦ و٢٩، ١٣/١٤٥، ١٥/١٧٤، ١٦/١٧٧ و١٧٨ و١٨٢ و١٨٣، ١٧/١٨٥ و١٩٠ و١٩٣، ١٩/٢٠٢ و٢٠٤ و٢٠٥، ٢٠/٢٠٦، ٢١/٢٠٨ و٢١٠و ٢١٢

(٢) رسالة ٣٣/٢٤٣، ورسالة ٣٧/٢٧٢.

يَسعد، وفريقٌ يحلّ به العذابُ السرمد... فلا بدَّ حتمًا من فناءِ المنافقين، وقتلِ الفاسقين، وذلِّ الكافرين، يؤدُّوا الجزيةَ وهم صاغرون، ويَلبسوا لبسَ الغيارِ وهم كارهون، ويَنزل بهم المَحْقُ والتغيير، ويَحلّ بهم خزيُ الملكِ القدير»[٣].

ومن جملة وصايا حمزة لـ «مقام الرضى» قوله له بتوصية الموحِّدين بحمل السلاح، دفاعًا عن أنفسهم وذودًا عن عقيدتهم. يقول: «أوصِهم بحفظِ بعضهم بعضاً. ولا يمشي أحد منهم إلاّ ومعه شيء من السلاح، وأقلّه سكّين»[٤].

وقد يكون السيف، أو ما يشابهه من سلاح، برأي حمزة، هو الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الدِّين، ولتأييده ضدّ المنافقين. يقول: «وأمَّا السيوف فهو (كذا) تأييد مولانا الذي أيَّدني به لحصاد المنافقين والمارقين»[٥].

ثمّ يبشّر حمزة جماعتَه بكلِّ خير، ويعدهم بامتلاك خيرات «الأضداد»، فيقول: «أبشروا، أيّها الموحِّدون، بملك ذراريهم، وأموالهم، وأرضهم، وخرابِ ديارهم، وسبي حريمهم، وأولادِهم، وإخلاطِ دم رجالهم بدم كلابهم، ويوسمون بسمة العبيد. وتملك ضعفاؤكم منهم كلَّ جبّار عنيد... فاصبروا على الامتحان تَنالوا المغفرة والإحسان»[٦].

---

(٣) رسالة ٣٣/ ٢٤٣-٢٤٤.
(٤) رسالة ٢١/ ٢١٠.
(٥) رسالة ١٦/ ١٧٨.
(٦) رسالة ٣٣/ ٢٤٤.

وما يصنعه الدروز بأعدائهم من تقتيل وذبح وسبي له ثوابه عند باريهم وجزاء عميم. قال: «على يدي يكون ثوابُ مَن أطاع واتّبع المرسوم، وعقابُ مَن عصى وحاد عن الحقّ المفهوم، يوم قيامي بسيف مولانا... وأخْذي لكم الحقّ بالقصاص... وانتزاعي النفوس من الأجساد من أهل الفسوق والعناد، وقتلي الوالدين والأولاد. وأنيلكم أموالَهم، وسبيَ نسائهم، وقتْلَ رجالهم، حتى إنّهم يطلبون الخلاص فلا من مناص، ويؤخَذ لكم من عدوّكم بأوفر القصاص»[٧].

ثمّ يأمرهم حمزة بقوله: «استعدُّوا لقتل علوجِ الضلال، وقَوْدِ الزَنْجِ في الأغلال، وسبي النساء والأطفال، وذبحِ رجالهم بالكمال، بسيفِ مولانا العليّ المتعال»[٨]. ووقت ذلك ليس ببعيد، بل «عن قريب يُظهر مولانا جلَّ ذكرُه سيفَه بيدي، ويُهلك المارقين، ويُشهر المرتدّين، ويجعلهم فضيحةً وشهرةً لعيون العالمين. والذي يبقى من فضلةِ السيف تؤخذ منهم الجزية وهم صاغرون، ويلبسوا الغيار وهم كارهون»[٩]، «تؤخذ هذه الجالية (الجزية) من الشيوخ والشباب والنساء والصبيان والأطفال في المهد... فمن خالف منهم ضرب عنقه»[١٠].

---

(٧) رسالة ٣٤/٢٤٧.

(٨) رسالة ٧/٦٨. يجب الانتباه التامّ إلى «الذبح «الذي تشير إليه رسائل الحكمة وتعتبره إمعاناً في الانتقام. وقد مارسه الدروز عبر تاريخهم بإتقان.

(٩) رسالة ٩/٨١.

(١٠) رسالة ٩/٨٦.

ولا يملّ حمزة من أوامره الدمويّة، يقول: «معاشر الموحِّدين! قاتلوا أئمَّةَ الكفر... قاتلوا قوماً نكثو إيمانهم... قاتلوهم يعذّبهم اللَّه بأيديكم، ويخزيهم، وينصركم عليهم»[١١].

وفي الرسالة ما قبل الأخيرة، رقم ٣٤، كتب حمزة إلى جماعته يعدهم بالفوز والنصر بعد المحنة التي ألمّتْ بهم. قال:

«سوف يَرِدُ إليكم أمْرٌ تَرونه عن قليل، يُشفَى به الصدورَ والغليل. ويكون لأهل التوحيد عند ظهوره نعمةٌ شاملة، وعلى مخالفينهم (كذا) نقمةٌ كاملة...

«فتيقّظوا من رقدتكم، وأقلعوا عن سهوتكم. فقد أزف الظهور، وحان الوقت المقدور.. كونوا أيّها الإخوان على أهبّةٍ من أمركم. ولا تظنّوا الذي أنتم فيه شرّاً لكم، بل هو خير لكم.

«فما تمرّ بكم إلاّ أزمان قلائل، حتى ترون مخالفيكم قد أُرْمِلَتْ منهم الحلائل، وأُوقِعوا في الغوائل والمهالك، وسُلبوا الأموال والممالك، وسُلِّموا إلى مالك، وأُلزِمُهم بالغيار، وأوقعُ بهم الدمار، وآخذ لكم منهم بالثار...

«فسوف أجعَلُ أكابرَهم لأصاغرِكم أعْبُدَ، وعزيزَهم لأحدِكم يطيعُ ويَسجُدَ.

«وأقتل المشركين والمرتدّين، بسيفِ مولانا الحاكم إله العالمين»[١٢].

---

(١١) رسالة ١٠/٩٦.

(١٢) رسالة ٣٤/٢٤٨-٢٤٩. «مالك» الواردة في النصّ هو في القرآن ملاك

٢ - السيف في وجه الإسلام

أمّا بهـاء الدين المقتنى، آخر «الحدود الخـمسة»، فيـذكّرنا بدعوة حمـزة لجماعته بقوله لـهم: «ألم تُؤمَروا، في سجلٍّ مكرّم من الأمـر العـالي الشـريف المعظَّم، بحـمل السـلاح في جـمـيع الأماكن، حـزماً للكبيـر والصغير، والقـريب والبعيـد، في الحرم الأمين، إشـارة إلى إظهـار التـوحـيد والـتصـريح والتـسـبـيح والتمجيد؟!»[١٣].

إلاّ أنّ بهاء الدين يركّز تعاليمَه على نشاط السيف في اليوم الأخير. وما همّه في تعاليمه التـوحيديّة إلاّ القضاء التامّ على قيم الإسلام جميـعِها: على النبيّ محمّـد، ووصيِّهِ علي بن أبي طالب، وعلى مكّة والكـعـبـة والحـجـر الأسـود، وعلى كلِّ مـا يمتّ إلى الإسلام والمسلمين بصلة.

ففي اليوم الأخـير من هذا العالم، عندما يظهـر حمزة على ظهر جواده المطهّم، يشهر سيفَه المشرفيَّ الصارم، ويسحب ذيلَه وراءه، يريد القـضـاء على مكّة ومـقـدّسـاتهـا.تقـول الحكمـة : «وسـحبَ ذيلَه بالخـسفِ لمقطرةِ الكفـر والبـاب الأعظم لتـهامـة (أعني مكّة)، وعكس دخانَه لذات الفجاج والشـعوب، وسعر ناره بها لهدم الهيكل (الكعبة) وإحراق بصائر القلوب[١٤]...

الموت الذي يخطف النفوس من الاجساد. أنظر سورة ٤٣/ ٧٧.

(١٣) رسالة ٤٢/ ٣٢١-٣٣٢.

(١٤) رسالة ٦٣/ ٤٨٩.

عندما يظهر حمزة، بهذه الصورة، سيكون القضاء التامّ على المسلمين ورموز الإسلام. وظهوره يكون مقدّمة لتجلّي الحاكم الأخير، الذي، بعد أن يكون حمزة طهّر الأرضَ من «الأضداد»، سيعتلي جبالَ مكّة، ويدين الملوك والسلاطين والشعوب كافّة، ويعمّ دين التوحيد الكون من أقصاه إلى أقصاه.

٣ - الغاية القصوى

فالسيف اذن، في منطق الدروز، هو علامة القيامة والغلبة والنصر الأخير:«إنّ القائم (حمزة) سلام اللّه على ذكره، بعد غيبتِه، لا يَظهر إلاّ بعد كمال العدّة، وسيفُه مشهر قائم به على الجحدة الفسّاق، في جميع الأقطار والآفاق»[١٥].

في ذلك اليوم، سيقوم الموحِّدون جميعُهم، عند «ضجيج السيِّد الهادي الإمام (حمزة)، وشموس القيامة وأقمار التمام (الحدود)، بسيوفهم، ينتقم من أبالسة الأدوار (الأنبياء) وأشياعهم الفاسقين»[١٦].

في اليوم الأخير، سيحلّ الذعر بالمنافقين، وتخضع رقابهم لضربات سيف حمزة. وبعد أن يشربوا «كأس الحمام»، سيخضعون «للذلّ الشامل، والسيف الصارم القاتل، وتطأهم بأخمصها كتائبُ الملكِ المظفَّر المسعود»[١٧]. عندئذ «إذا استُلَّ مِن

---

(١٥)رسالة ٧٦/ ٦٩١-٦٩٢.

(١٦)رسالة ٥٦/ ٤٧٨.

(١٧)رسالة ٥٥/ ٤٢٢.

غـمـده الصـــارم الذَّكـر (السـيف)، واقـتـــدحتِ الأرضُ بالنار والشرر... هنالك تبورُ الدجاجلة (الأنبياء)»[١٨]. و «إذا اشتهر من المشـرق الصارم المشـرفيُّ، وظهـر من الحجب المسـتورُ الخـفيُّ (حــمـزة) لتطهـير الأرض وتغـيـيـر الملك، وقـتلِ أبالسـةِ الدين (الأنبـيـاء) ونقلِ الدول... هنالك يشـتـهر من المشـرق المشـرفيُّ الصارم، ويقوم بحدِّه على الملحدين الإمامُ القائم»[١٩].

في ذلك الزمان العسير «أين يتاه بعالم النَّجس... من سيفٍ يعلو الربى مـتعنجراً بـالدم، يطوى طلا الباطل، ويهـدم الأركان (أركـان الكعبـة) من نواميس الشـرع»[٢٠]. فأين المفـرّ... وكيف الخلاص لأهل الخـلاف المردة المعانديـن، وقد أحدق بهـم طوفان السيف!»[٢١].

وهكذا. في هذه الدنيـا، يكون سـيف حـمـزة مـسلّطاً على المنافـقين والمرتدِّين؛ وفي الآخـــرة سـيكون لـه دورٌ أعظم وهو القضاء على الأنبياء «أبالسة الدين» وفي دكّ معالم مكة وكعبتها.

وليس على الدرزيِّ، إذا شـاءَ أن يكون مؤمناً بعـقيـدته، إلاّ أنْ يتشبَّه، هنا، بإمام زمانه، حتّى يستطيعَ، هناك، الاتّحادَ. وليس علينا نحن، في كلِّ حال، إلاّ أن نجلَّ الدرزيَّ على وفائه لإيمانه.

---

(١٨) رسالة ٦٠/ ٤٧٢.

(١٩) رسالة ٦٢/ ٤٨٤-٤٨٥.

(٢٠) رسالة ٦٣/ ٤٨٩.

(٢١) رسالة ٦٦/ ٥١١.

الدرس الثاني

الثأر

لقد لجأ الدروز إلى السيف؛ فنالوا به الثأر لدماء الموحّدين الذين قتلوا ظلماً في أوائل الدعوة. وهم يترقّبون ذلك اليوم الذي فيه يحقّقون التسلّط على ملوك العالم وسلاطينه، ويقضون على أديانه وأنبيائه وشرائعه الفاسدة. وذلك يكون عندما يتجلّى الحاكم من جديد، بعد تجلّي قائم الزمان حمزة، ويُحكم قبضتَه على الأرض وما عليها، ويستوفي تلك الوصيّة الرهيبة.

أ - الوصيّة المثلى

ألوصيّة بأخذ الثأر لدماء الموحّدين المظلومين عزيزةٌ على قلب كلِّ درزيٍّ مخلصٍ لدينه غيورٍ على عقيدته وإخوانه. بهذه الوصيّة يحفظ الدرزيُّ إخوانَه في الدِّين، ويسدقهم[1]، ويتعهّد كرامتهم، وينتقم لدمائهم المهدورة ظلماً. وكم ردّد بهاءُ الدِّين المقتنَى وصيّته هذه أملاً في أن تتحقّق بتمامها وكمالها.

---

(١) ألصدق ومشتقّاته يكتبها الدروز بحرف «السين» لتوافق قيمةُ حروفِها عددَ أنبياء السدق الـ ١٦٤.

والأخذ بالثـأر أمرٌ جسـيمٌ على الدروز، أوجبتـه «الحكمةُ» عليـهم بقـولهـا: «لا تَهِنُوا عن أخْـذِ الـثـأرِ لدمـاءِ المـوحِّـدين المظلومِين»[٢]. والدروز جميعهم مـدعوّون إلى أن يكونوا «مقتفين لفـضـائلهم (أي فـضـائل الحدود) بأخـذ الثـأر لدماء الموحِّـدين المظلومين الممتحَنين»[٣]. وجميعهم أيضاً، حدوداً كانوا أم دعاةً أم مستجـيبين، سيقومون بعمليّـة الثأر هذه: «سادات الأمم رؤساء الأعراف الآخذين بثأر أهلِ الحقّ عند قيام القائم الهادي»[٤].

ألوصيّة إيّاها تملأ صـفحات «الحكمة» وبالتعابيـر نفسها. تقول الحكمة: «نهضَ لأخْذِ الثأرِ ساداتُ الأمم رجالُ الأعراف»[٥]؛ وأيضًـا: «أولئك أعرافُ الحقِّ سـاداتُ الأمم الرافعـون الحقَّ على كلِّ منارٍ وعلم، الآخِذون بثأرِ أهل التوحيد... جزاءً لارتكابهم (أي لارتكاب أهل الشكِّ والكفـر) من الموحِّدين العظائم، واستـحلالِهم منهم الكبـائرَ والمآثم... وانتـهـاكِ المحارم بـذمم إبليس (أي النبي محمّد) وشياطينه وأترابه (أي أوصيائه وتبّاعه)»[٦].

وفي اليوم الأخيـر، «أين يتاه بكم أيُّها المرَقَة الفـسَّاق، وقد أُسرجتْ لثأرِ أهلِ الحقِّ الضمَّرُ العتاق (أي الخيول المطهّمة، وهي كناية عن الحدود)، وتقضّى المضمـار وحان السباق»[٧]. لقد «آن

(٢) رسالة ٦٨/ ٥٤٧.
(٣) رسالة ٦٨/ ٥٣٨.
(٤) رسالة ٥٦/ ٤٣٨.
(٥) رسالة ٦٦/ ٥١٧ .
(٦) رسالة ٧٤/ ٦٦٣.
(٧) رسالة ٦٢/ ٤٨٤.

أخـذُهم للثأر بدمـاء آل الحقِّ المظلومـين المـوحِّدين، من حـزب الدجَّال ومن الأدعياء النكَثَة أهلِ الإلحاد والتكذيب المعاندين»[٨].

وما يُعـرف حمزة، قـائم الزمان وهادي المسـتجيـبين، إلاّ «الآخذ بثـأر أوليائه الـممتـحنين الركَّع السـجود، من آل السَّـفه والفسقِ والجهل والجحود»[٩]. وهو يتعهّد بأن يكون «آخذاً بثأر أهل التوحـيد من الشَّيصبـان والعجل»[١٠]. ويحلف باللّه العظيم بأن لا يهـدأ له روعٌ إن لم يأخذْ بثـأرِ أتبـاعه المظلومـين: «وحقّ البـاري عندنا، وعـدٌ له يوجب أخـذهم بثـأر أنفسـهم من أولاد السفاح والحرام (المسلمين)»[١١].

٢ - الثأر رأس «الحكمة»

تزخرُ رسائل الحكمة بالحديث عن الثأر، في هذه الدنيا كما في اليوم الأخيـر. وقد يتمّ الثأر، هنا، في ساعـة لا نخالها، وذلك عندمـا توافي الظروفُ المـلائمة، أي عندمـا يفلت المـجتـمع من أنظمـته، في ثـورةٍ طاميـة، أو في حـربٍ طاحنة، أو عند تغـييـر الدول، أو لدى اضطراب الأمن والنظام... عندئـذ يعدّ المـوحِّدون المـخلصون لعـقـيدتهم كلَّ عـدّة، ويهـيِّئـون الأسلحةَ اللاّزمـة، ويحـتاطون لكلِّ طارئ. ويمـهّدون له بكلِّ مـهـارة، فيُظـهرون

(٨) رسالة ٦٦/ ٥١٦

(٩) رسالة ٧٤/ ٦٦٤

(١٠) رسالة ٦٢/ ٤٨١. الشيصبان هو علي بن أبي طالب. والعجل: محمّد.؛ أنظر كتاب العجل والشيطبان رقم ٤ من سلسلة الأديان السرّيّة.

(١١) رسالة ٧٤/ ٦٦٥.

للعالَم مظالِمَهم، ويَفتحون ملفّاتِ نكباتهم، ويُحاولون إقناع الناس بما حدث لهم من ذلّ وقهر وتصبّر واحتمال.. ثمَّ يقدمون على ما في نيّاتهم، بعد أن يكونوا أخذوا لنفوسهم براءة ذمّة.

والثأر في الدرزيّة هو كالجهاد في الإسلام، مع الفرق أنّ الجهاد في الإسلام هو سبيلٌ إلى اللّه، ودفاعٌ عن الدين، وعملٌ على نشره؛ بينما الثأر عند الدروز ليس لأجل دعوة الناس إلى مذهبهم -لأنّ باب الدعوة مغلَق- بل هو انتقام لإخوانهم الذين قتلَهم المسلمون ظلماً في نشأة الدعوة، والذين يقع صراخُ دمائهم على عاتق كلِّ درزيٍّ وفيّ.

هذا ولا بدّ للدرزي من أن يصلّي كلَّ يوم، ويذكر في صلاته كي تستجاب، كلَّ ما يعود إلى الثأر لدماء إخوانه والانتقام لهم بإذلال محمّد والإسلام والمسلمين الذين كانوا المسؤولين عن إراقة الدم البريء. وهاكم ما يقوله الدرزيُّ في تضرّعه:

«أللّهمَّ! إنّ قرنَ الشيطان (محمّد) قد طغى فأذِلَّه، وعددُ أهلِ الارتداد والنكث[١٢] قد كثر فأقِلَّه. فقد أظهروا من الغلِّ والنكثِ ما كان في الكنائن مستورا، وأبدوا من الضدادة والعناد ما صار لمتأمّله بعد الطيِّ منشورا. فقاتَلونا بأسلحتنا من حيثُ أمِنّا على النفوس، ورجعوا إلى ما ألِفوه من عبادة العجل (محمّد) والجاموس (علي).

---

(١٢) أهل الارتداد هم الذين اعتنقوا الدرزيّة ثم تركوها، فكانوا خطراً عليها.

«أللَّهمَّ! فبكَ المستغاث. وإليك المشتكا. وفي يديك الممات والمحيا. وإليكَ، بوليِّكَ، المفزَعُ والملجا.

«أللَّهمّ! فأرِنَا بمساديق وعدكَ اجتثاثَ شجرة الأوغاد (المسلمين)، وصلِّ على أوليائكَ الطاهرين الأشهاد، وسلّم تسليما»[١٣].

٣ - تاريخ القهر وردّات الفعل

يحمل الدروز على مناكبهم عبء تاريخٍ مرير، مشحون بالظلم والقهر، حافل بالقتل والدم. هذا التاريخ الأسود على امتداد قرون أورثهم الحذرَ والحيطة والتقيّة، ممّا اضطرَّهم إلى السير في الدهاليز المعتمة والمنعرجات الضيّقة منغلقِين متضامنين في انتظار الفرج.

ترى أيّهما أفعل: قهرٌ تناقلته الأيّام وزادت عليه مرارةَ العيش والانطواء الكئيب! أم «تقدّميّة» أرادوا بها تحطيم قيود الماضي والتسامي على جراحاته البالغة؟

لو استطاع عالم نفساني سبر أعماق ضمائر الدروز لوجد، في لاوعيهم، قهراً رابضاً في نفوسهم، منذ ألف سنة، يتفاعل، ويتعاظم جيلاً بعد جيل. ظلمٌ تاريخيّ جرفَ منهم آلاف الضحايا، وخلّف في نفوسهم حقداً مستمرًا. وعندما تفتقد القوّة لمواجهة الظلم، لا بدّ من اللجوء إلى وسائل أخرى. وهذا ما فعله الدروز،

---

(١٣) رسالة ٥٧/ ٤٥١-٤٥٢، ورسالة ٦٠/ ٤٧٣.

فمـارسوا التـقيّـة، والمسايرة، والتـمويه، والكـتمان، والحـيطة، والتدليس، والانعزال، والتـظاهر بعقيدة أعدائهم، وبـ «الاسـتتار بالمألوف عند أهله»[١٤].

ألمسكّنات والمطفّئات التي اعتمـدها الدروز لمقارعة القهر لم تُنلْهم مـأرباً، ففطنوا إلـى ذلك، وكان، بحـسب قولهم: «أضـعف الأدوية المسكّنات، وأقلّها نفعاً المطفّئات، وإنّما المنفعةُ في العقاقير البشـعة»[١٥].

وكـان آخر مـا لجأوا إليـه في أيّامنا ألعلـم و«التقـدّميـة» و«الاشتراكيّة» و«العلمنة» و«تطوير النظام السياسـي»... وما إليه من تعابير عصرية حضاريّة؛ غير أنّ كلّ ذلك لم يكن إلاّ في سبيل التسامي على الجراح والاستعلاء على عقدة التخلّف والانعزاليّة. ولم يؤدِّ بهم إلاّ إلى الفـشل في اللّحاق بركـاب الحضـارة والعلم والتقدّم والعلمنة.

ولم يبقَ في منعطفـات النفق إلاّ منفـذٌ واحـدٌ علّه يطلّ بهم على بعضٍ من نور. لقـد تزيّوا بالغـرور والكبرياء، وادّعـوا أنّهم «أسـاتيذ الدنيا في التـسامح والتساهل»[١٦]. بيد أنّ ذلك لم يوفّر لهم أيَّ علاج ناجح، ولم يخفّف وطأة الحقـد التاريخي العامر في قعر نفوسـهم.

---

(١٤) هذه التعابير تؤلّف ألفباء الدرزيّة. وكتبهم تزخر بها.

(١٥) رسالة ١٠٢/ ٨٠٥.

(١٦) عارف النكدي في مقدمة كتاب «الواقع الدرزي وحتميّة التطوّر»، ص ٨.

كلٌّ ذلك لم يكن ليثـير العجب إذا ما أخذنا بمـنطق الأشياء. فالسلبيّة لا تلد إلاّ السلبيّة، والثأر يسـتدعي الثأر، والحقد يتفاعل حقـدا... وهكذا فالدِّين الذي يلعن كلَّ دين، ويدعـو إلى تهديم كلِّ دين، ويتَّهم بالضلال نبيِّينَ ومرسلين... لا بدّ من أن تدور الدائرة على معتنقيه، إنْ لمْ يكنِ اليوم فغداً.



الدرس الثالث

مدرسة الشتائم

يد هؤلاء الدروز، التي حملت المحراث والمعول، أخصبت الأرضَ، وأنبتَتْها اخضراراً، ودرّجتِ السفوحَ والجبال حتّى أزهرت وأثمرت؛ وقطّعت الصخور وصقلتها فأعلت البناء، هي يد سخيّة تستوجب الثناء.

ولكن، ويا للأسف، لقد طغتِ «الحكمة» على كلِّ خلُقٍ كريم. برزت تطمس العطاء، وتلوّث اليد بالاجرام، وتمزج العرقَ بدم الأبرياء. «حكمة» أمرتْ بامتشاقِ السيف وحملِ السكّين والفأس والمنشار، بدل المعول والمحراث وآلات البناء، وحضّت على سفك الدماء بروح حاقدة وبشتائم تنالُ من كرامة الإنسان.

وهكذا طغى الشرّ على الخير ورفعت «الحكمة» رايةَ انتصارها. وما كنّا لنتجرّأ على هذا الاستدراك لو لم يدفعنا إليه سببان: أوّلهما ما نسمعه من أفواه العقّال ونقرأه في تصريحاتهم من ألفاظ نابية؛ وثانيهما ما نكنّه من محبّة للانسان، أيّ انسان، وأيّا كان معتقده.

ولسنا، بين السببين، من دون قلق. وما زلنا نتساءل ونسأل ونبحث عن كلّ حجّة تريح قلقَ عقلنا وارتباكَ ضميرنا، إلاّ أنّ هدفاً مزدوجاً خفّف قلقَنا وارتباكَنا : أوّلهما رغبة ملحّة في إعلان كلِّ مستورٍ خفيٍّ مهما كان سترُه مقدّساً وعميقاً؛ وثانيهما البحث عن الحقيقة التي تشدّنا إليها وتدعونا بإلحاح إلى التعاون والمحبّة والعمل في سبيل مجتمعٍ مدنيٍّ أفضل.

ولئن شئنا، الآن، استعراضَ أساليب «الحكمة» في ألفاظها وتعابيرها وصورها ورموزها، مع ما فيها من عداء وكراهيّة وفظاظة، فلا يمنعنا ذلك ممّا ندعو إليه من محبّة وإخلاص وتعاون واحترامٍ لكرامةِ الإنسان.

وبوسع كلِّ باحث غيور أن يتحقّق بنفسه، بعد أن يسمع كلام «الحكمة» ويرى صورها بأمّ عينه، ما هو «المثال الأعلى» عند أصحابها ومقدِّسيها. وبمقدور كلِّ إنسان أن يفهم، بعد اليوم، معنى تصرّفات الدروز الذين أفسدتْ عقيدتُهم عليهم إنسانيّتَهم. من هنا كان جلُّ همِّنا في رفع الغطاء عن العقيدة إنقاذاً للإنسان.

أ - أخصّ مقولات «الحكمة»

* من أقوال الحكمة في «الأنبياء» أنَّهم «كلّهم شيء واحد من القول والعور، مختلفون في الصور»[1]. «نفسهم واحدة وهو

---

(١) رسالة ٢١/١٢٢.

إبليس اللّعين»[٢]. «كلّهم دوابٌ وحمـير»[٣]. «دعاويهم تمـويهات على الأمم، وغـير جـائزة إلاّ على أشـباه الـبقـر والغنم»[٤]. يجب كرههم لأنَّ «أوّلَ البـراءة منهم بغضُـهم ومَقتُـهم.. ثمّ البراءة من أفعالهم الرديّة وأقوالهم الكاذبة»[٥]. هم «معادن النواميس الفانية الحشويّة، والأعمال الفـاحشة الدنيّة»[٦]. هم «أبالسة الأديان»[٧]، و«دجاجلة العصور»[٨]، و«أهل التلبيس والإبلاس»[٩].

ثمّ تخصّ «الحكمـة» كلَّ نبيٍّ بمفـرده، وتوجّـه إليـه اللّعنَ والشتائم.

* فها هو موسى نبيّ اليهود «الأذلاّء المقهورين.. الملعونين المتـزندقين.. أصـحاب البـلس والكفر والجـحـد والإباق»[١٠]، إنّه «مكاري على ألف جمل في خدمة الموحّدين... وليس هو نبيّ، ولا مختصّ بالنبـوّة. يجوز اللعنة على أمّته... وقـد لعنهم مولانا في كل كَوْرٍ ودَوْر»[١١]. وهو أيضاً مـتّصف بـ «الجـهل والسخف...

---

(٢) تفسير رسالة ١٣، ص ٢٤٥.
(٣) رسالة ١١/١٠٣ و ٩٩.
(٤) رسالة ٦٨/ ٥٤٥-٥٤٦.
(٥) تفسير رسالة ٣١/ ص ٢٤٨.
(٦) رسالة ١١/ ١٠٢.
(٧) رسالة ٦٢/ ٤٨٢ و٤٨٤، ورسالة ٥٦/ ٤٣٨،
(٨) رسالة ٦٢/ ٤٨٢.
(٩) رسالة ٧١/ ٦١٤.
(١٠) رسالة ٧٢/ ٦٢٤ وما يلي.
(١١) تعليم الدين الدرزي ، س ١٢١، رقم ٢ من سلسلة الأديان السرّيّة.

ضعيف العلم، لا يفرّق بين الظلـم، ولا يعلم ما أفاضه المولى على عبيده من التأييد وسادق الحكم»[١٢].

* والمسيح الذي «أسمى نفسه بالمسيح هو المسيح الكذّاب، الشقيّ، المعـتوه، المرتاب... ألمسيـح الضالّ الكذوب... الذي ادّعى لنفسه منزلـة الإمام المسـيح (حمـزة). هو الدَّعيُّ الملعـون»[١٣]. والمسـيحـيّون أتبـاعه هم «جـمـاعة المدّعين.. الكذبة.. الأجـلاف الأغنام، بقـيّـة عبـدة الأوثان والأصنام.. ألخـونة.. ألفَـسَقـة في الصمم والبله والعمي، كالبهيمة البهماء. صمٌّ عن سماع السدق.. غـفَلَة، كفـرة، منكرون، مكذِّبون، مـشكّون.. أشبـاح بلا أرواح.. جماعة المارقين، الظلمة، ألفَسَقة العادون، والمرقَة الكاذبون.. أولاد الأفاعي.. ألأنجـاس المدَّعون، الفَسَـقة المعتـدون، غفول حـيارى، عقولهم سكارى.. جماعة الخيبة.. الجهلة.. ألكفرة العميان.. عبيد السوء.. بُكْمٌ.. صُمٌّ.. مـنكرون جاحِدون.. ألغُلفُ القلـوب.. ألقَتَلة، الكفرة الملاعين.. ألفَسَقة الأضداد»[١٤].

* ونال النبي محمَّـد وجماعته القسطَ الأوفـر من الشتائم واللعنات. فهـو «الإبليس الأعظم الذي نفَثَ سمَّ نَجَسِـه في أنيابِ شيعتِه»[١٥]. هو «الأبليس، المعتوه، الشيطان، آخرِ عُكورات مُجَوَّرِ

---

(١٢) أنظر رسالة ٧١ بكاملها.

(١٣) رسالة ٥٤/ ٤٠٠ وما يتبع.

(١٤) أنظر رسالتي ٥٤ و ٥٥ بكاملهما.

(١٥) رسالة ٦٠/ ٤٧٠، ورسالة ٥٦/ ٤٣٩ وغيرهما.

الفَلَك»[١٦]، «ألدَّجَّال الرَّجيم الأجذع.. ألخبيث الأعمى الفاجر.. ألمعتوه الهبّال... ألعجل[١٧]، ألمسعور المفتون.. ألمسرف الكذّاب»[١٨].. أمّا الأمير السيّد، في شروحاته السرّيّة لرسائل الحكمة فيقول: إنّ إبليس «لم يكن ظهر في ناطقٍ (نبيّ)، ولا في غيرِه، من مبتدا الدنيا إلى زمان الكشف، لا أشدّ عتوًّا، ولا أشدّ ناموساً، ولا أصرم سيفاً، ولا أعظم قتلاً، ولا أقوى كذباً، ولا أعظم رغبةً في نسوانٍ وشهواتٍ بهيميّة، ولا إباحة معاصي، من شخصِ الناطق محمّد لعنه اللّه»[١٩].

* والمسلمون، أتباع محمّد، هم «أوباش الأمم.. أجلاف الأمم.. أوغاد الأنام، أولاد الحرام.. ألخونة الأغتام، ألغَفَلة النوّام.. كَدَر الأمم، عبَدَة العجل والصَّنم.. أشباه البقر والغنم.. أخبثُ الأمم.. أولادُ البغايا العواهر، وبقيّةُ نسلِ أغتامِ البرابر.. ألهلكة الأغفال.. خشاش الفترة الكذبة المفترين.. ألمردة المعاندين.. ألبلسة المموِّهين.. ألطغاة الفسقة المكذِّبين.. ألبهائم المهملين.. ألجحدة السوائم المنكرين.. لا يرتدعون عن السَّفَه وارتكابِ المآثم. قد أخلقوا معالم الدِّين بالوساخة والفساد»[٢٠].

---

(١٦) رسالة ٦٣/ ٤٨٨.

(١٧) أنظر كتاب «العجل والشيطان»، رقم ٤ من سلسلة الأديان السرّيّة.

(١٨) رسالة ٧١/ ٦١٥. أنظرها بكاملها في كتاب «النبي محمد في العقيدة الدرزيّة» من سلسلة الأديان السريّة، رقم ٣.

(١٩) تفسير كشف الحقائق للامير السيّد، ص ٧٤٥.

(٢٠) أنظر الرسائل التالية : ٥٦/ ٤٣٧-٤٣٨، ٤٥/ ٤٣٦، ٥٧/ ٤٤٩، ٥٩/ ٤٦٥، ٦٥ بكاملها، ٦٢/ ٤٨٤، ٨٢/ ٧٣٨ وما بعدها، ٦٢/ ٤٨٥. وجميع رسائل

* وعلي بن أبي طالب «زوجة إبليس اللَّعين محـمّد بن عبد اللَّه هو أنجس الخلق بعـد مـحمّـد»[٢١]. وقد علَّـم حمزةُ النـساءَ الموحِّدات «أنّهـما، أي محـمّد وعليّ، لا يجوز لـكنَّ أن تُطعِنَ أحداً منهـما. وقـد نهى الدِّين عنهمـا. ألم تَرَيْنَ أنَّ المولى عزّ وجـلّ قد ملَّكهما الدنيا؟ أليس أشار لكنَّ بأنّهما دَنِيَّانِ القدر؟»[٢٢]. وعلي مع محـمّد «هما النحـسان العظيـمان»[٢٣]، لَمّا اقتـرنا واتّفقـا وأتلفا وامتـزجا خـرج من بينهمـا جمـيعُ العقـائد الفاسـدة والتكاليف والعـبادات المُحـرقة والطرائق الرديّة. وجـميعُ مـا في الناس من الفسادات والمعاصي، مِن مبتدا الدنيا إلى يوم القيامة، فهو منهما، ومن تأثيرِهما، ومن مادّتِهما، وبحرِهما الآجِن الزعاق. فالأساس (علي) مُـعين الناطق (محـمّـد) على جمـيع مـفاسـده لعنه اللَّه». وعلي، بالنسبة إلى مـحمّد، هو «زوجتُه وأليفُه وحليـفُه وسديقُه على المروق والفسوق والعقوق، لأنّ النتائج الإبليسيّة والنواميس الشركيّـة من بينهما ظهرتْ، ومنهـما خُلقتْ، وإليهمـا نُسبت. فلا محرّم في الدنيا إلاّ وهما أصله»[٢٤].

* كـيف يكـون الشـيـعـة، أصـحـــاب علي، إذن؟ هؤلاء «الواقـفـون مع اللّـعين صـاحب البـاطن، هم، بنظـر بهـاء الدِّين

الحكمة تدور حول هذا الموضوع.

(٢١) تفسير كشف الحقائق، ص ٧٤٥.

(٢٢) رسالة ١٨/ ٢٠٠.

(٢٣) تفسير كشف الحقائق، ص ٣٦.

(٢٤) المرجع السابق نفسه، ص ٣٧.

المُقتَنى، سهوةٌ غَفَلة.. بَلَسة.. مثلت البهائم.. سلبة العزائم.. خرصة.. ظلمة.. أهل النصفة»[٢٥].

* أمّا مكّة فشتائم حمزة وبهاء الدين عليها كشلاّلات هادرة. إنّها، بحسب قول الحكمة «مقطرة الكفر أعني مكّة»[٢٦]. وهي «دار الفاسقين ومقيل الأبالسة (الأنبياء) والشياطين (الأوصياء)»[٢٧]. هي «ديار الأنجاس»[٢٨]، و«أرض الطغاة الفَسَقة المكذّبين»[٢٩]. إنّها «موضع الخراب الموحش النجس العاهر»[٣٠]. وعندما يتجلّى الحاكم، في اليوم الأخير، من فوق جبال مكّة «يأذن جلّ جلاله بخراب البيت العتيق الذي هو الكعبة»[٣١].

ويسترعي انتباهَنا وصفان لمكّة : «مقطرة الكفر»، و«مقيل الأبالسة والشياطين». الأولى تعني أنّ الكفر يتقطّر من جدران كعبة مكّة كما يتقطّر السمّ الزعاف من أنياب الأفاعي. والثانية تعني أنّ الأبالسة والشياطين، أي الأنبياء والأوصياء، إذا ما تعبوا في صنع الشرّ وكدّوا في جرّ الناس إليه، لا بدّ لهم من أن يأخذوا قسطاً من الراحة والقيلولة. وليس مكان في العالم أكثر استراحةً

---

(٢٥) رسالة ٧٥/ ٧٦٨ بكاملها.
(٢٦) رسالة ٦٠/ ٤٧٢، ورسالة ٦٣/ ٤٨٩.
(٢٧) رسالة ٦٦/ ٥١٧، ورسالة ٦٤/ ٤٩٣.
(٢٨) رسالة ٦٢/ ٤٨٣.
(٢٩) رسالة ٦٦/ ٥١١،
(٣٠) رسالة ٦٦/ ٥١٣.
(٣١) تفسير كشف الحقائق، ص ٧٨١.

وقيلولةً لهم من مكّة حيث يجدون لهم ملجأً آمناً لا يزعجهم فيها أحد. ذاك لأنّ الكفر هناك منبعه، ومن هناك يُصَدَّر إلى العالم.

٢ - «الحكمة» تصيب «المرتدّين»

ثمّ أصابت شتائم «الحكمة» وألفاظُها البذيئة أشخاصاً أقلّ قدراً من الأنبياء والأوصياء، فوصفتهم بالأسلوب عينه. هؤلاء نذكر منهم بعض الذين اعتنقوا الدرزيّة، منذ نشأتها، ثمّ ارتدّوا عنها لسبب من الأسباب. واسمهم «المرتدّون». وهم أكثر خطراً على الدرزيّة من الملحدين والمشركين، أي من السنّة والشيعة.

* تقول «الحكمة» في ابن البربريّة، أحدِ المرتدِّين، إنّه «الفاسق النجس.. ألجائر الظالم.. ألمعتوه الشيطان.. ألنَّغْل الأفّاك الأبِق.. صاحب الغيِّ والغفلة.. ألدعيّ.. ألخائب الخيّاب. وهو بالحقيقة المسيح الكذّاب. غلب عليه خبثُه وشقاه. ألملعون المنجوس، ألفاسق الدهّاش، المارق البهّات.. ألنجس المبثور، ألشيطان المخترِصُ الإفْكَ والزور، ألمدَّعي لعلم الغيب وتحديده بالكذب.. هو من سلالة الكفر والشرك والزندقة، آخر الأشقياء المدَّعين، وأوّل الفراعنة الهالكين»[٣٢].

قصّة هذا «النغل المعتوه أنّ رجلاً أسمه ابن أبي خمار، استرقّه. وكان يلوط به. ويزنِي بأمِّه. ويأجر نفسه بفعل الفاحشة»[٣٣]. لذلك فهو «من أهل البغاء وأولاد العواهر»[٣٤].

---

(٣٢) رسالة ٧٦ بكاملها.

(٣٣) كتاب «الدرر المضيّة».

والذين ساروا في كفره هم أجلاف أغتام.. فاسقون. هم أمّة خائبة. صمٌّ عميّون. هم البائعون الدِّين لخساستهم بأقلِّ المآكل وأنتنِ المناكح. وأوباش الأمّة. أشقياء فَسَقة أغباش»[٣٥].

* وهناك مرتدّ آخر اسمه «لاحق»، كنيته أبو الفوارس. انخدع به بهاء الدين، وقلّده مهمّة دينيّة رفيعة، وسمّاه «الشيخ المختار.. والكوكب السيّار».. ولكن، بعد أن انكشف قبحُه انهال عليه بالأوصاف المذمومة، فدعاه بـ «المرتدّ النَّجس المنافق، أوّل مَن ابتدع مذهب الإباحة». ثمَّ أرسل إليه «توبيخاً» جاء فيه: «إلى الطليقِ الخائب الناكث العاقّ، ألعاجزِ عن حميد الطاعة إلى العصيان والإباق، المخترصِ بالكذب والخلاف والشقاق، ألسالكِ لسبيل أهل النكث والبلس والنفاق.. ألخائبِ الدعيّ المحملق المعتوه.. ألمارقِ الشقيِّ صاحبِ السمّ النجس. مثله مثل الأعجف الحمار المكدود في الدولاب لسقي الثمار، أو كالبغل المستخدم في الرعي»[٣٦].

* أمّا «سُكَيْن» فقد أصبح أخطرَ المرتدِّين بعد أن كان داعياً نشيطاً يبشّر بالتوحيد. إسمه الحقيقي «مسعود»، ولقبه «ابن الكردي». انهال عليه بهاءُ الدِّين بالقدْح والذمّ أكثر من أيّ مرتدٍّ آخر. وبسببه أغلقَ بابَ الدعوة. وصَفه بـ «الخائب العاجز. المذموم. الفاسق. يفعل أفعال الشياطين. ألنجس المرتدّ الملعون.

(٣٤) رسالة ٧٦ بكاملها.

(٣٥) المرجع نفسه.

ألمارق الكذّاب.» يؤلّف مع جماعته «يهود هذه الأمّة، لأنّ النواصب (أهل السنّة) خيرٌ منهم.. ألفـاجر المارق المرتاب الكذّاب.. لعنةُ اللّه عليـه وعلى أشبـاهه وأسبـابه ما عكف ظلامُ الليل وبرقَ صـبحُ النهار»(٣٧).

***

هذا غـيض من فيض، وعـيّنةٌ وضيـعة من عـالم السبـاب والشتائم. نعـترف بعجزنا عن استخـراج كلٍّ دفائن هذا المستنقع النتن. وليس لطالب الازدياد من مـعرفـة الحقـيقة إلاّ بـأن يتزوّد برسـائل الحكمة وشـروحاتها. فهي الحجّة الوحيـدة لما ننقل. كما هي البراءة الوحـيدة لما نســمع من أفواه الدروز المعـاصرين من تصريحات وأحاديث في مختلف الميادين والمناسبات.

---

(٣٦) رسالة ٧٧ بكاملها، ورسالة ٤٥.

(٣٧) رسالة ٧٨ بكاملها.

الدرس الرابع

المسلمون وحرب الإبادة

منذ البدء قامت الدرزيّة على الطعن بالإسلام والمسلمين، وعلّمت سبّ محمّد وشتم النّبيّين والمرسلين، فأخذت الميثاق على كلّ موحّد أمين، أن «يتبرّأ من جميع المذاهب، والمقالات، والأديان، والاعتقادات كلّها على أصناف اختلافاتها»[1]. وكان ذلك ردًا على حربٍ شرسة شنّها عليهم الخليفةُ الفاطمي، علي الظاهر، ابنُ الحاكم، «الدجّال اللّعين».

وبسبب ذاك الطعن وهذه الحرب، استحكمتِ العداوةُ بين الفريقين، وجرت دماء الموحِّدين أنهاراً، وفتكتِ السكاكينُ والفؤوسُ بالصدور والرؤوس، ونُهبت أموالهم وأرزاقهم، واستبيحت نساؤهم وذراريهم... فأُقفلتْ أبواب الدعوة إقفالاً نهائيًا، بعد أن ارتدَّ عنها مَن ارتدّ، وقُتل مَن قُتل، وهَرب مِن ديار مَنشإها مَن هرب. وقد عبّرت «رسائل الحكمة» عمّا أصابهم من محنٍ وقهرٍ واضطهادٍ خيرَ تعبير.

---

(١) ميثاق وليّ الزمان، رقم ٥، ص ٤٧ من رسائل الحكمة.

وعالج الدروز هذا القهرَ بالتقيَّةِ والمسايرةِ والكتمان حيناً[٢]، وبالتصبّر والتجلّد والاحتمال حيناً آخر. فهم يسايرون المسلمين في التزام عقيدتهم وتقاليدهم و«المألوف» عندهم، خوفاً منهم؛ كما يمارسون الصبر والاحتمال فضيلتهم العظمى، تحيُّناً لفرصةٍ مؤاتيةٍ ينقضُّون فيها عليهم. وفي كلا الحالَين، فهم معرَّضون، أي المسلمون والدروز، باستمرار، إلى حروب إبادة واستئصال.

٢ – شلألات الدماء

إنّ الصورة التي تعطيها «الحكمة» عمّا تعرّض له الدروز على أيدي المسلمين قاتمة جدًا. والحرب التي شنَّها المسلمون، سنّةٌ وشيعة، كانت عليهم، منذ البدء، حربَ إبادة واستئصال. هؤلاء جميعهم، كما عبّر عن ذلك بهاءُ الدِّين «أحْوَجونا إلى التغرُّب، بعد الهجرة، من الحضرة الطاهرة، ومَنَعونا التبرّكَ بترابِ حرَمِ الميمونةِ القاهرة»[٣]. و«المسلمون الجاحدون (أي السنّة)، والمؤمنون المشركون (أي الشيعة)، كما يقول حمزة، يقاتلونك في بيتك. وهم أذيّةٌ لأهلِ التوحيد»[٤]. ثمّ «إنّ أهلَ الشرائع (أي أصحابَ الأديان جميعهم، وبنوعٍ خاصّ، المسلمين)، يَرَون محبّةَ الأعداء كافّةً، ولا يَرَون محبّةَ رجلٍ موحِّد»[٥].

---

(٢) أنظر كتاب «بين العقل والنبي»، ص ٢٧٩–٢٩٨.

(٣) رسالة ٧٦/ ٦٨٨.

(٤) رسالة ٦/ ٦١.

(٥) رسالة ١٣/ ١٣٧.

وإذا أردنا أن نقف على أسباب الشتائم واللعنات التي يقذفها الدروز في وجه محمّد والمسلمين، فلنسمع الشيخ بهاء الدين المقتنى يصف لنا ما حلّ بجماعته من عذاباتٍ وآلامٍ ودموع. فها هو يتوجّه إلى المسلمين الذين سفكوا دماء الموحِّدين، ويقول:

«يا أيُّها الغَفَلة.. شَربتم بالظلم دماءَ الموحِّدين المظلومين نَهلاً، وسفكتمُ الدمَ الحرامَ برضائكم لمن أطلَّه عصياناً للحقِّ وزَللاً.. فمِن حيثُ أمِنَ أهلُ الحقِّ على نفوسهم أتَيتموهم، وبأسلحتِهم قتَّلتموهم، ومِن بيوتِهم ومقاطنهم أزعجتُموهم، وعلى صبرهم على البلايا والمحن وَبَّختموهم.. وساعدتم جميعَ مَن قام على أهل الحقِّ في ظلمه..

«إنّ آلَ السفه والفسق والجهل والجحود، الذين رفعوا بالبَلَس رؤوسَ الأشهاد على رؤوسِ الرماح، وسَقَوهم بالجور والظلم كأسَ الذباح، مَع مَن أغرقوا في البحار، وأحرقوهم بلهيبِ النار، وذرُّوهم في الرياح، وقتلوا الجمَّ الغفير بسيوفِ الأضداد، بعدَ سبيِ النساء والأولاد، وقطْع قلوبِهم والأكباد، وتعليقِ رؤوسِ الرجالِ الموحِّدين في أعناقِ أخواتهم وبناتهم، وذبْحِ الأطفالِ الرضَّع في حجور أمّهاتهم.

«فلم يَرعوا لأحدٍ في اللّه إلاً ولا ذمَّةً، فيرحموا صغيراً لصبوته وصِغَرِه، ولم يعفوا عن كبيرٍ لشيخوخته وهرمِه وكِبَرِه، بل أجرَوهم على حدِّ السيوفِ قتلاً وصلباً، وفي الشوارع شقًّا لبطونهم، وجرًّا بأرجلهم وسحباً، ولأموالهم وذراريهم سبياً ونهباً..

«بل ذبحتموهم كما تُذبح الجزر والغنم عداوة للّه، ووفاء للفراعنة بالذمم.. فواأسفاهُ على أهلِ الحقِّ وعلى التخلّفِ من بعدهم. ووالهفاهُ حسرةً واستوجاعاً لفقدهم..»[٦].

ثُم يصف بهاء الدِّين ما حلَّ بالموحِّدين في كلِّ مكان، ويشير إلى شموليّة الاضطهاد واتِّساع رقعته، من الإسكندريّة حتّى أنطاكيّة. ومع هذا، بقي الدروز صابرين صامدين متحمِّلين: لقد «هدر (الدجَّالُ علي الظاهر) دماءهم في جميع البلدان، وتبعهم هو وتبَّاعُه في كلِّ موضعٍ ومكان»[٧]. لقد «قاتلونا بأسلحتنا من حيث أمِنَّا على النفوس»[٨]، و«أظهروا العداوةَ والبغضةَ لأهلِ التوحيد فعْلَ الحسّاد وذوي الدناءة والإنكار»[٩].

ويقدّم بهاء الدِّين نفسَه مثالاً للموحِّدين المظلومين، فهو أيضاً تعرّض لـ «الأذى والضرر من الغافلين المعتدين»؛ وتهجّر من القاهرة[١٠]؛ ووصف لنا حاله التعيسة، بعد اشتداد المحنة عليه بقوله : «والجرعة ممّا تقذفُه القلوب، والدمعة النزرة ممّا تذرفُه العيون من الماء المسكوب، تَزيد عليه ولو كانت أنهارا، وتغمره ولو كان التكريرُ بحارا»[١١].

---

(٦) رسالة ٧٤/ ٦٦٥ بكاملها.
(٧) رسالة ٤٣/ ٣٣٧.
(٨) رسالة ٥٧/ ٤٥١.
(٩) رسالة ٦٧/ ٥٣٤.
(١٠) رسالة ٧٦/ ٦٨٨.
(١١) رسالة ٩١/ ٧٧٢.

٢ - نهاية الدّعوة في مصر

وفي آخر المطاف يُشير بهاء الدِّين إلى نهاية الدعوة في مصر: «إنَّ التجارة بمصر قد كسدت»[١٢]. وذلك لـ «شَعْثِ الحال ومرارة العيش النكد، لقلّة المؤازِر والسديق، وعدم الجار الصالح والرفيق، وقد تعذّرتْ علينا الطرقُ والمسالك، ونحن، من أهلنا، على شفا جرفِ المصائب والمهالك»[١٣]، حتّى «ضاق الزمان عن المكاتبة والجواب، وانقطع لحدَّته القولُ والخطاب»[١٤].

وبانتقال الدروز إلى بلاد الشام، انتقل القهر معهم، فبلغهم الاضطهاد أكثر ما بلغهم في منطقة حلب (جبل السمّاق وأنطاكية والجزيرة وبالس والرقَّتَين ومنبج وقنِّسرِين والنقرة وعزاز). وكان حاكمُ حلب آنذاك، صالحٌ بنُ مرداس من قبيلة كلب (ت ١٠٢٩ م.)، أشدَّ عنفاً وقساوةً من أيِّ حاكم آخر، بعد علي الظاهر. لذلك لا ينفكُّ الدروز يلعنونه حتّى اليوم.

وتوالت الاضطهادات في مناطق أخرى من بلاد الشام، في غزّة وعسقلان وأشدود والرملة.. وابتدأ الدروز يهربون منها، ويلتجأون إلى مناطقَ وعرة كحوران ووادي التَّيم وشمالي فلسطين.. وتقوقعوا في الوديان والكهوف إلى أن تسلَّم التنوخيّون زمام الحكم، فعملوا في حماية بيروت وضواحيها من

(١٢) رسالة ٧٤/ ٦٦٩.
(١٣) رسالة ١٠٩/ ٨٣٣.
(١٤) رسالة ٩١/ ٧٧٤.

الحملات الصليبية. ومنذ ذلك الحين ابتدأ الدروز يَخرجون مِن تقوقعهم، وينخرطون في المناطق المسيحيّة، ويعيشون نوعاً جديداً من الحياة. بذلك اتّسعتْ رقعةُ مساكنهم، وانفتحوا على العالَم المتمدِّن والحضارة والرقيِّ نوعاً. إلاّ أنّ عيشَهم مع المسلمين، سنّة وشيعة، ظلّتْ محذورةً عليهم حتّى اليوم.

والحقُّ الحقَّ يقال: والمؤرِّخ المتبصِّرُ يُدرك تمامَ الإدراك، أنّه لولا الحماية المسيحيّين للدروز، في بدء نشأتهم، لَلَقِي الدروزُ المصيرَ نفسَه الذي لَقُوه في مصرَ ومناطق دمشق وحلب وجنوبي فلسطين. لكأنّ المسيحيّين كانوا للدروز، عبر تاريخِهم، حماةً من كلّ إبادة، بل كانوا يُعرِّضون أنفسهم للخطر من أجل حمايتهم. فهم درعُ الدروز الواقي. ويُصيبُهم، في كلِّ مرَّةٍ، أجرَ المصلح.

الدرس الخامس

الصبر والإحتمال

أ - الصبر والاحتمال

«ألصبر والاحتمال» هما، عند الدروز، دواءُ المحنة الموقّت. منذ البدء قال حمزة: إنّ «المستجيب.. كلّما زاده الزمان امتحاناً زاد في نفسه يَقيناً وإيماناً، كالفضّة الصافية البيضاء التي، كلّما زادت عليها النارُ في حماها، زادت في جوهرها وصفاها. كذلك الموحِّد. كلّما أراد به مولانا جلَّ ذكرُه امتحانا، فهو راض به صابر لحكمه»[١].

و«الصابرون»، في حكمة حمزة، هو الاسم الآخر للموحِّدين الدروز. هكذا يفسِّر الآيةَ القرآنيّة: «وبَشِّرِ الصَّابِرين، يَعني الموحِّدين»[٢]. في رأيه أنّ «الديانة لا تصحُّ إلاّ عند الامتحان»، كما أنّ الدرجات العالية لا تُنال «إلاّ بالصبر في وقتِ

---

(١) رسالة ١٦/ ١٨٠.

(٢)القرآن ٢/ ١٥٦ = رسالة ١٦/ ١٨٠.

الشـدّة.. فـمَن صـبـر على المكـاره نال المسـرّات»[٣]. وينصح جماعـتَه، في رسالته الأخيـرة، بقوله: «فَاصْبروا على الامـتحان تَنالوا المغفرةَ والإحسان»[٤].

أمّـا بهـاء الدِّين فيـصف الدروز بأنّهـم أولئك الذين «على المحن والبلوى صابرون»[٥] . ويعـدهم بأنّ «العاقـبة بالحـسنى للصابرين»[٦]. ويطلب من الشـيخ نصـر بن فتـوح بأن «ثبِّتِ الجمـاعة.. ويـكونوا على الصبـر والاحتـمال.. ويكون أعظم مـا عندهم الصبر والسكوت»[٧]. والقاعدة عنده: «مَن صبرَ على بَرْدِ القَرِّ نالَ خضـرَةَ الربيع»[٨].

وفي جـميع مـا كتب بهـاء الدِّين كـانت نصائحـه للدورز باسـتمـرار بأنْ «يلزموا الصـبر والاحـتمـال»[٩]، لأنّ «للصـبر والاحتمال عند اللّـه ثواباً كبيراً»[١٠]. وفي عقيدته «إنّ العاقبةَ لمن صبر، والنِّعَمَ المـترادفة لمن شكر»[١١]. وفي صلاته إلى اللّه قوله: «أللّهمَّ! أَلْهِمِ الصبرَ لأهلِ الحقّ»[١٢].

---

(٣) رسالة ٣٥/ ٢٥٣.
(٤) رسالة ٣٣/ ٢٤٤.
(٥) رسالة ٥١/ ٣٧٥.
(٦) رسالة ٥٢/ ٣٧٩.
(٧) رسالة ١٠٧/ ٨٢٨
(٨) رسالة ١٠٥/ ٨١٦
(٩) رسالة ١٠٧/ ٨٢٧. أنظر أيضاً : ٧٤/ ٦٦٧، ٩٠/ ٧٧٠ و٧٧١...
(١٠) رسالة ١٠٧/ ٨٢٨.
(١١) رسالة ٤١/ ٣١٩.
(١٢) رسالة ٧٤/ ٦٦٩

وفي تكريم الدروز للنبيّ أيّوب»[١٣] و للأمير السيّد جمال الدين التنّوخي[١٤]، إجلالٌ عظيم لما يرمزان إليه من الصبر والاحتمال.

٢ - الشيخ الصبور

فضيلة الصبر والاحتمال هذه ردّدها الشيخ محمّد أبو شقرا مراراً وتكراراً. وذكّر الدروزَ بها عند كلِّ مناسبة. فها هو، في كتابٍ مفتوحٍ إلى البابا، يرفع الشيخُ الصبور شكواه، ويقول: «ما حصل من تجاوزاتٍ ومذابحَ قوبلَ من الدروز بالصبر والاحتمال»[١٥]. وكان، قبل ذلك، صرَّح للتلفزيون الأسوجي بقوله: «الدروز صبروا طويلاً في بادئ الأمر، واحتملوا كثيراً. وكنّا نوصي بالصبر، ولكن عندما زاد على الحدِّ، وما عاد ممكناً الصبرُ والاحتمال، بدأت مقاومةٌ عسكريَّةٌ وحربيّة»[١٦].

وفي حديث مُسْهَبٍ طويلٍ مع مجلّة الشراع حنى الشيخ الصبور رأسَه متواضعاً، وأظهر مسكنته، وأعلن عن تجلّده وتصبّره، وقال: «لو كان هنا في الجبلِ غيرُ الدروز لقامتْ قيامتهم. فليس عندنا ماء ولا كهرباء. وخطوط الهاتف معطّلة،

---

(١٣) أيّوب التوراة هو نفسه ممثول حمزة قائم الزمان. به يُضرب المثل في الصبر والاحتمال. وله عند الدروز مقام شهير في نيحا الشوف

(١٤) الأمير السيّد، الذي فقد أبناءه جميعَهم في حياته، يكرّمه الدروز جدًّا على تصبّره وتحمّله الفواجع. وله مقام في عبيه يحجّ إليه بنو معروف للتبرّك.

(١٥) جريدة العمل ٢٣/١٢/١٩٨٣

(١٦) ألنهار ١٥/٧/١٩٨٣.

والطرقات صعبة. نحن صابرون.. أليوم، إذا قُتل قتيل هنا فإنّنا ندفنه ونترحّم عليه. وإذا جُرح جريح فإنّنا نضمّده. نحن لا نفعلُ كغيرنا.. نحن صابرون»[١٧].

وبعيد حرب الجبل، وانتصار الدروز على المسيحيّين من على دبّاباتٍ سوريّة، وبعناصرَ فلسطينيّة، وبمساعدةٍ إسرائيليّة، قام الشيخُ المنتصرُ ليلقِّنَ القوّاتِ اللبنانيّة والمسيحيّين دروساً بالصبر، فيقول مذهولاً: «وَلَوووو!!! صار لنا ثلاث سنوات صابرين ولم نقل آخ. فما بالكم، بعد هزيمتكم، ملأتم الدنيا صراخا وضجيجا!!!».

وقبيل حرب الإقليم بإسبوع واحد، في ٢٨/ ٤/ ١٩٨٥، يعود الشيخ ليذكّرنا بما حدث في الجبل ويقول: «ألقضيّة في الجبل ليست قضيّةً صغيرة، أو يمكن الصبرُ عليها والاحتمال مثلما كنّا نصبر ونحتمل.. لكن زاد العيار ولم يعد الأمرُ محتَملاً..»[١٨].

٣ - الصبر في انتظار الفرج

وهكذا، فلا بدّ، إذاً، من الصبر والاحتمال عند كلِّ محنة، وعند كلِّ إعداد لمعركة. ولكنّ هذا الصبر ليس إلاّ مرحليًّا. في ممارسة الصبر يكون الدرزي مترقِّباً، مترصِّداً، متحيِّناً ظروف الانقضاض على فريسته. وهو يستعمل في صبره جميع

(١٧) مجلّة الشراع، ص ١٨.

(١٨) ألأنوار، ٦/ ٥/ ١٩٨٥.

الوسائل المـمكنة، من استعـدادٍ ومسـايرة وغدر وخديـعة ومكر وتنظيم وتدريب. وهو يعرف، وقد دفعه تاريخ الذلّ والقهر دفعاً إلى أن يعرف، مع مَن يتـحالف؟ وكـيف يتحالف؟ ولماذا يصـبر؟ وما يكون بعد الصـبر؟ وذلك ليشفي غليلاً متـأصّلاً في صدره، وينهي بالتالي مرحلة «الصبر والاحتمال».

هكذا كـان عبر التـاريخ. ولا بدّ للمـحنة من أن تنقلب على أعدائهم. وقد بشّـرهم حمزة، منذ البدء، فحـذّرهم بقوله: «كُونوا أيُّها الإخـوان، على أهبَّةٍ من أمركم. ولا تظنّوا الذي أنتم فـيه شرًا لكم. بل هو خـيرٌ لكم. فـما تمرُّ بكم إلاّ أزمـانٌ قلائل حـتَّى تَرَون مخالفينَكم قد أُرملتْ منهم الحلائل، وأوقِعوا في الغوائل والمهالك، وسلبوا الأمـوال والممالك.. فـسوف أجـعل أكابرَهم لأصـاغرِكم أعبُد، وعزيزَهم لأحدكم يُطيع ويَسجد. وأقتلُ المشركين والمرتدِّين بسيفِ مولانا الحاكم إله العالمين»[١٩].

ثمّ يوعـدهم بتـحطيم أعـدائهم، و«ملْكِ ذراريهم وأمـوالهم وأرضـهم، وخرابِ ديارهم، وسـبيِ حريمهم، وأولادِهم، وإخلاط دم رجـالِهم بدم كـلابهم،. ويُوسـمون بسـمـةِ العبـيـد. وتملكُ ضعفاؤكم منهـم كلَّ جبّارٍ عنيد.. فاصبروا على الامـتحان تنالوا المغفرةَ والإحسـان»[٢٠].

---

(١٩) رسالة ٣٤/ ٢٤٨-٢٤٩.

(٢٠) رسالة ٣٣/ ٢٤٤.



القسم الثاني

السُّلوكُ الدرزيّ عبرَ التاريخ

يتناول هذا القسم من البحث شهادات تاريخيّة حقّقها مؤرّخون وشهود عيان، فألّفوا فيها كتباً، ومقالات. وبرهنوا ببراهين قاطعة على مطابقة السلوك الدرزي للعقيدة، من دون أن يعرفوا تماماً هذه العقيدة. وها نحن، بعملنا هذا، نقوم بهذه المهمّة، مهمّة إظهار العقيدة في السلوك. واعتمادُنا على معطيات التاريخ ووثائقه، وبخاصّة أحداث ١٨٦٠ وما كتب عنها، هو خير دليل على أمانة الدروز المسلكيّة لمعتقداتهم الدينيّة.

الدرس السادس

قطيع واحدٍ لزعيم واحد

جاءت«الحكمة» الدرزيّة بهذه الوصيّة: «ولتكنْ كلمتُكم واحدة، وشملُكم مجتَمعًا، وقولُكم مؤتَلفاً. فالاختلاف يورِّث الفشل»[1]، والانقسامات تعقبها خسارة. وجاء أيضاً: «فلتكن، أيُّها الإخوان، الكلمةُ واحدةً، والإلفة مجتمعَةً»[2]. فبالكلمة الواحدة والإلفة المجتمعة يكون النصر والغلبة.

وبالرغم من هذه الوصيّة، انقسم الدروز في تاريخهم، إلى حزبَين سياسيَّين: الحزب اليمني والحزب القَيسي. هذا الانقسام العربيُّ الأصلِ والنشأة لاحقَ الدروز حتى معركة عين داره الحاسمة سنة ١٧١٠، حيث انتصر الحزب القيسي انتصاراً ساحقاً بفضل الشهابيّين. وعلى أثره نشأ حزبان جديدان، هما: الحزب اليزبكي والحزب الجنبلاطي، اللّذان لا يزالان قائمين حتّى اليوم.

---

(١) رسالة ٩٠/ ٧٧١.

(٢) رسالة ٩١/ ٧٧٣.

إلاّ أنّ هذا الخلاف السياسي لم يؤدِّ إلى اختلافٍ في العقيدة. فالدرزيّة، عند الحزبَين المتنازعَين، بقيت واحدة: كتابُها واحد، والتفاسيرُ عليه مشترَكة، والسرّيّة هي إيّاها، والنظرة إلى اللَّه والإنسان والقِيم الدينيّة والسلوك الاجتماعي واحدة، والانصياع الأعمى للرؤساء الدِّينيين والزمنيِّين، رغم التنازع العابر فيما بينهم على السلطة، لم يَشبْهُ شائبة. ولئن خرج بعض المتطرِّفين عن الصفّ فإنّ القطيع يبقى واحداً وموحَّداً.

هذه الطاعة الواجبة عبّر عنها مؤرِّخون للدروز خير تعبير. وقد تظهر في أيّام الشدّة أكثر منه في أيّام الرخاء. وقد لاحظ ذلك تشارل تشرشل، في تعليقه على اجتماع زعماء الدروز في المختارة برئاسة سعيد جنبلاط، آخر كانون الثاني سنة ١٨٤٥، فقال: «ألدروز، وإن كانوا في الأوقات العاديّة قسمَين، أو حزبَين، متأثِّرَين بروحِ الحسدِ الطبيعيّة، فإنّهم، أوقاتَ الاضطراب الأهلي، تجتمع كلمتُهم على زعامةِ العائلة الجنبلاطيّة في عقد المؤتمرات أو في العمل»[٣].

ولاحظ «شاهد عِيانٍ»، فقال: «إنّ الصلات بين سائر المقاطعات الدرزيّة لم تنقطع. فهي، في أيّام الحرب، أشدُّ ما تكون. وأنّ العلاقات بين دروز هذه الأقاليم كانت متماسكة إلى حدّ أنّ كلَّ حربٍ يَجمعهم مباشرة تحت راية واحدة. حتى دروز حوران ولبنان الداخلي يتجاوبون متسارِعين إلى كلِّ دعوة»[٤].

---

(٣) تشرشل، ألدروز والموارنة تحت الحكم التركي، ترجمة شعّار فندى

(٤) Témoin Occulaire, Souvenirs de Syrie, P. 57...

ومن مميّزات الـدروز، كما يقـول صاحب كـتاب «مـذبحة الجبل»، أنّهم «لا يقدمون على الحـرب إلاّ إذا اجتمعت كلُّ قوّاتهم، من وادي التيم وحوران»[٥]. وتشـهد على روح التضامن عندهم، وثيقـةٌ من سنة ١٨٦٠، تقـول: «ألتناصـر لبعـضـهم قـضيّـةٌ دينيّة»[٦]. وتزيد: «أمّـا الدروز فبكلٍّ مـوقعـةٍ كان يوجـد من كلٍّ المقاطعات ومن كلِّ القرى»[٧]. وتضيف أيضـاً: «والدروز نجدتهم من الجميع»[٨].

والشـيء نفـسه لاحظـه مبـعوث البـاب العـالي إلى اللّجنة السداسيّة إثر حوادث سنة ١٨٦٠، إذ قال: «يتعذّر إيجاد شهادةِ درزيٍّ على درزيّ، نظراً لكونهم موثّقين عرى ارتباطِهم ببعضهم أسوةً بجمعيّةٍ سرِّيّة»[٩].

وهم، في كلِّ أعمالهم، كـما قال العقيقي، متّـحدون. يساعد بعضـهـم بعضـاً. يتنادَون من كلِّ مكان، لتكون ضربـتُهم واحدة، وموقـفُهم واحدًا. قال: «وأمّـا الدروز فكانوا دايماً بالاجتمـاعات والمخابرات مع بعـضـهم البعض في كلِّ المحلاّت. وخـاطبوا دروز حوران وحـاصبيّا وبلاد الشـام، وعملوا روابط فيمـا بينهم سرًا بأن تكون الـضـربة واحـدة. والدولة الـعليّـة كـانت تـشـدّدهم

---

(٥) مذبحة الجبل المعروف بـ «حسر اللثام عن نكبات الشام»، ص ١١٨.

(٦) وثيقة من مكتبة خاصة، ورقة ١٨ب.

(٧) المرجع نفسه، ورقة ١٩ب.

(٨) المرجع نفسه، ورقة ٢١أ.

(٩) المحررات السياسية، الجلسة العاشرة، ٣/ ٤٤.

وتعطيهم القوّة سرًا حتّى يفنوا النصاره، مع معرفة دولة الإنكليز»[١٠].

هذا التضامن جعلهم يثقون بزعمائهم ثقةً عمياء، حتّى ولو عرفوا فيهم عدم الجدارة. فهم، بحسب «مذبحة الجبل»، «أشهر الناس في اتّباع رأي أكابرهم»[١١]. وعلى الرغم من تفكّك بنْيتهم الاجتماعيّة، كان لهم من «الرشاد ما دفعهم إلى المحافظة على بنْيتهم القديمة سليمة فظلّ توجيههم بيد أمرائهم»[١٢].

ويلاحظ كتاب «مذبحة الجبل» روح الإلفة بين الدروز، فيقول: «وهذه عادتهم في الملمّات. ينضمّون إلى أمرة مشايخهم، ويتّحدون على أعدائهم. وما نجحوا إلاّ بهذا الاتّحاد، وهذا الانقياد الغريب لرؤساء طائفتهم»[١٣]. ويخوض الدروز المعارك بعد أن تكون «دارت المخابرات بين مشايخهم في كلِّ أطراف البلاد، وامتلأتِ المسالكُ برسلهم الذاهبين والآيبين»[١٤].

وجميع الدروز، من أين أتوا، «كانوا يؤدّون لهم طاعةً عميا»[١٥]. وبهذا السبب رأى «بُوجُولا» مؤرِّخ البعثة الفرنسيّة، لأحداث سنة ١٨٦٠م، أنّ العلّة في رؤوس هؤلاء الرؤساء.

---

(١٠) العقيقي، ثورة وفتنة في كسروان، ص ١٠٦ – ١٠٧.
(١١) مذبحة الجبل، ص ١٢٥.
(١٢) فرنسوا لونورمان، الأحداث الطائفية، ص ١٤٣ من ترجمته العربيّة.
(١٣) مذبحة الجبل، ص ٧٨.
(١٤) المرجع نفسه، ص ٨٢.
(١٥) المرجع نفسه، ص ٧٩.

يقـول: «مـرّةً أخـرى، ليس للـشـعب الدرزي إيمان أو إرادة. إنّه يطيع رؤسـاءه طاعـةً عـميـاء، وهؤلاء يدفـعـونه إلى الجـريمة دفعاً»[١٦]. وفي مكان آخر يلاحظ أنّ الشـرَّ كلَّه يكمن في رؤوس العقّال. يقول: «يكمن الشرُّ كلُّه في رؤساء هذه الأمّة. ويسمّونهم "عقّالا".. إنّ الشـعب يتألّف من فلاّحين يغمـرهم جهلٌ قذر ومن مخادعين قديرين على كلِّ شرّ، يـنجرُّون وراء الزعماء كقطيعٍ من الحيـوانات»[١٧]. لهـذا يظهـر «الدروز كأكـثـر الناس طاعـةً في العـالم.. لا يعملون إلاّ مـا يطلب منهم عمـله. وحوشٌ مـفتـرسةٌ بالأمس، لكنَّهم اليوم (مع دخول الفرنسيّين) نعاج ناعمة»[١٨].

هذا الانصياع التامّ لاحظه أيضـاً سفراءُ الدول وقناصلُها. جاء في رسالة اللورد دُوفْرين إلى السِّيرْ بُوْلِفِر سفيرِ إنكلترّا في اسـتنبـول في ٢٦/١١/١٨٦٠ قـوله عن الدروز: «الاخـتـبـار الماضي يثبت أنّ الدروز لم يفـعلوا شيئًا إلاّ بإيعـاز زعمائهم»[١٩]. وأكّد ذلك مندوب النمسـا دِي وِكْبِكر «أنّ تنظيم الدروز وتكاتفَهم وتمكُّنَ الزعمـاء من جمْع أتبـاعهم واستنفـارِهم بسهولة مـهّدتْ لهذه الطائفـة، هي أقلّ عددًا، أن تنتصر على الأخـرى وتنال فوزًا لُطِّخَ بفظائعَ منكرة، فكان لصداها وقعٌ أليم في قلبِ أوربّا»[٢٠].

(١٦)... M. Poujoulat, La Vérite sur la Syrie, p. 491

(١٧) ألمرجع نفسه، ص ٤٩١.

(١٨) ألمرجع نفسه، ص ٤١٢.

(١٩) ألمحرّرات السياسية ٢/٤١٦.

(٢٠) ألمرجع نفسه ٣/٣٥٩.

وفي التحقيق عن جرائم الزعيم سعيد جنبلاط أكّد مندوب فرنسا في الجلسة الرابعة والعشرين، في ٢ /٣/ ١٨٦١ بـ «أنّ تنظيم الدروز وانقيادَ الشعب إلى زعمائه وعدمَ إقدامهم على عمل دون رضاهم تكفي لإثبات اشتراكه (سعيد جنبلاط) في الاضطرابات سرًّا»[٢١]. والتنظيم نفسه لاحظه صاحب «كتاب الأحزان»، فقال: «إنّ طائفة الدروز متّفقة جميعها بصوت واحد»[٢٢]، بخلاف النصارى المختلفين أبداً. وفي الوثيقة الدرزيّة الوحيدة عن أحداث سنة ١٨٦٠ خير تعبير عن انصياعهم الأعمى. تقول: «أصبحتِ الطائفة الدرزيّة برمّتها في قبضة الشيخ بشير (جنبلاط والد سعيد)، تقوم إذا قام وتقعد إذا قعد»[٢٣].

***

واليوم، كما بالأمس، يشهد التاريخ على انصياعهم لزعيمهم الأوحد وليد جنبلاط. فهم، كما يقول عنهم صاحب كتاب «ألجبل حقيقة لا ترحم»: يتّصفون بـ «روح التضامن والانضباط والانصياع للزعماء». وذلك بمقابل نزعة المسيحيّين إلى الفرديّة والاستقلالية والأنانيّة والانقسامات والخلافات الشخصيّة والحزبيّة[٢٤]. ويؤكّد بأنّهم «يعملون بأمر رئيسٍ

---

(٢١) ألمرجع نفسه ٣/ ٣٩٣.

(٢٢) كتاب الأحزان (مخطوط جبيل)، ص ١٨.

(٢٣) يوسف أبو شقرا، الحركات في لبنان، ٤.

(٢٤) بول عنداري، ألجبل حقيقة لا ترحم، ص ١٥.

واحد.. وأكابرهم أشجع وأعقل من قوّاد النصارى.. ولهم كلمة نافذة في مَن هم دونهم من أهل طائفتهم»[٢٥].

وإذا ما وُجد بينهم رجلٌ نفحتْه رياحُ الحريّة وراح يعمل برأي نفسه، يُقضى عليه. فالشيخ حليم تقي الدين، قاضي المذهب الدرزي الممتاز اغتيل في بيته، لِمَا عُرفَ عنه من اعتدال. والحزب الأرسلاني، برمّته، وعلى الرغم من كثرته بالنسبة إلى الجنبلاطي، أُخرِسَ تمامًا، واستُبدِلتْ قيادتُه بسحرِ ساحر، من الأخ الأكبر فيصل مجيد إرسلان إلى أخيه طلال، إبن الستِّ خولة ذاتِ الأصل الجنبلاطيّ.. وبذلك توحّدت الكلمة الدرزيّة حول زعيم واحد، دون التفات إلى مواهبه أو صفاته.

فعلى أخصام الدروز السياسيّين أن يتفهّموا، في عملهم السياسي، هذه الحقيقة الراهنة، فلا يلعبوا لعبة الخلافات الدرزيّة الظاهرة أملاً في تحقيق نجاح. فهذا هو الوهْم بعينه. وأحداث التاريخ خير شاهد. فالدروز يتّحدون، يتنظّمون، ينصاعون، يطيعون. لا يَسألون ولا يتساءلون... لا يرفضون ولا يشكّكون. إنّهم، في عمق كلّ واحدٍ منهم، يقاتلون في سبيل البقاء، أي في «أن يكونوا أو لا يكونوا». فهم لا يدخلون معركةً خاسرة. ولا ينجرّون إلى حربٍ طلباً لامتيازات، أو دفاعاً عن نظامٍ سياسيٍّ محدَّد. إنّهم لا يحيدون عن «التقيّة»، ومن معينها ينهلون.

---

(٢٥) المرجع نفسه، ص ١٤٠.

هذه «التقـيّة» هي التي تشـدُّهم بعضـهم إلـى بعض. تجمع المشايـخَ إليها ، وتـلهمهم فـي إدارة معركـة المصيـر. والكلُّ لهم مـصغٍ مطيع. وكلُّ حـادثةٍ، صغـرتْ أم كـبرتْ، تجـد حلَّهـا عند مشـايخِ خلواتِ البيَّاضــة. وهم اليوم، في اجتـماع مفـتوح دائم. يأتون من إسرائيل ولبنان وسـوريا وبعض بلاد الاغتراب. ولهم الكلمة الأولى والأخيرة، أي كلمة الفصل.

وما على الزعـماء السياسـيّين إلاّ تنفيذ مـا يقرَّر في هاتيك الخلوات السرِّيَّة. وأهمّ حـيلة يعمد إليهـا هؤلاء المشايخ تكون في تسييـر قطعانهم باتّجاهِ أيّةِ دولةٍ قويّةٍ تساعدهـم، شرط الحفاظ على وجودهـم أيًا كان الأسلوب، وأيًا كـان الثمن.. وحدة الكـلمة والتفاف الشـمل والخضوع الأعمى، كلُّ ذلك في أساس العـقيدة الدرزيّة، ولا سيّما عند بروز خطر مداهم.

الدرس السابع

أيةُ أمةٍ تغلبتْ عليكُم إتبعوها

في كـانـون الأوّل من سنة ١٨٦٠ قـدّم وجـهـاء الدروز عريضةً إلى فـؤاد باشا، مبعوث الباب الـعالي إلى لبنان، يقولون له فيـها مـا يلي: «.. نحن في كلِّ آن خـاضعون لأوامـر دولتكم، ليس فقط بدفعِ الأموال، بل بسفكِ دمائنا.. نحن عباد اللّه، نَنْطَرحُ على أقـدامكم، ملتمـسين أن ترأفوا بنا. نحن مـستـعِدُّون لهَـجرِ بلادنا، وتقـديمِ كلِّ مـا نملكُه لدولـتكم، ثمّ نذهب، وليس عـلينا سوى قميصِنا إلى حيث يريدُ الباب العالي»[1].

عن هذا الخـضوع والانصيـاع لأرادة الأجنبي القـويّ قال مـؤلّفا كـتـاب «تاريخ الموحِّدين الدروز السيـاسـي في المشـرق العـربي» الدرزيّان مـا يلي: «لقـد كـانوا (أي الدروز).. يميلون، بشكلٍ دائم، إلى جانبِ الفـئة التي يَرون أنَّها سـترجح كفّتُـها في الصراع»[2].

---

(١) ألمحرّرات السياسيّة، ٣/١٤٢.

(٢) تاريخ الموحدين الدروز..، ص ٣١.

لَهْيَ ميزةٌ بارزةٌ تطبع الشخصيّةَ الدرزيّة، وتُلهمها في سلوكها الديني والسياسي. والدروز أنفسهم يقرّون بذلك. وتاريخهم يشهد. فمنذ نشأتهم، كانوا يميلون إلى الأقوى، حتّى ولو كان عدوًّا لدوداً لهم. فالفاطميّون مثلاً، الذين ظهر الدروز في عهدهم، مارسوا عليهم الاضطهادَ والقهر، ولاحقوهم حتى استئصالهم وإبادتهم، ولم يبقَ لهم، في بلد مَنشإهم أيُّ ذكرٍ أو خبر.. ومع هذا، تظاهروا بالولاء لهم حفاظاً على أرواحهم.

وأيّة غرابة في ذلك ما داموا أمناء «لحكمة» صارخة في كتبهم تقول: «أَيَّةُ أُمَّةٍ تَغَلَّبَتْ عَلَيكُمْ إتْبَعُوهَا وَاحْفَظُونِي فِي قُلُوبِكُمْ»[٣]. وقد لاحظ مؤرِّخون عديدون تأثيرَ هذه الحكمة على السلوك والأخلاق الدرزيّة. فقال عنهم المسيو «مُوْرْ»، قنصل إنكلترّا في بيروت، في ٢٨/ ٢/ ١٨٥٨: «عقيدةُ الدروز تُبيح ممارسةَ شعائرَ غيرِ مذهبِهم متى كانتِ السياسةُ تقتضي ذلك»[٤]. وكذلك قال «بْرَانْت»، قنصل إنكلتّرا في دمشق، في ٣/ ٨/ ١٨٥٨: «سياستُهم ستكون انضماماً إلى الظاهر بحيث يكتسبون حليفاً قويًا»[٥].

وفي كتاب «لُونُورْمُونْ» شهادة مهمّة عن ذلك التمظّهر. يقول: «يعتنق الدروز خارجيًا الدِّينَ السائد في البلاد التي

---

(٣) تعليم الدين الدرزي، سلسلة «الاديان السريّة»، رقم ٢، ص ١٤٤.

(٤) المحرّرات السياسية، ١/ ٢٩٣.

(٥) المرجع نفسه، ١/ ٣٢٩.

يقطنونها. وهكذا، ففي عهد الأمير بشير، حيثُ العنصر المسيحي كان الغالب في الجبل، رأيناهم يَفِدون زرافاتٍ إلى المرسَلين الكاثوليك، ويقتَبلون سرَّ العماد. أمَّا اليوم فهم يتردّدون بانتظام على الجوامع لكون السيادة هي للمسلمين. وفي بعض الأنحاء اللبنانيّة عمدتْ قرى درزيّة بكاملها إلى اعتناقِ المذهب البروتستانتي بعد أربع وعشرين ساعة فقط من وصول المرسَل البروتستانتي إليها، وحتّى قبل أن يبدأ هذا المرسَل تبشيرَه، وذلك لاكتساب دعم إنكلترّا لهم»(٦).

وفي جولة الجنرال الفرنسي «دُوبُوفُور»، عبر القرى والبلدات الدرزيّة، كان السكّان يتسارعون لتقبيلِ أيدي الجنود الفرنسيّين، ويؤدّون لهم الطاعة والاحترام الفائقَين. فـ «في الباروك، مثلاً، جاء الدروز يلتمسون من الجنرال أن ينجّيهم من السيطرة العثمانيّة، ويقدّمون له الخضوع حتى الإذلال، ويطلبون منه أن يَجمعهم مع المسيحيّين (الباقين الناجين من المذبحة) تحت حكومة مستقلّةٍ واحدةٍ، كما كانوا قبلاً»(٧).

«وفي عمّاطور.. تراكض الدروز جميعُهم لملاقاة الجنرال.. ألنساءُ يتسلَّقْنَ الأشجار، وينتشرْنَ في مدرَّجات التوت، ويملأْنَ الجوَّ صياحاً وابتهاجاً»(٨). وعلى الطريق بين عمّاطور وجِزّين

---

(٦) الترجمة العربيّة لكتاب «لونورمون»، ص ١١-١٢.

(٧) E. Louet, Expédition de Syrie, 1860 - 1861, P. 347.

(٨) المرجع السابق، ٣٤٨.

«آلاف الدروز التقوا بالفرنسيِّين والتفُّوا حولَهم، من أكثر من عشرين قريةٍ مجاورةٍ، واصطفّوا على جوانب الطريق، مبتهجين مزغردين مستأهلين بالفرنسيِّين»[٩].

***

وفي هذا العصر، كان الدروز عروبيّين لمّا رأوا العروبة تجتاح البلدان العربيّة، وهم القائلون بـ «حكمتهم»: ألطريق السهلة فهي مع العرب. وقد كثر فيهم الغدر وقلّة الوفاء بالذمامات. وقد أذلُّوا جارَهم بعد العزّ، وخانوا في الرِّفاق والأمانات. وأهلُ الديانة منهم أيضاً فهم قليل»[١٠].

وأيضاً كانوا فلسطينيّينَ مسلمينَ سنِّيِّينَ لمّا رأوا هؤلاء أقوياء بحماية العالم العربي. إلاّ أنّ كلمة كمال جنبلاط ستبقى عبر التاريخ عبرة لمن يريد أن يعتبر: قال: «سأظلُّ أحاربُ حتَّى آخر فلسطيني». وكذلك الوليد، الذي انتصر بفضل الفلسطينيّين، منَعَ دخولَ المناطقِ الدرزيّة على كل فلسطيني ولو كان بقصد الزيارة أو السياحة. كما منعهم التملّك في أيّة بقعة من الجبل.

ولمّا تغلّبَ الكتائبيّون ووصلوا إلى الحكم بقيادة بشير الجميّل، تسارع الدروز «وتقرّبوا من شباب الكتائب العائدين بعد غياب إلى قراهم، كما تودّدوا إلى المسؤولين الكتائبيّين، وأوعزوا إلى شبابهم المقاتلين بحلقِ لحاهم وإخفاء كلِّ المظاهر

---

(٩) ألمرجع نفسه، ص ٣٤٨ – ٣٤٩.

(١٠) رسالة ٦٨/ ٥٤٩.

العسكريّة»[١١]. وزحفتْ وفودٌ درزيّة إلى بكفـيّا من كلا الحزبَين الجنبلاطي واليـزبكي بسـيّاراتـهم المزيّنة، وبقـيادة زعـمـائهم السياسيّين والدِّينيِّين، يقدّمون الخضوع والولاء.

إنّها حكمة درزيّة بالغـة يفهم أبعادها ومعانيـها من يعرف مبدأ التقيّة الهائل.

ولمّا دارت على الكتـائب الدوائر، وطُـرد المسيـحـيّـون من الجـبل والإقليم وشـرقي صيـدا، وقـوي سـاعدُ «الخـمـينيِّين» وأتباعُـهم من الشيـعة اللّبنانيين، تحالـف الدروز مع هؤلاء، ضدّ أنصارهم بالأمس، من فلسطينيِّين وسنِّيِّين وعروبيِّين وقوميِّين..

إلاّ أنّ في التـاريخ مطبّات ومـفاجآت. فـالدرزي لن يطول تعاونُه مع الشـيعي. فـرسائل الحكمة، كـما رأينا، مليـئة بالكلام البذيء وبالشـتائم على عليٍّ وشـيعتـه، والعقيـدة الدرزيّة تطعن بالشيعـة «أهل الشرك والضـلال». والكتب السريّة باتت مـعروفةً مطبوعة... فكيف سيجد الدرزي لهذه المواقف تبريراً ومخرجاً؟!

فلا المسـيحـيّون سيـعيـدون اختبـارهم مع الدروز الذين ذبحـوهم مـراراً وتكراراً؛ ولا أهل السـنّة باتوا جـاهلين مـواقفَ الدروز وحكمـتَهم من الإسـلام والنبيِّ مـحمّـد؛ ولا العروبيّـون سـينطلي عليـهم تعـامل الدروز مع عـدوّ العرب والإسـلام؛ ولا الشيـعة سيظلّون بحاجـةٍ إلى من يدعهم لاستـلاب «المحرومين»

---

(١١) بول عنداري، الجبل حقيقة لا ترحم، ص ٢٥.

الحكم والسلطة في لبنان.. فكيف للدروز أن يخرجوا من هذه الورطة التاريخيّة؟! أيّة سياسة ستظلُّ تربط بين «المحرومين» و«التقدُّميِّين»؟! إنّها حقًا سخريّةُ القدر.

***

فعلى أخصام الدروز السياسيّين أن يتفهّموا، في عملهم السياسي، هذه الحقيقة الراهنة، فلا ينخدعوا بالتحالفات الدرزيّة كونها تحالفات تكتيكيّة تسقط حال تحقيق مآربها. وما نسمعه من الدروز من عداوة لإسرائيل فهو من تعاليم الحكمة في مسايرة العرب ومداراتهم. إنّها «التقيّة» بعينها.

الدرس الثامن

الكَذِبُ رَأْسُ الحِكْمَة

بعد سبع سنوات من المحنة الشديدة على الدروز، كتبَ بهاءُ الدِّين أوّلَ رسالة لـه إلى الموحِّدين جاء فـيها هذه الحـكمة: «ليس يلزمكم، أيُّهـا الإخـوان، أن تُسْـدِقُـوا لسـائر الأمَّـة، أهلِ الجـهل والغمّـة، والعمى والظلمـة. والسِّدْقُ فهـو مِن نفس الأدب. وليس لغيرِكم عليكم فَرْضٌ. ولا ذلك إلاّ لبعضِكم بعضٍ»[١].

مـعنى ذلك إنّ السـدق بين الدروز واجب مـقـدّس، بل هو أولى دعائم الدين الدرزي[٢]. أمّا الكذب على «الأضداد» فهو أعظم وسـيلة لذاك الـواجب. فـالدرزيّة إذاً تعـتـمـد عـلى السِّـدق بين أنصارها كأعظم ركنٍ لها، وعلى الكذبِ على الغـير كأعظم وسيلةٍ للوصـول إلى أهدافهـا. وواجب الكذب نفـسه يعـتمـد على ركن درزيّ آخر هو ركن «التقيّة» وإخفاء الحقيقة.

---

(١) رسالة ٤١/ ٣١٤ بكاملها.

(٢) أنظر رسائل: ٧/ ٦٦، ٨/ ٧٢، وكتاب «بين العقل والنبي» ص ٣٥٥-٣٦٦.

هذا الكذب المباح أبداً هو على كلٍّ صعيد. وقد خدعوا العالَم كلَّه بمقدرتهم عليه. وأكثر ما جرى الكذب على ألسنتهم في ما يخصّ معتقدهم. فمنذ نشأتهم ما فتئوا يردّدون انتماءَهم إلى الإسلام. وقد رأينا مدرسةَ الشيخ محمّد أبو شقرا تفلح ببراعتها. وهو يردّد ما قاله أسلافُه للعثمانيِّين : «إنّ أجدادنا ما فتئوا، منذ عهد عهيد، خدمةَ الباب العالي الأمناء. ونحن نستمرّ على مثالهم معلنين تمسّكنا بأهدابِ الإسلاميّة»[٣]. وأكّدوا بأنّ «الدرزيّة تدين بالإسلام منذ عدّة قرون.. فنحن مسلمون. وقد كنّا كذلك منذ البدء»[٤]. وغير الدروز أيضاً لاحظوا الشيء نفسه، فكتب سِلْفِسْتِرْ دي سَاسي: إنّ الدروز..، في بعض أمور من معتقدهم، يُظهرون عقيدةً متناقضةً تماماً لما في كتبهم المقدسة»[٥].

Les Druzes..., sur certains points de leur croyance, professent une doctrine diametralement opposée à celle de leurs livres sacrés".

ألكذب، في منطق العالم، رذيلةٌ دينيّةٌ، خلقيَّةٌ، إجتماعيّةٌ جسيمة. فهو يطعن مباشرة بكرامة الإنسان وحريَّته. يخلّ بموازين العدالة والحقّ. يفسد ضمير الأمّة. أمّا في منطق الدروز فالكذب على الغير فضيلة ومهارة ورجولة. وهو يعني في

---

(٣) ألمحررات السياسيّة، ١/ ٥١.
(٤) المرجع السابق، ١/ ٥٠-٥١.
(٥) Silvestre de Sacy, Recueil des Mémoires..,p. 14

حقيقته الدرزيّة : أنّ غيرَ الدرزي ليس بمستوى أن يعرف الحقيقة. فهو غير أهل لها. من هنا كانت «الحكمة» التي أثبتنا نصَّها الحرفي في المقدِّمة.

وإذا أردنا أن نفهم هذه «الحكمة» فهماً درزيًا كاملاً فلنأخذ تفسيرها من أحد أئمة التفسير، الشيخ جمال الدين التنّوخي المعروف بالأمير السيّد. قال: «تجبُ المُسَاتَرة على كلِّ أحدٍ من أهلِ التوحيد.. ولا يحلُّ لأحدٍ يتمسّكُ بدينِ التوحيد أنْ يُهمِلَ المساترة. بل يجب عليه أن يعرفَ موجِبَاتِ الصلاة والوضوء، ويقرأَ ما تيسّرَ من القرآن.. ويزكِّي عن ماله، ويعرفَ أمرَ الصيام.. بحيث لا ينكشفُ عند (أهل) الشرائع أمرُ دينِ التوحيد، حتّى ولو وخَّر (أخَّر) الإنسانُ بعضَ رسائل الحكمة بلا حفْظ.. لأنَّ الإنسانَ، إذا غرسَ بستانًا ولم يَصُنْهُ بشيءٍ لم يَسْلَمْ أبدًا. وإذا غرسَه ثمَّ نَقَّصَ بعضَ غرْسِهِ وجعلَ عوضَ ذلك النقصِ حاجزًا يَصونُه، كان ذلك أقربَ لسلامتِه.. وكذلك مذهب التوحيد ما يصحّ لأحدٍ صحّةً كاملة إلاّ بالاستتار..

«وهذه الحال رحمةٌ من اللّه على أهلِ التوحيد أن يكون توحيدُه في قلوبِهم، ويتزيّوا بزيٍّ كلِّ طائفةٍ في ظاهرهم»(٦).

***

(٦) شرح ميثاق وليّ الزمان للأمير السيّد، ورقة ١٢٥أ – ١٢٧أ.

تعاملُ الدروزِ مع عـقيـدتهم الدينيّة على هذا النحـو قادَهم إلى نهجٍ معيَّن في سلوكهم السياسي والاجتماعي والخلقي. ولنا من التـاريخ ألف ألف دليلٍ ودليل. والمؤرِّخـون للتـاريخ الدرزي لمسوا ذلك لَمْسَ الـيد، وشاهدوا بأمِّ العين كـيف يكذب الدرزيّ من دون خـجلٍ، أو قلقِ ضمـير، أو ارتـباكٍ خلقي، أو رقّـةِ طرف. فـ «الدروز يكذبون كما الآخرون يتكلّمون»(٧)

Les Druzes mentent comme les autres parlent.

إنّه «شعب مـخيف ألشـعب الدرزي الذي يصنع من الكذبة لعبة»(٨)

C'est un affreux peuple que le peuple druze; il se fait du mensonge un jeu.

«هؤلاء الذين تقـوم ديانتـهم على أن يكـذبوا، وأن يكذبوا باستمرار، يخلّون بكلامهم من دون خجل»(٩)

Les Druzes, dont la religion est de mentir, de mentir toujours, violent sans scrupule la parole qu'ils ont donnée. ...

ألدرزي يكذب ومن واجبه الديني أن يكذب. ألكذب والسدق على «الأضداد» عند الدرزي سيّان، لأنّ القيمة الوحيدة عنده هي

---

(٧) Poujoulat, p. 348.

(٨) المرجع نفسه ص ١٧٥.

(٩) ألمرجع نفسه، ص ٤٧٦.

«الحكمة» وليس «الإنسان». وكلُّ إنسان لا يستحق الحكمة، أي ليس درزيًا، فهو لا يستحقّ النور ولا الحقيقة، كما لا يستحقّ الخلاص.

واذا كان الدرزي يكذب على العالم في هذه القيم التي هي من حقّهم، فالأحرى به أن يكذب في قيمٍ اجتماعيّة هي أدنى من تلك القيم الروحيّة! لهذا، إذا كان الدرزي يتظاهر بعبادة إله المسلمين ويطعن به على أنّه «إله عدم». وإذا كان يدّعي انتماءه إلى الإسلام والإسلام عنده هو «دين الدواب والحمير»[١٠]... فكيف به ان تظاهر بمحبّة الآخرين وهو يبغضهم ويترجّى هلاكهم الأبدي؟!

***

فعلى أخصام الدروز السياسيّين أن يتفهّموا، في عملهم السياسي، هذه الحقيقة الراهنة، فلا ينخدعوا بعهدٍ أو اتّفاقٍ أو ميثاقٍ يقطعه الدرزي على نفسه. كلُّ شيء رهن مصلحته ومصلحة جماعته. وهذا الهدف يبرّر كلّ وسيلة. ما من إنسان على وجه الأرض يستطيع أن ينتزع من الدرزيّ كلمةَ حقّ، لأنّ أيّ إنسان سواه عاجز عن إدراك الحقّ.

فالكذب هو التعبير الاجتماعي لتعابير دينيّة تملأ كتب «الحكمة» وشروحاتها. من هذه التعابير التي يعرفها كلُّ درزي

---

(١٠) رسالة ١١/١٠٣ و ٩٩.

ويستعملها في قاموسه الدرزي: ألتقيّة، الكتمان، المسايرة، المستارة، الصيانة، الستر، الاستتار، الاحتراز، التدليس... وما أشبه. وهذه كلّها تعني، كما قال «بُوجُولاَ»: «تدرّزًا خالصاً»[١١] C'est de la druserie toute pure. و«يرضعها الدرزي مع اللَّبن وينمّيها طوال حياته»[١٢] C'est la dissimulation poussée à ses derrières limites. La dissimulation est la science du Druse. Il la suce avec le lait; il la cultive toute sa vie.

(١١) Poujoulat, p. 484.

(١٢) ألمرجع نفسه، ص ٢١٤.

الدرس التاسع

الغدرُ في أعتَى مظاهرِه

ليس الغدر فضيلةً نستلهمها من كتب «الحكمة»، ولكنّه أعظم دواءٍ «وقائيٍّ» اتّخذه الدروز عبر تاريخهم. إنّه إفراز الخوف المصيري عندهم. هذا الخوف إيّاه أجاز للدرزيِّ ممارسةَ التقيّة والتستّر والمسايرة والكتمان والكذب. والخوف، في ذروته، هو خوف الإنسان من «أن يكون أو أن لا يكون». وهذا هو الخوف الذي وَجَدَ فيه الدرزيُّ تبريرًا لكلِّ أمرٍ مشين.

على هذا، استباح الدروز «الغدر» وكلَّ ما يدور في فلكه من خداع ودهاء ومكر ومخاتلة ومراوغة ومماراة وانتقام وما إلى ذلك.. وذلك بدافع الحفاظ على وجودهم، أكثر منه على امتيازاتهم أو مكتسباتهم. و«لأنّ حوادث التاريخ تتجدّد»[1]، رأينا من المناسب استعراض عمليات «الغدر» التي قام بها الدروز، منذ نشأتهم حتى اليوم. وهي في الماضي البعيد كما في الحاضر، تتزايد بتزايد غباوة خصومهم.

(١) المحرّرات السياسيّة، ج ١، مقدمة، ص (د).

منذ الشيخ بهاء الدِّين المقتنَى الذي تسلَّل إلى صفوف أعدائه الفاطميّين ليخفّف عن إخوانه الموحِّدين القهرَ والاضطهاد، وقد أرسله «الظاهر» إلى حلب سنة ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢/م، أي بعد سنة على غيبة الحاكم وحمزة، على رأس حملة عسكريّة ليتسلّم المدينة عنوة من واليها صالح بن مرداس، نرى الدرزيّة تستعيد نشاطها في أواخر سنة ٤١٧هـ ، وذلك بفضل ما لبهاء الدين من دهاء. وهو القائل عن الظاهر بأنّه «الدجّال الرجيم الأجزع».

ثم جاء بعد بهاء الدين، الأمير رافع بن أبي اللّيل، أحد الدعاة الدروز الأوائل، وتقرّب، بدوره، من «الظاهر دجّال العرب»، وأصبح قائداً من قوّاده المقرَّبين. وذلك لمحاربة عدوَّين آخرَين أشدّ خطراً، هما صالح بن مرداس والي حلب وحسّان بن مفرِّج بن الجرَّاح والي الرملة. وبعد أن تمكّن من الأوّل، تعاون مع الثاني «لمحاربة الظاهر في محاولة لازالة نفوذه من بلاد الشام»[٢]. وذلك بعد أن قتل صالحاً وحمل رأسه إلى «الظاهر».

أ - من القبلة إلى الطعنة

في مراحل لاحقة نرى عمليّات الغدر تتكاثر ويُدوِّنها الدروز أنفسهم. ولو لم يكشف لنا الدروز عنها لانطلتْ خدائعهم علينا وعلى المتخصّصين في كشف الجرائم. والمغدورون أنفسهم، ما كانوا ليدركوا خفايا الغادرين الذين يتوسّلون أسمى القيم لنجاح عمليَّاتهم. فالدروز يأخذون عدوَّهم كصديقٍ حميم،

---

(٢) تاريخ الموحِّدين الدروز في المشرق العربي،

يُظهرون له كلَّ مودّة، يُضحّون بكلّ شيء في تكريمه، يُشبعونه قُبُلات، يُقدّمون له كلَّ ما يحتاج، ويَتفانون في الإخلاص له. ولست ترى في معاملتهم هذه أوفى منهم أصدقاء مضحّين.

قد لا يصدّق القارئ هذا الكلام لكثرة ما يظنّ فيه من مبالغة. ولكن إليك هذه الحادثة من الدروز أنفسهم، ومن وثيقةٍ لشاهد عيان منهم. جاء فيها عن الأمير يوسف الشهابي وعن علاقته الحميمة المبطَّنة مع صديقَيه الحبيبَين عدوَّيه اللَّدودَين، بشير جنبلاط زعيم الجنبلاطيين، وعبد السلام عماد زعيم اليزبكيين، وذلك على إثر تسميم الأمير يوسف للشيخ يوسف أبي شقرا شيخ عقل الدروز في ذلك العصر، وقتله الشيخ أحمد دبّوس مدير الشيخ عبد السلام.

تولّى عملية الانتقام الرهيب و«المشروع الخطير» الشيخُ بشير جنبلاط والشيخُ عبد السلام عماد، اللَّذان توافقا على العمل «مع الأمير بشير عمر الشهابي ابن أخي الأمير يوسف، و«تآمر الثلاثة على ذلك الأمر المهمّ». وحدث أن أوفد الأمير يوسف ابنَ أخيه إلى عكّا. فعلم بشير جنبلاط بالأمر، فزوّده بالنقود ليستغوي بها الجزّار، وعزّزه بالأسلحة والأفراس والتحف الكريمة.. ولمّا امتثل أمام الجزّار، كتم المهمّة التي أوكلها إليه الأميرُ يوسف، وقدَّم بدلاً عنها عرائض الشكوى والتظلّم، ودفع إليه الأموال والهدايا.. فأحبّه الجزّار، فخلع عليه ولايةَ جبل لبنان إجابة لالتماس الأهلين، وأنفذَه إلى دير القمر مصحوباً بجيش كبير من الأرناؤوط.

«أمّا الشيخان بشير وعبد السلام فقد بالغا في كتمان المؤامرة التي عقداها مع الأمير بشير عمر، حتّى خفي أمرُهما على الأمير يوسف الذي كان يتظاهر بصفيٍّ الحبِّ لهما. وهكذا هما فلم يشبْ ظواهرَهما الحبيَّةَ له شيءٌ قطّ».

ولّما وصل الأمير بشير إلى صيدا، وعرف الأميرُ يوسف بخلعه عن الحكم، طار صوابه، «فاستدعى إليه خاصتَّه، مطيِّراً إلى الشيخ بشير والشيخ عبد السلام ذلك الخبر.. فهرعا إليه. وتباحثوا في الأمر. فجعلا يَعملان معه على نيّةٍ خلافِ الظاهر، ويُكبِران عليه الأمر.. وما برحا يُزيِّنان له مثل هذه الآراء، ويَنصبانها له مكيدةً لكي يُخليا قصبَةَ الحكم منه، ويُغادر الكرسي.. فانطلى عليه الأمر، ووقع في المكيدة».

فهرب الأمير يوسف، وراح يتنقّل في هربه من مكان إلى مكان، من دير القمر إلى حمّانا، ثمَّ إلى برمّانا فجونيه، «انقياداً لآراء صاحبَيه»، وهما يشدّدان عزيمتَه في الانتقام من الأمير الصغير بشير عمر.. ومن جونيه، لمّا ركب الزورقَ مستودِعاً اللَّهَ صاحبَيه المذكورَين، قالا له: «إذهب. فهذا ثأر يوسف أبي شقرا وأحمد دبّوس». ولمّا بلغ عكّا اعتقله الجزّار، ثمَّ أمر بقتله فقُتل»[٣].

هذا الخبر الذي نستقيه من وثيقة درزيّة هو نموذج لذلك الغدر المبطَّن دائماً بالمحبّة والصداقة والتضحية. وثمّة غيره كثير من أخبارٍ نطالعها في شهادات المؤرّخين وشهود العيان.. وأهمّ

---

(٣) الحركات في لبنان، ص ١-٣.

قصص الخيانة والغـدر جرت في أحداث الأعوام ما بين ١٨٤٠- ١٨٦٠، وقد دوّنهـا مؤرِّخوها مـجمعِين عـلى صحّتـها. وفي كلِّ قرية أو بلدة سقطت في أيدي الدروز نماذج عنها.

٢ - مدن وقرى فريسة الغدر

* في حاصبـيّا، على ما يروي تشرشل، جاء المسيـحيّون إلى عقّال الدروز يلتـمسون إيقاف الفتنة والقطيـعة بين الفريقَين، فـانتفض العـقّالُ لـدى المسيـحيين، و«قـابلوهم بأعـذارٍ منمّقـة وتأكيـداتٍ بأنْ لا لزوم لخوفهم.. فـعقد علـى الأثر صلح موقَّت. غير أنَّ استعدادات الدروز استمرّت بنشاط متزايد»(٤).

* وفي راشيّا الوادي، ذهب كبراء المسـيحيين وقسوسـهم إلى عـقّال الـدروز طالبين منهم الأمـان والسلام، «وانـتهـوا في المساء (في ٢١/ ٥/ ١٨٦٠) راضين عـمّا أظهـره الدروز لهم من اللِّين والملاطفة والمواعـيد الكاذبة والتطمينات الفارغـة حتَّى ظنُّوا بأنَّهم نالوا المـرام. وقد زاد غـرورهم بما أولَـم لهم الدروز بذلك اليوم من الولائم وما سمـعوا من القولِ أثناء تلك الولائم، هو: أنّنا وإيّاكم إخـوان في الوطـن، ومـا بيننا وبينكـم إلاّ العـيش والملح والحبّ والسـلام. وقـد خـرج في مـسـاء ذلـك النهـار المؤذِّنون ينادون على الناس قائلين: يا أيُّها الناس.. ليذهب كلٌّ لأعماله، فإنّ الجـميع في توادٍّ وحبّ، ولا يوجـد إلاّ السـلام والأمان. فـاغتـرّ النصارى.. وتركوا أسلحتَهم، وأبعدوا عنهم كلَّ احتراس. وسافر

---

(٤) تشارل تشرشل، ص ٧٨.

سعيد جنبلاط إلى المختارة. وبعد غروب شمس ذلك النهار، سُمع صوتُ طلق بارود.. ولم يمضِ على ذلك خمسُ دقائق حتّى ملأ الضجيجُ الفلا، وعمَّتِ الفوضى، ومزَّق صوتُ البارود كبدَ السماء، وأطبقَ الدروزُ على النصارى من أكثرِ جهات البلدة»(٥).

* أمّا عن أحداث جزِّين فقد أشار تشرشل إلى مكائد الدروز فقال : «ما أن خرج رسولُ سعيد جنبلاط من طمأنةِ أهل جزِّين حتى دخل ألفا مسلَّح درزيّ بقيادةِ سليم جنبلاط. وحدثتْ مذبحةٌ هائلة من ألفٍ ومائتين، وجرحى بالآلاف، ونار تلتهم الزرع والضرع والمنازل. وهرب مَن هرب باتِّجاه صيدا»(٦).

وفي شهادة القنصل الإنكليزي مُورْ قوله: «كما حدث في جزِّين. فإنّهم (أي الدروز)، بعد أن تعهَّدوا لهم (لأهل جزِّين) العهود المعزَّزة بالإيمان بأنهّم لا يمسّونهم بأذىً، فاجأوهم ونهبوهم»(٧). ثمَّ ينقل عن «مطران جزِّين الماروني، وقد كُتبتْ له النجاة.. فوصفَ لي ما حلَّ من الشؤم بتلك البلدة المارونيّة.. وأخبرَني أنّ الدروز، بعد أن أعطوا الضمانات الشفاهيّة والخطّية تأميناً للسكان، هجموا على قضاء جزِّين، في أوّل الجاري (حزيران)، وحرقوا قراه وشتّتوا شمل أهليه»(٨).

---

(٥) مذبحة الجبل، ص ١٦٢. وأيضاً: المحرّرات السياسيّة، ٢/٩٣-٩٥.

(٦) تشارل تشرشل، ص ٨٤ – ٨٥.

(٧) المحرّرات السياسيّة، ٢/٢٩. أنظر أيضاً : ٢/٣٧، ٢/٤٧-٤٨، كتاب «مذبحة الجبل»، ص ٨٩، وجميع المراجع عن تلك الفترة.

(٨) المرجع نفسه، ٢/٣٧.

وفي كتاب بطريرك الموارنة إلى خورشيد باشا، بتاريخ ١٠/٦/١٨٦٠ ما يلي: «إنّ الدروز.. هجموا على مسيحيّي قضاء جزِّين الصغير، بينا كان هؤلاء مطمئنِّين في بيوتهم، وغدروا بهم، وقتلوا جميعَ مَن اتّصلتْ إليه أيديهم، رجالاً ونساءً وأولاداً وكهنةً ورهباناً وراهبات، ونهبوا الأموال، وحرقوا الأملاك والكنائس والأديار، وشتّتوا شمل الأهالي»[٩].

وكتب «لونُورْمُون»: بعد تفاقم الاضطرابات، «عمّم سعيد بك جنبلاط على أهالي جزِّين أن ليس عليهم أن يَخشوا شيئاً، وأنّ مدينتَهم ستكون موضع احترام.. ورغم هذا الوعد، ففي اليوم الثاني من حزيران، اجتاح سعيد بك جزِّين بنفسهِ على رأس حشدٍ حاشد من عبّادِ الوثن والمسلمين، حيث تكرّرت فصول الاضطهاد»[١٠].

* أمّا الغدر في زحلة فكان على مستوى خديعةٍ تاريخيّة، ذلك لأنَّ زحلة أظهرت بأساً وصموداً بالغَين بوجه الماكِرين، واستطاعت صدَّهم رغم آلاف الأعداء الواردين إليها من كلٍّ مكان. وبسبب صمودها حاول أعداؤها أخذَها بالحيلة مراراً وتكراراً، ففشلوا. كما حاول الأتراكُ جمْع السلاح منها، فلم يفلحوا.. وأخيراً صمّم القائد التركي نوري بك اللّجوءَ إلى حيلةٍ جديدة استحسنها الدروز، ألا وهي أن يَلبس هؤلاء لباسَ رجال

---

(٩) المحرّرات السياسيّة، ٢/ ٤٠.

(١٠) لونورمون، الاحداث الطائفيّة، ترجمة أ. خويري، ص ٤٨.

يوسف بك كرم، ويحملوا راياتِ النصارى، وينشدوا مثلهم أناشيد الحرب، «ويعرضون بذكر الانتقام من الدروز. فظنَّ الزحليُّون بأنّ تلك كتائب يوسف كرم التي كانوا ينتظرون قدومَها لمساعدتهم في تلك الأوقات الحرجة، ففرحوا غايةَ الفرح، ولم يبق عندهم ريب في تلك القوّة وخصوصاً عندما رأوا بيارقَ الصليب تتقدّمها، فخرجوا للقائها واستقبالها استقبالَ الصديق لصديقه»(١١). وهكذا، وبهذا الغدر المتدرِّز، سقطت زحلة.

* و«أمّا مكائد دير القمر فلحسن حظّ الإنسانيّة وحرمة الشرف العسكري، لن يسجّل التاريخ مثيلاً لها، إلاّ ما ندر»(١٢). لقد أكّد الوالي التركي طاهر باشا لسكّان دير القمر بأنّ المدينة لا خطر عليها، «واستدعى مشايخَ الدروز، بينهم سعيد جنبلاط، فتعهّد هؤلاء بسندٍ مكتوبٍ بأنّهم يحترمون ديرَ القمر، وفيما المسيحيّون صدّقوا على العهد، ويا للأسف ليس هو الأوّل ولا الأخير من نوعه، رأينا دير القمر تحترق وتُنهب ويُذبح سكّانها على مرأى من الحامية التركيّة»(١٣). و«حتّى القناصل صدَّقوا، ومرَّت عليهم الخيانة»(١٤).

وفي كلام تشرشل، ألمحسوب على الدروز، على غدر هؤلاء لم تغب عن باله غباوة القادة المسيحيّين. فقال: إنّ

---

(١١) مذبحة الجبل، ص ٣١٣.

(١٢) Témoin Oculaire, p. 85.

(١٣) ألمرجع السابق نفسه، ص ٧٥.

(١٤) ألمرجع السابق نفسه، ص ٧٦.

مسيحيّي دير القمر، «وثقوا، بغباوةٍ، باعترافاتِ الدروز بالصداقة»[١٥] Credulously relying on Druze Professions of Friendschip. هذه الصداقة أظهرها الدروز مراراً لأجل بلوغ مأربهم. جاء في كتاب «مذبحة الجبل»: «ولأجل بلوغ هذه الأماني لم يُظهروا لدير القمر شيئاً من العداء، في بادئ الأمر، بل جاروها على ميلها السلمي، محافظين بسرِّهم على ما كتموه لها من الشرّ، لحين دنوِّ الساعة، حتى لا تفطن لما يُبطنون، فتأخذ بطرقِ الوقاية لنفسها»[١٦].

* وبالغدر نفسه «هوجمت أيضاً رشميّا، ونُهبت، وهي واقعة في حكم بيتِ عبد الملك. فإنّ هؤلاء المشايخ وعدوا أهلَ هذه القرية بحمايتهم. ولمّا اطمأنّوا بالاً، كأهلِ راشيّا، فاجأهم الدروز، وقتلوا منهم»[١٧]. لكن رشميّا لم يحرقها الدروز «لأنّهم فكّروا بأنّ هذه البلدة الكبيرة ستصبح يوماً لهم، فاكتفوا بنهبها. أمّا عين تراز فأُحرقت برمّتها، وشرتون دُكّت منازلها»[١٨].

٣ – الداهية الأدهى

والرجل الدرزي الوحيد الذي تقع على عاتقه مسؤوليّة مذابح المسيحيين هو الداهية سعيد بك جنبلاط. وقد أدرك

(١٥) تشرشل، ص ٨٣ من الترجمة. و ص ١٥١ من الأصل الإنكليزي.
(١٦) مذبحة الجبل، ص ١٧١.
(١٧) من رسالة القنصل مُورْ إلى السفير بولفر في ٩/٦/ ١٨٦٠.
(١٨) Poujoulat, p. 204

مندوبو الدول الستّ دهاءَه وغدره، فعبّروا عن ذلك مراراً. فقال مندوب فرنسا في صكّ الجلسة الرابعة والعشرين، في ٢/٣/١٨٦١: «إنّ السبب الوحيد الذي يخفّف جريمتَه هو أنّه ساعد المسيحيّين وأغاثهم. بيد أنّ إرغامه اللاّجئين إليه على إعطائه شهادات بصنيعه هذا يثير الريبة ويمهّد السبيل لاتّهامه»(١٩).

وفي الجلسة نفسها «صرّح مندوب بروسيا بأنّه لا يزال متيقّناً، بعد تلاوة ملفّ أوراقِ سعيد بك، أنّه المحرِّض الأكبر على القتال الذي صبَغ أرض لبنان بالدم، إذ إنّه، لمّا كان أحيلَ وأدهى من الباقين، وأكثرَ اقتداراً، تمكّن من إخفاء سرٍّ سياسته، وأخذِ شهاداتٍ على حسنِ سلوكه سلفاً، وحرّر كتباً ليوهم إنّه نهج نهجاً محموداً»(٢٠).

وفي الجلسة الثانية والعشرين، في ٢٧/ ٢/ ١٨٦١، هذه البيِّنة: «يمكن القول بأنّ صعوبة وجود بيّنة كافية تثبت الجريمة على السجين (سعيد جنبلاط) لا يستنتج منها أنّه بريء. بل تدلّ على عظم دهائه، وأنّه أثار سرًّا القلاقل التي يزعم أنّه أطفأ جمرتها، وأنّه، بينما كان يُنقذ البعضَ لحملهم على أن يشهدوا له يوم المحاكمة، دفع سرًّا إخوانَه أصحابَ الإقطاع، وهم دونه حذراً، إلى اقترافِ الفظائع التي لم يغمسْ يدَه فيها»(٢١).

---

(١٩) المحرّرات السياسيّة، ٣/ ٣٩٣.

(٢٠) المرجع السابق نفسه.

(٢١) المرجع السابق نفسه، ٣/ ٣٧٩؛ أنظر أيضاً: ص ٣٧٤-٣٧٥ حيث تجد التهم التي وجّهت إلى جنبلاط بسبب غدره. وانظر أيضاً: ٣/ ١٧٥-١٧٦.

وأورد لنا كتاب «مذبحة الجبل» فقرةً توجز حقيقة شخصيّة هذا الداهية، قال: «كان في كلّ بلدةٍ يَعِدُ النصارى في أوّل الأمر بالذود عنهم، ثمّ يغدر بهم، ويفتك بأبريائهم»[٢٢]. بيد أنّ مثل هذا الكلام لا يفي بالمقصود، ولا يوفّر الدليل الكافي على مكايد الدروز. كما أنّه لم يكن لِيفيد المسيحيين بما فيه الكفاية حول دخائل الدروز ونيّاتهم وتصرّفاتهم. وما نشهده اليوم على الساحة لأكبر دليل على ذلك.

٤ – دروس وعبر

على أخصام الدروز السياسيِّين، أن يتفهّموا، في عملهم السياسي، هذه الحقيقة الراهنة، وهي أنّ التاريخ الدرزي حافل باستنباطِ حيل الغدر والمكر والدهاء. وليس في الأفق ما يشير إلى تغييرٍ ما في نهجهم السياسي والاجتماعي، وحتّى الخلقي. وهو أمر متأصّل في تلك العقيدة الغريبة.

ثمّ إذا ما عرفنا أنّه لمن المنطق أن يكون لأبناء كلّ دين ربّاً يَعبدونه، ومثالاً يقتدون به، كان من الطبيعي أن يتشبّه الدروز بمثالهم الحاكم الإله المعبود الذي اشتهر بمكره وغدره بأهلِ مصر جميعاً، من فاطميّين، وسنّة، وشيعة، ويهود، ومسيحيّين، وأن يتمثّلوا الحدودَ الروحانيّين، وبخاصّةٍ حمزة الذي عرّف على نفسه بأنّه «المنتقم من المشركين والملحدين، بسيفِ مولانا».

---

(٢٢) مذبحة الجبل، ص ٨٩.

فعقـيدة الغدر والدهاء متجـسّدة في التاريخ الدرزي وهي إيمان وممارسـة.

هذه العقيـدة الدينيّة أدركها مؤرّخو أحـداث القرن التاسـع عشر، فجـاء في وثيقة من سنة ١٨٦٠ هذا القول: «يتأكّد بأجلى بيان.. أنَّ الدروز من عادتهم ودائهم دائماً الغـدر ورغبة الانتقام.. ومـباح لهم بديانتـهم قتـلُ النصارى وأخـذُ أموالهم.. وأنّه أمـرٌ معلوم أنّ الدروز في أكـثر المحلاّت، ما استظهـروا على النصارى إلاّ بالغدر والخـيانة». وتقول الوثيـقة أيضاً: «إنّه أمـر معلوم أنّ الدروز عندهم أخذُ الثأر أمرٌ ديني»[٢٣].

وبالرغم من هذه المعـرفة الأكـيـدة، ما زالت الخـدائع على المغدورين تتـوالى، وما زال ضحاياها يتسـاقطون. ولا غرابة في الأمر طالما يتـوسّلُ الغدرُ أساليبَ حضـاريّةً وقيمًا روحيَّـةً تظهر بألوان وأشكال متنوّعة ومـتباينة أمام المغـدورين الغفلة والقادة الأغبياء.

(٢٣) وثيقة من سنة ١٨٦٠، ورقة ١٨ب، ٢١ب، ١٩ ب.

الدرس العاشر

ألغدر بالصديق والجار

١ – أمس...

من المميّزات الدرزيّة الحميدة، في العقيدة والممارسة، أن يقتصّ الدرزيّ بنفسه من «الضدّ» الذي جاوره وعاش معه في قريةٍ واحدة ومجتمعٍ واحد، وتَعَاوَنا معاً في السرّاء والضرّاء. وبقدر ما يكون «الضدّ» صديقاً حميماً بقدر ذلك ينالُ الدرزيُّ أجرًا على قتْله. من أجل ذلك يَعتني الدرزيُّ بأصدقائه، كما يعتني المزارع بمزرعته، حتّى إذا ما جاء وقتُ الاستحقاق يكون هو وحدَه له الحقُّ في الاستفادة. فهل يربِّي إنسانٌ طيورًا ليستفيدَ غيرُهُ منها، أم ليستفيد هو؟! فالدرزيُّ أولى بقتل أصحابه من أيّ إنسانٍ آخرَ، حتّى ولو كان هذا الآخَر درزيًّا.

والشواهد على ما قدَّمنا ممَّا لا يُصَدَّق، لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، بدءًا بالحاكم المعبود حتّى عصرنا الحاضر. إليكم شهادةً من سيرةِ الحاكم مع خادمه غِيْن. كان غِين مِن الخدم السود الذين يؤثرهم الحاكمُ بعطفه وثِقته، فعيَّنه في ربيع الأوّل سنة ٤٠٢ هـ

رئيساً للشرطة والحسبة بمصر والقاهرة والجزيرة، والنظر في جميع الأموال والأحوال. وعهدَ إليه بتنفيذ المراسيم الدينيّة والاجتماعيّة مثل مطاردة المسكِرات ومنعِ بيعِ العسل والفقّاع والملوخيّة، ومنعِ الملاهي واجتماعاتِ الناس في المآتم والسَّيرِ خلف الجنائز وغيرها... وقرّبه إليه وأحبَّه حتَّى أنّه لمّا مرض ركب الحاكم لعِيادته، وبعث إليه خمسةَ آلاف دينار، وخمسةً وعشرين فرَساً..

غير أنّ هذه المظاهر البرّاقة لم تَحُلْ دون نكبتِهِ: سخط الحاكم عليه، وأمر بقطع يده؛ وبعد مدّةٍ أمر بقطع يده الثانية، فقطعتْ وحملتْ إلى الحاكم في طبَق، وبعث إليه الأطبّاء للعناية به، ووصله بالمال. ومات غِين بعد قليلٍ من جراحه[١].

وشملت النقمةُ أبا القاسم الجرجاني كاتبَ غِين، فقد أمر الحاكم أيضاً بقطع يدَيه؛ ولكنّه أبقاه على حياته، فعاش أقطع اليدَين[٢].

وقبل ذلك، أي في المحرّم من عام ٣٩٢، «اعتقل الحاكم أبا نجدة متولّي الحسبة، وقطعَ يده ولسانه ثمَّ ضرب عنقه»[٣]. وفي التاريخ نفسه، «قتل أبا الحسن بن عسلوج وأحرقه». ثمَّ «قتل جميعَ من في الحبوس» حتّى بقيت مدّة خالية. وكان، متى وقع

---

(١) المقريزي، إتّعاظ الحنفاء، ٦٧ أب. ألنجوم الزاهرة، ٤/ ٢٢٣.
(٢) ألمرجع السابق نفسه.
(٣) تاريخ الإنطاكي، ١٨٧. وما يلي.

أحد في تهمة، صغرتْ أم كبرت، قتلَه، وأحرقه. واستمرّ على هذا الفعل مدّةً»[٤].

و«لم يكن بقي من رؤساء ملّته من له ذكر ونباهة. وكان أمراً فظيعاً لم يشاهَد مثله، ولا جرى في السالف مثله»[٥].

ويقول المقريزي في زرعة بن عيسى بن نسطور النصراني، لمّا مرضَ وتوفّي. وكان من الرجال القلائل الذين عصمهم الموت من بطش الحاكم: «إنّ الحاكم تأسّف على موته من غير قتل. وقال: ما أسفتُ على شيءٍ قط أسَفي على خلاص ابن نسطور من سَيفي. كنتُ أودُّ لو ضربتُ عنقه»[٦].

وفي تاريخ الانطاكي، أحد معاصري الحاكم ومؤرِّخ فترته، ما يلي: «كان الرعايا والرعاع يجتمعون في الأسواق بين يدي الحاكم، فيتصارعون ويتدافعون ويتلاكمون.. واقتتلوا قتالاً شديداً. وقتلَ جماعةً كثيرة»[٧]. ويؤكّد حمزة مثلَ هذه الأعمال فيقول في «رسائل الحكمة»: «إنّ الحاكمَ كانَ يأمرُ الركابيّةَ باللَّعب بالعصيِّ والمقارع.. وبالصراع، وبالكشفِ عن الفروج والأحاليل. ويأمرُهم بأنْ يَحرقوا فروجَ بعضِهم بعضاً بالنار، ويقول للواحد: أورِني قَمَرَكَ، يعني إكشف عن أساسك»[٨].

---

(٤) تاريخ الانطاكي، ص ١٨٧.
(٥) أنظر تاريخ الانطاكي، ص ٢٠٦ – ٢٠٧.
(٦) إتّعاظ الحنفاء، ٦٥ ب – ٦٦آ.
(٧) تاريخ الانطاكي، في سيرة الحاكم.
(٨) رسالة ١١/١٠٨ – ١٠٩.

٢ - قبل قرن ونيِّف...

إذا طوينا القــرون وصولاً إلى الـقرن الفـائت نرى أحفـاد الحاكم أمــناء على رسـالتــه، مخلصين لتـعاليـمه، بل قد يــبزّونه أحــيــاناً في ارتــكاب الفــواحــش والمنكرات والفظـائع. وها هي الأحداث معزّزة بالتواريخ والأسماء تنطق وتؤكّد:

جاء في أحــداث دير القمــر سنة ١٨٤١ ما يلــي: «حتّى إنّ بعض المشــايخ من آل أبي نــكد نكّلوا بالذين قــضَــوا العـمــرَ في خدمــتِهم من النصــارى. ولم يَرحموا كـبيــراً ولا صغيــراً.. قتل الدروزُ الذين أمَّنوهم على أرواحهم»[٩].

وبعد مــذبحة راشــيَّا «لجــأ قسم من النصــارى إلى بيوت وجــهاء الدروز، فــأجاروهم فــي بادئ الأمر، إلاّ أنّهم، في اليــوم الثانــي، نهضوا عــليهم، وقتــلوهم بدون إشفــاق، خائنين حــرمة العهود والجوار»[١٠].

وفي تقرير ليعــقوب أبيلاً فِيْسْ، قنصلِ إنكلتــرّا في صيدا، أُرسل إلى القنصل العــام مُورْ، في ٢/٦/١٨٦٠، جاء فــيه: «إنّ كــثــيراً من الدروز جــاءوا صــيــدا، وقــبضــوا على شــركــائهم المسيحــيّين اللاّجئين إلى هنا. وبعد أن أخذوا منهم مبــالغ عظيمةً قتلوهم»[١١].

---

(٩) مذبحة الجبل، ص ٨٨.

(١٠) المرجع نفسه، ص ١٦٥.

(١١) المحرّرات السياسيّة، ٢/٥٢.

وفي شهادة السـيّد حمّود دريان، قوّاسِ قنصليّـة بروسيا في بيروت، من تاريخ ٢٥/ ٦/ ١٨٦٠، هذا الخبر: «إنّـي، ائتماراً بأمر القنصل، ذهبتُ إلى دير القـمر لآتي بخليل الباشـا ترجمان القنصليّة في دمشق. وهاك ما شاهدتُه بأمِّ عيني:

" بلغت المختارة في ذات اليـوم (٢٠ حزيران).. فوجدتُ في الساحة، أمام بيت سـعيد بك جنبلاط، جثَّتَي مسـيحيَّين فرُّوا من دير القمر حين المذبحة، فتعقّبهم الدروزُ حاملين ما غنموه من تلك المدينة، فأدركـوهم وحمّلوهم الغنائم حتَّى المختـارة. فلمّا وصلوا أمام بيت سعيـد بك، ترك اثنانِ من المسيحيِّين أحمالَهما واخـتبئا في بيت البك المشار إليـه. أمّا الآخَران، فـبعد أن ألقـيا حملَيهـما، قـصْدَ الراحـة، هجَم عليهـما رفـيـقاهُمـا الدرزيَّان، وأوثقاهمـا، وقاداهما إلى الساحة التي أمام دار سعيد بك، وقتلاهما»(١٢).

٣ - ... واليوم

وفي هذا الزمان تتكرّر الأحداث على نحـوٍ مشابه، بل على تفنّنٍ وإمعانٍ أوفى وأبلغ في الشرّ والغدر. ولنا عليها شواهد من شهـودٍ عِيان نستـعرضـهـا ونحن متأكّـدون، المرَّة بعد المرَّة، من عقيدة كانت ولا تزال هي المحرِّك الرئيس لها.

* ففي بطمـه، قريبـاً من المختاره، وعلى أثر مـقتل كـمال جنبـلاط، في ١٦/ ٣/ ١٩٧٧، سـقط أحـدَ عـشــر قـتـيـلاً من

---

(١٢)ألمحرّرات السياسيّة، ٢/ ٩٥-٩٦.

المسيحيّين، بينهم «فوزي الحـداد، وهو أستاذ كمال جنبلاط الذي كان وليـد يزوره باستمـرار ويحتفل في منزله بعـيده السنوي. كافأه الدروز –وهم من أهل بطمه نفســها– بأن قتلوا أخاه وعمَّه وابنَ عمّه، وجرحوا والده. هكذا يكون الوفاء»[١٣].

أديب باســيلا ربعـمد (٦٤ سنـة) عمل في التـدريس على مـدى ٤٠ سنة، وكـان طوال حـيـاته من أخلص أنصــار كـمـال جنبلاط. لقـد لقي مصرعــه على يد تلميـذه الدرزي عصام نبـيه وهبه، رغم أنّ أديباً كان أيضاً استاذ والده وعمومته.

سعيـد يوسف الحداد كان يقوم بتـصليح الأسلحة المعطّلة لمسلّحي الدروز، قُتل وقُتل ابنُه نعمه غدراً[١٤].

* وفي الفريديس يقول شاهد عـيان: «إنّ الكلام المعسول الذي كان يَسيل على ألســنتهم الكاذبة كان مجبـولاً بالسمّ مغلّفا بالحقد. وإنّ اليـد التي كانت تمتدّ لمصافحتــهم كانت تخبئ تحت إبطهـا خنـجـرًا يشـتـاق رائحـةَ الدم. إنّ الأبطـال الميـامين (في المجزرة) هم الشبـاب الدروز من جيران المسيحـيّين وأصدقائهم ومن الإخـوة، كمـا كان يـحلو أن يلقّبـوا أنفـسهم. لكن صـلات الجـيرة لم ترحمْ، وعـلاقات الصــداقــة لم تكن تفيـد، والروابط الأخوية سقطت.

---

(١٣) روايات الشهود في مجلّة «الشباب المسيحي»، عدد ٦ سنة ١٩٨٥.
(١٤) المرجع السابق نفسه.

«مَن يروي غليلَ الدرزيّ المتعطّش دائماً وأبداً إلى سفك الدماء؟ طبعاً المسيحي. فالجار الدرزيّ أولَى بقتل جاره المسيحي. لقد انقلبَ الدروز بين لحظةٍ وأخرى من جيرانٍ محبِّين وأصدقاء مخلصِين وإخوة متضامِنين إلى ذئابٍ ضارية تفنَّنتْ في القتل والتشويه والتشنيع.

فـ «نزيه سليمان سَميا غدر به جارُه بطلقةٍ من سلاح الصيد.

«وطانيوس كيوان كان يتناول العشاء عندما ترصّده جارُه وأطلق عليه النار.

«ومريم كيوان زوجةُ شاكر ناهض (٩٠ سنة) جرَّها جيرانُها إلى آخِر البلدة، وقتلَها أحدُهم بالفأس.

«وأمِلين كيوان، زوجة راجي نعوم كيوان، قُتلت بالفأسِ أيضاً»[١٥].

* وفي بريح، إثر مقتل طبيبٍ مسيحيٍّ شابٍّ على حاجز الردع السوري، جرت في ١٩٧٧/٨/٢١ جنازةٌ حافلةٌ للمغدور، شاركَ فيها «الشباب الدروز قبل المسيحيِّين. وكانت النساء، ومنهنّ درزيّات، يَنثرْنَ عليه (على الجثمان) الزهور في الطريق إلى منزله. وفي المنزل كان مشايخٌ دروز منتظرِين، فقدّموا التعازي، ووُضعتِ الأكاليلُ العديدةُ على حائط المنزل. وبعد دقائق لاحظنا أنّ جميع الدروز، مشايخ وشباب ونساء

---

(١٥) المرجع السابق نفسه.

ينسحبون.. قُطع التيّار الكهربائي (عن الكنيسة وقت الجنازة)، فكان علامةً بين الدروز لبدء الهجوم»[١٦]، فكان الهجوم الأخويّ. وكانت المذبحة الوحشيّة، في قلب الكنيسة.

* وفي مزرعة الشوف، في ١٧/٣/١٩٧٧، سمع شاهدُ العيان درزيًا يقول للمسيحيِّين إثر مقتل كمال جنبلاط، «سأحميكم وأعود بعد ربع ساعة». اطمأنّ المسيحيّون لكلام صديقِهم وجارِهم. لكنّه لمّا عاد كان معه سلاحه وإخوانه، مدجَّجين بالسكاكين والفؤوس والسواطير، وقاموا بمجزرة أخويّة أسفرت عن أربعة وخمسين قتيلاً.

ويضيف الشاهد: «كلّ هذا والنساء الدروز تزلغط والمسيحيّات تُسحَب من الأرجل إلى السيّارة التي تنقلهنّ تباعاً ليرمين تحت الطريق. وتقول الدرزيّات: «يَلاّ عَا بُوْجَنَبْ. لا توفِّروا حَدَنْ. ولا تشفقوا عا حَدَنْ». ويعلّق الشاهد: «الدرزيّ لا يستبسل إلاّ غادراً».

* وفي الباروك، في ١٦/٣/١٩٧٧، أخبر شهود عيان، منهم فتًى في الخامسة عشرة من عمره نجا من الذبح، وأكّد من دون أن يعرف خطورةَ ما يؤكّد. قال: «إنّي أعرف هؤلاء المسلَّحين. كلُّهم من البلدة». ورجل آخر عمره ٤٥ سنة، لجأ هارباً إلى صديقه الدرزي، فاجأه الدرزي بقوله: «إنّي ألعن الشيطان والساعة التي أوحت لهؤلاء المجرمين بمثل هذا التصرّف». ويعلّق

---

(١٦) شهادة خادم رعيّة بريح الخوري س. ش.

الرجل: «ولكن، عندما دخلنا إلى بيته رأينا على الديوان ثياباً للتنكّر، تدلّ على أنّه كان من جملة الذين هاجمونا».

ومن المعروف أنّ عائلاتٍ مسيحيّة برمّتها، معظمها من المسنّين والأطفال والنساء، قضت ذبحاً على أيدي جيرانهم وأصدقائهم وأحبّائهم بني معروف. وأشخاص آخرون كانوا في مقاهي الباروك والصفا، ذبحهم ندماؤهم الدروز، عندما سمعوا من على جهاز الراديو بمقتلِ زعيمهم كمال جنبلاط. ذبحوهم بسكاكين الطعام، وسكِروا بدمائهم مع الخمرة وكاسات العرق.. فهل غيرالدرزيّ يذبح نديمه ورفيقه على طاولة الطعام؟!

* وفي معاصر الشوف هناك شاهد آخر عمره ٢٣ سنة قال: «جاءني أحد الجيران الدروز، وهمسَ في أذني: نحن أبناء بلدٍ واحد، علينا أن نساعدكم. وصعد معنا في السيّارة. وما أن قطعنا المعاصر حتّى طلب منّي أن أتوقّف قليلاً بحجّة أنّه يودّ اصطحاب أحدِ مسيحيّي الباروك. وهمَّ بالنزول من السيّارة، فعرضت عليه بأن أوصله، فرفض قائلاً: سأذهب ماشياً.

عندئذٍ أحسستُ بحركةٍ غريبة إذ رأيتُه بالمرآة يتحدَّث إلى ثلاثة مسلَّحين، ثمَّ ابتعد عنهم، فلاحظتُ أنّ هؤلاء المسلَّحين في طريقهم لتطويق السيّارة.. فأقلعتُ لتويّ بسرعةٍ جنونيّةٍ، واختبأتُ في منزلٍ قريب. جاءَوا ليسألوا عنّي، وكان بصحبتهم صديقي وزميلي في العمل الذي زرتُه، ولكنّه كان مسلَّحاً وملثَّماً. ولم أكن أتصوّر بأنّه صاحبي.. وأمّا الذين كانوا يطلقون النار

فكانوا يقضون السهرة في بيتنا منذ ليلَتين، وكنتُ قد أصلحت لهم «مسجّلة». وهم من أصدقائي»[١٧].

٤ – أيضا وأيضًا

في تشرين الثاني سنة ١٩٨٢ جرت في كفرنبرخ حادثةٌ مذهلة: توفّي شيخ كبير السنّ من مسيحيّي كفرنبرخ، وشاء أنسباؤه دفْنَه في مأتمٍ بسيط، نظراً لمكائدَ أُعلِموا بها. فعلم مشايخ الدروز، من البلدة نفسِها، واعترضوا قائلين: إنّ الميتَ هو كبيرنا، ومن وجهاء بلدتنا، وهو يخصُّنا كما يخصُّكم، فيجب أن ندفنه دفنةً تليق بمقامه وكبره. فاطمأنَّ المسيحيّون، كعادتهم وعادة أجدادهم وعادة مَن سيأتون بعدَهم، وجهَّزوا للميتِ ما يليق بكرامته وشيخوخته، وشاركهم الدروز، ودخلوا معاً إلى صلاة الجنازة في الكنيسة.

وقبل نهاية الصلاة بقليل، انسحب الدروز جميعُهم، وخرج المسيحيُّون، وهم لا يدرون شيئاً، باتّجاه المدافن لوداع كبيرهم. وللحال أطبق الدروز عليهم، وقد اختبأوا وراء المقابر، وقتلوا منهم خمسة عشر شخصاً.

وهكذا، ومرّة أخرى، وقع المسيحيّون، وسيقعون لا محالة، بما وقع به أجدادهم من حيل المكر والغدر الدرزيّة.

وجاءت العدالة واستنطقتِ الشهود والحاضرين، فعُرف

---

(١٧) أنظر في كل هذه التحقيقات مجلة الشباب المسيحي ومكتب الجبل...

أنّ من بين ٧٦ مسلّحاً درزيّا نفّذوا الجريمة كان ٧٢ درزيّا من كفرنبرخ نفسها[١٨].

نسأل: أليس بين الغادرين صديق واحد لأولئك المغدورين؟! ولكن ما هو مفهوم الصداقة عند الدرزيّ؟! لقد أجابتْ مجلّة فرنسية على هذا السؤال تقول: «أمّا في الشوف فأبطال المجازر كانوا الجيران والأصدقاء والإخوة، كما كانوا يلقّبون بعضهم بعضا بعد سنين وسنين من العيش المشترك»[١٩].

* مجزرة الشبانيّة في ١٢/٢/١٩٨٣ أخبرتْ وقائعَها والدةُ المغدورِين، قالت: «في السابعة والنصف مساءالخميس، حضر شيخُ البلدة لـلتأكّد من وجود الشبّان في المنزل، ولدى وصوله نادى ابنَها كَرَم الذي يملك كاراجاً لتصليح السيارات، بحجّة إصلاح سيّارته. وعندما أطلَّ عليه كرم، قال له: أريد إصلاح السيارة، وجئتُ لأطمئنّ إلى وجودك. ولا بأس إنْ أصلحتُها غداً، لأنَّ الشمسَ أوشكتْ أن تغيب. ولكنَّ كرم أبدى استعداده لإصلاح السيَّارة فوراً. ولكنّ الشيخ أظهرَ تردّداً؛ إلاّ أنّه قرَّر التأجيل إلى اليوم التالي. ثمَّ ذهب.

«بعد نصف ساعة تقريباً وصلت ثلاث سيَّارت «جِيب» عسكريّة تقلُّ مسلَّحين إشتراكيِّين (دروز) إلى منزل أنطوان، ونادى أحدُهم عليه. وما كاد يخرج من الباب مستطلعاً حتّى

---

(١٨) أنظر الأنوار، عدد ٧٨٦٨ في ١/١٢/١٩٨٢.

(١٩) نقلاً عن مجلّة «الشباب المسيحي»، آذار – نيسان، ١٩٨٥.

عوجل برشقٍ ناريٍّ أرداه قتيلاً. وخرج شقيقه حبيب، من نافذة أخرى وبيده سلاحه، فبادروه بالرصاص، وقُتل أيضاً.

« بعدها طوَّقوا المنزل، واقتحموه، واحتجزوا الأمَّ وولدَيها أرز وعيد. وقد صرخ أحدهم بالأمِّ لتُدير ظهرَها إلى الحائط، فيما انسحب رفاقُه ومعهم أرز وعيد. وهنا صرخت به الأمّ: عرفتُك يا شريف طربيه.. يا عيب الشوم، مبارح دفعلك زوجي ١٧ ألف ليرة. هلّق هُويّ في بيروت ليقبضلك بقيّة معاشاتك».. ثمّ عثر فيما بعد على جثّتَي الأخوين أرز وعيد(٢٠).

* أمّا مجزرة بمريم في ٢/ ٩/١٩٨٣ فهي، كما رواها لنا الناجون الثلاثة، كما يلي: قال أحدهم مخايل الأشقر: «الذين قاموا بالمجزرة كنّا نثق بهم، ونخدمهم، ونكرِّمهم، ونتأهّل بهم. فلم نكن نأمل بخداعهم وغدرهم». سُئل مخايل: «هل تلقّيتم إنذاراً قبل حدوث المجزرة؟ أجاب: لا لم نتلقَّ أيَّ إنذار. فقد دخلوا علينا بكلِّ لياقة وتهذيب»(٢١).

وروى بسّام (١٤عاما)، الناجي الثاني: «كان هناك ثلاثة مسلَّحين من الضيعة.. كلّهم دروز». عرفهم بسّام وهو مختبئ مع أخيه الصغير في قناة مياه، تعرّف عليهم من أصواتهم، فعرفهم بأسمائهم(٢٢).

---

(٢٠) العمل، ١٣/ ٢/ ١٩٨٣، عدد ١١٢٨٦.
(٢١) البيرق، ٣/ ٩/ ١٩٨٣.
(٢٢) النهار، ٣/ ٩/ ١٩٨٣.

وفي صحف اليوم التالي صدر تكذيب من الحزب الإشتراكي الدرزي ينفي حدوث مجزرة في بمريم.

***

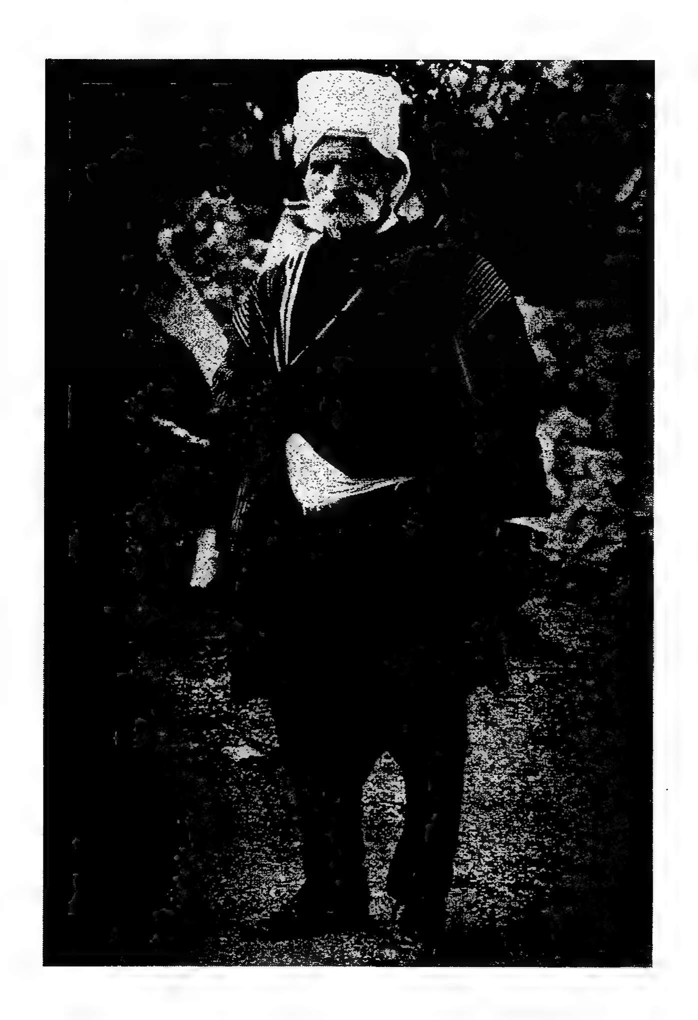
هذا غيض من فيض ممّا حدث في سنوات المحنة. وكم من جرائم وإبادات جماعيّة حصلت في الجبل والشوف وعاليه وغيرها طُمستْ إذ لم يبق من شهودها مخبر.

فعلى خصوم الدروز السياسيّين أن يتفهّموا في عملهم السياسي هذه الحقيقة، وقد عبّرت عنها أمثال شعبيّة قديمة تقول: «تَعَشَّ عند الدرزي ونَمْ عند النصراني». أو: «لا صديق للدرزي». أو أيضاً: «ألدرزي يغدر بصديقه»، و«الدرزيّ غدّار»، إلخ.. أمّا «الحكمة» في قتل الصديق والجار فقد عبّر عنها شاب درزي اعتدى عل فتاة درزيّة وراح هارباً من ملاحقة أهلها، فخلّصه رجلٌ مسيحيّ. وعندما اطمأن الدرزيّ ونجا، استلَّ خنجرَه وطعن به الذي خلّصه. فصرخ به هذا: "يا صاح! أوَهكذا يكون جزاء الإحسان؟!". أجاب الشاب: "نعم. لقد أحسنتَ إليَّ. وهأنذا أردُّ لكِ الجميل". ولم يفهم ذاك المسيحيّ، ولا المسيحيّون من بعده، كيف يكون الغدرُ جزاءَ الإحسان!.. هذا أمرٌ غريبٌ كلَّ الغرابة، ولكن على مَن لا يدرك كنه العقيدة الدرزيّة.

إنّ كلَّ من يصنع مع الدرزي خيراً، يعني أنَّ نفسَه، في الأصل، كانت درزيّة. ولشرٍّ ما، تقمّصتْ في جسدِ مسيحيٍّ كافر. وعندما تصنع الخير مع أحدِ الدروز، يعني أنّها كفَّرتْ عن شرِّها،

ويجب أن تعـود إلى الجـمـاعـة الدرزيّة، أهل الحقّ والصـيـانة. والدرزيٌّ الذي يعملُ على عـودتها سريعاً، يساهم في سـعادتها. وله على ذلك أجرُ السماء.

لمن الصعب أن يعقل الإنسان العادي هـــذا المنطق؟ ولكن هذه هي إحدى نتائـج عقيدة التقـمّص عند الدروز. ولا يظنَّنَّ أحدٌ بأنَّ الدروز، في صنيعهم هذا، يأتون سوءًا. فهم إنَّما يستجيبون لأوامر الدِّين.



الدرس الحادي عشر

امرأة وحش

«ألستّ نايفة جنبلاط»، شقيقة سعيد بيك جنبلاط، ووكيلته في منطقة وادي التيم. شهيرة، مُطاعة، محترَمة عند بني جنسها. تزوّجتْ من عائلة شمس ذات النفوذ الواسع. وترمّلتْ في الثلاثين من عمرها، فانصرفتْ للأعمال الدرزيّة بكلٍّ اندفاع.

قد لا يكون لهذه المرأة، في التاريخ، نظير. وقد لا يستطيع خيالٌ يتصوّر ما استنبطتْ هذه المرأة من جرائم وشرور نفّذتْها تباعاً على مدى حياتها. إنّها امرأةٌ تداعبُ الموتَ فعلاً، تتلهّى بالجريمة، تسامر الجزّارين، تضاحك الدماء، تطرب لمرأى الدموع المنهمرة من عيون الأطفال والنساء... إنّها امرأةٌ يحتقن صدرُها بالحقد والثأر والانتقام وأنواع الإجرام.. عنها نسأل: أهيَ امرأةٌ في وحشٍ؟ أم وحشٌ في امرأة؟

ألستّ نايفة، درزيّة جنبلاطيّة، لها في التاريخ الدرزي القديم قدوتان: «ستّ الملك»، و «صالحة». الأولى شقيقة الحاكم الإله المعبود، قتلتْ أخاها، ثمّ قتلتْ الذين قتلوه، بعد أن قطعوا

رأسه وجاؤوها به على طبق. والثانية صالحة بنت أبي جمعة التي تآمرت على قتل أبيها «اللّعين»[(١)].

إلاّ أنّ الستّ نايفة تفوّقت، بدهائها وبطشها، على الاثنتين. بل لمع اسمُها وحيداً في تاريخ المرأة الدرزيّة. وقد أجمع المورّخون على تدوين مآثرها الدمويّة. وما ذكروه لنا منها يكفي للتعرّف عليها. وحتى المؤرّخون الدروز، أو أصدقاء الدروز، لم يبخلوا بتعداد غرائبها.

يقول تشرشل: قبيل مجزرة سراي حاصبيًّا التي راح ضحيّتها ثماني مائة مسيحي ذبحاً، جاء علي بك حمادي، وكيل سعيد جنبلاط على أرزاقه في البقاع الغربي، مع إسمعيل بك الأطرش، زعيم برابرة حوران، يسألان الستّ نايفة، قبل أن تنفّذ المجزرة. وفي سؤالهما، رغم شهرتهما بالإجرام، بعض الشفقة. قالا: «وهل أنَّ كلَّ المسيحيِّين سيذبحون؟! فكّري بعائلاتهم وأراملهم، وأطفالهم الأيتام. ترَفَّقي. إشفقي على هؤلاء الشبّان الغلمان. إعفي عن الباقين»

أمّا الستّ نايفة لم تفاجئ أحدا بالجواب: «غير ممكن. غير ممكن.. لن يُترَكَ مسيحيٌّ حيًا من سن سبعة إلى سبعين سنة»[(٢)].

---

(١) عن ستّ الملك، أنظر كتاب «بين العقل والنبي»، ص ٧١ – ٧٣؛ وعن صالحة، مقدّمة رسالة ٤٨ ص ٣٥٧، والدرر المضيّه..

(٢) تشرشل، ص ٩٠ من الترجمة العربيّة، و ١٦٩ من الأصل الإنكليزي.

والحادثة نفسها يرويها لنا كتاب «مذبحة الجبل». يقول «بعض العقلاء.. قبّلوا أقدام الستّ نايفة، ورجوها أن تقتصّ من المعتدين، وتعفو عن الأبرياء المساكين. فكانت تقول لهم: لا بدّ من ذبح الجميع، لأنّ أخي سعيد بك يأمر بقتْل كلّ نصراني عمره من سبعة إلى سبعة وسبعين»(٣).

نُفِّذتْ أوامرُ الستّ. حدثتِ المجزرة، فـ «جاءت الستُّ نايفة، على ما يروي تشرشل، ودخلتِ السراي، بعد مغيبِ الشمس بساعة. وكان الظلام دامساً. فطلبتْ قنديلاً. ولمّا أُحضر لها أمرت بأن يُحمل أمامها. وأخذتْ، لمدّة طويلة، تسرِّح نظرَها بهذا المنظر المريع. ثمّ قالت: لقد أحسنتم أيُّها الدروز الأمناء. هذا ما كنتُ أنتظرُه منكم»(٤).

ويضيف كتاب «مذبحة الجبل» وَصْفًا فيقول: «وكانت الفاجرة المتوحِّشة، حين حضورها إلى السراي، تبتسم وتضحك وتهنِّئ رجالَها الدروز على ما أتمّوا من العظائم»(٥).

***

يكفي. ويكفينا عن هذه المرأة المتوحشة هذه الصورة. وأيّة صورة إضافيّة توضيحيّة تشوِّه الحقيقة الواضحة بذاتها. لكنّنا نسأل: إذا كان هذا شأن الزعيمة الدرزيّة، فما شأن سائر النساء

---

(٣) مذبحة الجبل، ص ١٥٢.

(٤) تشرشل، ص ٩١ – ٩٢ من الترجمة، و ١٧٣ من الأصل الإنكليزي.

(٥) مذبحة الجبل، ص ١٥٦.

الدرزيّات إذاً؟! يجمع المؤرّخون لأحداث القرن الفائت بأنّ النساء الدرزيّات كلّهنّ كنّ يتبعْنَ الرجال في جولاتهم الثأريّة لينهبن المنازل، ويحرقن المزارع، ويستولون على ما يقعون عليه من مغانم. وهذه مهمّة عريقة في تاريخ البدو. لم يبتكرها الدروز. ولكنّهم برعوا فيها وأبدعوا.

***

وأمّا عن احترام الدروز للنساء المسيحيّات فشيء تباهى به بنو معروف كثيراً، واعتبروا أنفسهم في قمّة الخلقيّة والتعفّف. ولقد ورد ذكر ذلك عند كثير من المؤرّخين.

هذا ما كان في الظاهر. أمّا سرّاً فقد أباحوا الحرام، واغتصبوا النساء والفتيات، وعرّوهنّ من ثيابهنّ، وذبحوا أطفالَهنّ بين أذرعهنّ، وقتلوا رجالَهنّ في أحضانهنّ. و «اذا أرادتْ إحداهنّ أنْ تخلّصَ مَن تُحبُّه كانت تُقطَّع تَقطيعاً. ومع هذا فكثير من الأمّهات كنّ ينحنين ويحتضنّ أولادَهنّ، فتضمُّه الواحدة منهنّ إلى صدرها محاولةً أن تخفيه في ردائها.. وعندما تُكشف قابضةً عليه بجنون، وتقاوِم مقاومةً تَستطيعها الأمّهاتُ فقط، كان السيفُ وحدَه القادرَ على حلِّ ذلك الانضمام وتفكيكِ تلك القبضة الشديدة. والأمُّ والولد كانا يَقضيان من ذلك الجرح القاتل وتمتزج دماؤهما معاً»[٦].

---

(٦) تشرشل، ص ٩١ من الترجمة، في كلامه على مجزرة حاصبيّا.

ويأتينا التعليق على ذلك من «بوجولا». يقول:

«لقد قيل الكثير من نوعٍ من احترامِ الدروز للنساء في المذابح الأخيرة. وقيل أيضاً بأنّ هناك نوعاً من «البطولة في الأخلاق عند الدروز». نأسف لهذا الضلال: هذه الأخلاق لا توجَد. وإذا ما وُجدت فظاهراً. إنّنا نعلم اليوم بأنّ الدروز لم يحترموا النساءَ إلاّ في الظاهر. أمّا في السرِّ فاغتصبوهنّ. والواقع ينزع عنهم هذا القناع، قناعَ احترامِهم للنساء، وها هم يظهرون لنا في قباحتهم الخلقيّة.

«.. لا أستطيع أن أفكِّر بأنَّ تعريةَ الأمّهات والفتيات من ثيابهنَّ، وإرسالَهنَّ في الحقول عاريات يمتْنَ من الخجل، ومن الجوع، إحتراماً ما. وهذا ما صنعه الدروز.

«فليكفّ، إذن، هؤلاء الذين يَجدون عند الدروز صفةً ممكنة، ليس لهم منها شيء. لقد أظهروا، في الأحداث الأخيرة، ما هم عليه في الحقيقة»(٧).

... أمّا بعض الإحجام عن الاغتصاب فمردُّه، لا إلى سموٍّ في الأخلاق، بل إلى محظورٍ ديني. ذاك أنّ المرأة التي تحمل من درزيٍّ تضع مولودا درزيًا خارج الجماعة الدرزيّة. وهذا حرام. تماماً كالحرام المفروض على إفشاء سرِّ الحكمة بعد أن أُغلِقتْ أبوابُ الدعوة الدرزيّة.

---

(٧) Poujoulat, p. 341 - 342.

الدرس الثاني عشر

أربابُ الفنِّ في التمثيل

أ - من تعاليم حمزة

في عمق النفس الدرزيّة مـيلٌ جامح إلى «التمـثيل». ولا بدّ من أن يبرع الدرزيُّ في هذا الفنّ بلوغاً إلى مـا يصبو إليه من ثأرٍ وانتـقـام. و«الحكمـة» نفسـُهـا لم توفّـرْ أيَّ أسلوبٍ للوصـول بأصحـابها إلى هذا الهدف. و«قـائم الزمان» ذاتُه دعـا إلى شتَّى أساليبِ اللّعن والقـتل والذبح والسحل والقطع والصلب والسلب والاغتصاب والحريق والغريق وما إلى ذلك. وله الأمر والكلام :

«قد أمَرَ (قائم الزمـان) بلَعنَةِ الظالم الجائر، ثم هَدْرِ دِمَاهم في جميع الأقطار، وأمَرَ بقتلِهِم وسَـحْبِهم في المحافل والأسواق. وكتب بلَعنِهم، وَقَطْعِ شأفتهم سجلاّت مفتوحات.. وأمَر بصلْبِهِم على الطرق والشوارع، ولعنِهـم في المحافل والجوامع، واستَـباحَ حريمَهم وأولادَهم وأمـوالَهم، بعد تَغْرِيقِ مَن أغـرق، وإلهاب من أَلْهب وأحْرَق»[١].

(١) رسالة ٥١ / ٣٧٢ - ٣٧٥ وبخاصة ص ٣٧٤..

تكفينا هذه الفقرة لتكشف لنا أخلاقَ قائم الزمان. بيد أنّه، لبلوغ هذه المآرب وتوفير الفرص لها، كان لا بدّ من التستّر بألوان اللّياقات وكلِّ مظاهرِ اللطف والوداعة ومعسول الكلام.

وفي «الحكمة» أيضاً فقراتٌ أخرى من تعاليم الموحِّدين وصلواتهم لتكتمل الصورة في أذهاننا. تقول: «.. لِحدود وليٍّ الأمرِ والحقِّ (حمزة)، أَلقَطْعُ والوَصْلُ والكَسْرُ والجَبْرُ وفَكُّ الرِّقاب»[٢]. وتقول أيضًا: «فاللّه يجعل النَّكَثَة أعداءَ الدِّين حَصيدًا لسيوفِ أوليائه (الموحِّدين).. وقطع لسان المخالف الجائر الظالم»[٣]. وتقول أيضاً: «أَللَّهمَّ!.. اجعل دائرة السوء على مَن شنَّع أهل الحقِّ بالباطل لعنًا وخزيًا واجتثاثًا وتشتيتاً»[٤]. وأيضاً: «فاللّه يعجِّل استئصالَهم واجتثاثَ أصولِهم، ويمنعهم الرحمة»[٥].

فالقطع والكسر والصلب والسحب والحريق والغريق والنهب واستباحة الحريم والنشر والاجتثاث والتهجير والتشتيت والتدمير... صفات إلهيّة تدعو إليها «الحكمة» الدرزيّة وينفِّذها الحدودُ الروحانيّون، المُثُلُ العليا لجميع الموحِّدين الدروز.

---

(٢) رسالة ١١٠/ ٨٣٩.

(٣) رسالة ١٠٩/ ٨٣٦.

(٤) رسالة ١٠٤/ ٨١٤.

(٥) رسالة ١٠٣/ ٨٠٨

٢ - أبناء «الحكمة» البررة

لن نكون مبالغين في القول أو مُعْتَدِين على كرامة الدروز إذا اعتبرنا قاعدة الحرب عند بني معروف تقوم على القتل والذبح والكسر والنشر والتعذيب والقطع وانتهاك الأعراض واغتصاب النساء وسبي الفتيات وقتل الأطفال وإحراق المنازل وتدمير القرى وجرف البيوت وتهديم المحافل والجوامع وأمكنة العبادة وما شابه... وحديثًا جدًّا قال وليد جنبلاط: «ليس عندنا مخطوفون لنردَّهم إلى ذويهم. لقد قتلناهم جميعَهم».

ولكن، كيف يقتل الدرزي عدوَّه؟ هذا هو السؤال.

وجوابنا على هذا السؤال من حوادث التاريخ المتكرّرة فهي خير شاهد على تعاليم «الحكمة وموجباتها و«أوامر قائم الزمان». مئات الوثائق، عربيّة وأجنبيّة، درزيّة وغير درزيّة، وصفَتْ ما وصفتْ بموضوعيّةٍ وصدق، وكشفتْ لنا عن حقائق يقف أمامها الإنسان مدهوشاً. ولو لم نر ونسمع ما حدث على أيدي بني معروف لما استطاع خيالٌ مهما جمح تأليفَ صورةٍ واحدة عمّا حدث. ألواقع هذه المرّة أغنى من الخيال وأدهش.

ألدروز أنفسهم يشهدون على ما صنعوا من ذبح واجتثاث. والوثيقة الوحيدة الباقية من أيديهم لم تتورّع عن وصف ما صنعوه في جيش إبراهيم باشا سنة ١٨٣٢. تقول: «لمّا دخل إبراهيم باشا راشيًّا، و«وضع طابوراً من جنده في تلك القصبة لأجل المحافظة عليها وما يليها من النواحي، ومضى

متغلغلا في البـلاد. فهجم الدروز على ذلك الطابور، وَذَبَحُوهُ عن بكرة أبيه»[٦].

وعمّا حدث في اللجاة (حوران) تقول الوثيقة نفسها: «ولمّا كـان اليوم الثـاني صابَحـهم الدروز (لجنود إبراهيم باشـا) في تيهِهم، فـجعلوا يلتقطون منهم الزرافات والـوحدان، وَيذْبَحُونَهُم ذَبْحَ السَّوَام.. فكانت مذبحةٌ هائلة.. بضعة عشر ألفاً»[٧].

وفي بداية أحـداث سنة ١٨٤٢ تكشف الوثيقـةُ ما صنـعه الدروز بمسـيحـيّي بعذران: «في صـبـاح اليوم الثـاني اجتـمع الدروز.. فصعدت سَـرِيَّةٌ منهم إلى بعذران لإذلال بني القهوجي ومَن معـهم من النصارى المحاصَرين في سـراي آل جنبلاط.. لمّا فُتحـتْ أبوابُ السراي انقضُّوا عليـهم، وحذا حذوَهم بضعـةُ نفرٍ من ذوي الضغائن والأحقاد على القهوجيِّين وَذَبحُوا منهم أربعين رجلاً»[٨].

وفي «عين الثـغرة الواقعـة فوق جـزِّين عند مطلّ قيـتولي عثروا (الدروز) على ا لأمير حسن أسعد شـهاب فَذَبحُوه»[٩].

فالدروز أنفـسـهم، إذاً، يقرّون ويعـترفون بعـمليّات الذبح والابادة. وليس اعـترافـهم هذا إلاّ نوعاِ من الافـتخـار وشـهـادة

---

(٦) الحركات في لبنان، ص ١٩.
(٧) المرجع نفسه، ص ٢١.
(٨) المرجع نفسه، ص ٥٧.
(٩) المرجع نفسه، ص ٥٧.

بطولة، كونهم أخلصوا لتعاليم «الحكمة» و «لأوامر قائم الزمان»، وساروا على خطى الإله الحاكم المعبود.

وفي سنة ١٨٦٠، لمّا دخل الدروز سراي حاصبيّا، تقول الوثيقة الدرزيّة: «أعمَلوا في المحاصرين السيوفَ والخناجرَ ذابحينَ ثلاثةً وعشرينَ من الأمراء.. وذَبَحُوا من النصارى ستمائة رجل. ثمَّ أعمَلوا في السراي والبلدة أيدي السَلْب والابتزاز، وانقلبوا ظافرين غَانمين غنائمَ جزيلة»(١٠).

والكولونيل تشرشل، ألمحسوب على الدروز، يصف ما حدث في سراي حاصبيّا. يقول: «لمّا فتح الأتراكُ أبوابَ السرايا، صعدوا إلى الممرَّات والسطوح حيث صفُّوا أنفسهم كمتفرِّجين في تِيَاتْرُو، منتظرين مشهدًا عظيماً. وعند ذاك ابتدأتِ المَذْبَحَة. فأطلقَ الدروز من أماكنهم رشَقًا عامًا، ووثبوا على المسيحيِّين باليَطَقَانات والفؤوس. وكان أوَّلَ ضحيَّةٍ يوسف ريِّس كاتمُ سرِّ الأمير سعد الدِّين.. أُمسِكَ وقُطع إرباً إرباً، مبتدئين بأصابع يَدَيه ورجلَيه. والأمير سعد الدين قُطِعَ رأسُه، وأُرسلَ تَذْكَارًا حربيًا إلى سعيد بك جنبلاط»(١١).

وفي «كتاب الأحزان» خبرٌ عن شيخٍ درزيٍّ غيور من قرية «عاهرة» في منطقة اللّجاة –حوران، وهو الشيخ حَمَد عزَّام «الذي انعرف عنه حين وقوع الذَبح بالنصاره يجول هائماً مفتِّشاً

---

(١٠) ألحركات في لبنان، ص ١١٩.

(١١) تشرشل، ص ٩١ من الترجمة العربيّة.

على آخَرين ليذبَحَهم وليَشـرَبَ من دمائِهم. ونظيرُ وحشِ الصَّيدِ لا يقنع حتَّى يُخرجَ قَلْبَ الرجلِ المسيحيّ وَيأكلَ منه»[١٢].

وخلال الذبح كانت «جماعـة الدروز يصرخون بأصواتهم الخشنة الشيطانيّة: يَا مَاحْلا ذَبْحِ النَّصَارَه»[١٣].

وفي رواية الأب روسُّو اليسـوعي عن مـذابح جزِّين مـا يلي: «إنّ جمهوراً غـفيراً من المسيحيِّين لاذوا، بعـد خرابِ مدنهم وقراهم، بالكهـوفِ والغابات. فطاف الدروزُ الجبالَ، مـصحوبِين بكلابٍ لاكـتشافِ مـخبـأهم، فعثـروا على مائة في مـكانٍ واحد، فقيَّدوا أيدِيَهم وراءَ ظهورهم لقتلِهـم بعد تعذيبِهم، فكانوا يبترون أذرعَ البـعضِ وأيدي الآخرين، ويَـقطعون لحـمـانَهم، ويَفقـأون أعينَهم، أو يحرقونهم أحياء»[١٤].

وفي تقريرٍ رفعه الفِيْس–قنصل أبِيلاً إلى القنصل مُورْ عن حادثة جرت في قرية بتـدِّين اللّقش ما يلي: «روت لي امرأتان أنَّ الدروزَ ربطوا امرأةً من بتدِّين اللّقش لم تستطع اعطاءَهم الأموالَ التي طلبوها منها بِذَنَبِ بَغل. فجرُّوها، وأخذَ (البغل) يركضُ بها، ويرفـسُـهـا إلى أن مـاتت. وهؤلاء الدروز الرعـاع هم من قـرية مزرعة الشوف»[١٥].

---

(١٢) كتاب الأحزان (مخطوط جبيل)، ص ٧.

(١٣) ألمرجع نفسه، ص ٣٠.

(١٤) ألمحرّرات السياسيّة، ٢/ ١٢٤. في ٤ تموز ١٨٦٠.

(١٥) ألمرجع نفسه، ٢/ ٢٧٩. في ١٣ آب ١٨٦٠.

ومن أبِيلاً نفسِه خبرٌ عن امرأةٍ من قـرية المحتقرة، شمالي شرقي صيـدا، يقول فيه: «أتشرَّف فـأُنبئكم بأنَّ امرأةً مسيـحيّةً من قرية المـحتقـرة كانت قد لجـأت إلى صيـدا، ذهبتِ اليوم مع ابنتها إلى الطاحون الواقع على نهر الأوَّلي لطحن بعض الحبوب. وعند عودتـهما ووصـولهمـا إلى الجسـر، هجم عليهـما درزيّ، ونهب ما كان معهما من الدقيق، وعـرَّاهما من ثيابهما مُنزلاً بهما أقبح الشتائم»(١٦).

ومن مبتكرات الدروز في الجـرائم ما حدث في زحلة، على ما روى لنا «لونورمان». يقول: «أحـدُ الكهنة الفرنسيّين هو الأب بيوتـيه Billotet ذُبِح في كـرسيٍّ الاعـتراف وهـو يعطي الحلَّة لبـعض منكودي الحظّ الذيـن كانوا يـستـعـدّون للمـوت. والأخ مقـصود صُرع أمـام بيتِ القربان القائم علـى المذبح وهو يدافع عن القربان المقدَّس الذي ازدُري به بَعد موته.. وأخيراً ابتدَع أحدُ المسلّحين الذين انضمّوا إلـى الدروز في هذه الفترة نوعاً جديداً من انتهـاك حرمـة المقدَّسـات بأن اعتدَى على امـرأةٍ على طاولة المذبح نفسِها»(١٧).

٣ - دير القمر «ساحة الإبادة البشريّة»

أمّا أحداث دير القمر فقد فاقت كلَّ تصوُّر معقول. والوثيقة الدرزيُّة نفسُها استعظمتْ ما صنعه الدروز العاقلون في سكّانها.

---

(١٦) المرجع نفسه، ٢/ ٢٨٠. في ١٤ آب.

(١٧) الأحداث الطائفيّة، ص ٧٣ من الترجمة، و ٧١ من الأصل.

قالت: «زحَف الدروز على دير القمر، وأجرَوا ما أجرَوه ممّا يسمّى ذَبْحَة الدير.. لم يسبق لها نظير في تاريخ لبنان. وإنّ قلمي ليأنف عن تسطير ماجريات مَعْمَعَة مثلِها لولا ما يضطرّه إلى ذلك استقصاء الحقائق التاريخيّة»[١٨].

إلاّ أنّ ما أَنِفَ القلمُ الدرزيُّ عن تسطيره، لم يقصِّر في تدبيجه بدقّةٍ وصراحةٍ مؤرِّخون آخَرون وشهودُ عيان. وإليكم ما قال مندوب فرنسا بِيْكَلار في صكِّ الجلسة التاسعة في ٣٠/١١/١٨٦٠: «إنّ فواجع دير القمر.. لا يمكن أن تُدعى حرب أهليّة. بل هي مَجَازر»[١٩]. وبالمعنى نفسه قال مندوب روسيا نُوفِكُوف: «إنّه لا يمكن إطلاق اسم حرب أهليّة على الفظائع التي اجترحها الدروز.. وقد دفعهم الظمأ إلى سفك الدماء والنهب. فيجب إحصاء مقترفيها في مصافِّ الجناة»[٢٠].

ماذا حدث في دير القمر؟

بعد ثلاثة أشهر ونيِّف دخل الجنرال الفرنسي دو بوتْفُور مع جنودِه ديرَ القمر، وكان الكاتب «لُويهْ» Louet معهم، وراح يصف لنا هول ما رأى من بقايا المذبحة، «حتّى إنّ الأحصنة امتنعتْ من التقدّم بين بقايا المجزرة». يقول: «نزلنا على أبواب السرايا، وعندما دخلنا أعتابها، نقصتْنا الشجاعة. هنا حدثت

---

(١٨) ألحركات في لبنان، ص ١٣٠.

(١٩) ألمحرّرات السياسيّة، ٣/٣٣.

(٢٠) ألمرجع نفسه.

المجزرة الكبرى. وكلّ ما وصفتْه لنا الصحف آنذاك كان أدنى من الواقع الشنيع: مستنقعات الدماء في كلّ مكان. ألجثث أينما كان. بقايا الأجساد البشريّة منتشرة في أيّ مكان. ألرؤوس مفصولة عن أجسادها. هنا وهناك أسلحة محطّمة في ساحة الإبادة البشريّة.

«إنّ المخيِّلة الأكثر تصوّراً لعمليّة الدم لا تستطيع وصفَ مشهدٍ مثيلٍ بما نرى في سرايا دير القمر. ففي القاعات السفلى جثثٌ مكدَّسة بعضها فوق بعض. بعضها لا يزال في موقف الدفاع عن النفس ضدَّ الجزَّارين. وبعضها يختبئ بالقرب من حائطٍ لينجو من ضربةٍ قاتلة.. وخارج السرايا، وعلى أقدم جدار، كدسةٌ من الأيدي المقطّعة تقدّم لنا سرَّ التعذيب الذي اخترعه الجزَّارون: إنّهم أجبروا ضحاياهم بتمريرِ أيديهم عبرَ ثقبٍ في الحائط. وبعضُ الدروز من الجهة الثانية، تستهويهم لعبةُ تقطيعِ الأيدي التي تبرز.. ثمّ يُنهي دروزُ الجهة الأولى حياةَ المساكين بضربةِ سيفٍ قاطعة..

«في إحدى الكنائس، في أسفل المدينة، وجدنا أكثرَ من ستّين جثّةَ وَلَدٍ، من خمسٍ إلى ثماني سنوات»[٢١].

ويصف «لونُورْمَان»، بدوره، مجزرة دير القمر، فيقول: «في الوقت الذي كان البرابرة يَنهبون بالمدينة بدأوا يقتلون الذين وجدوهم في المنازل من رجالٍ ونساءٍ وأطفال، قاطعين الأطفالَ

---

(٢١) Louet, p. 205.

إرباً، وهم على أذرعِ أمَّـهـاتهم، وذابحين الأزواج أمـام نسـائهم، ومنتـهكين شَرَفَ هؤلاء النسـاء، ومـحرقـينهنَّ، وهنَّ على قيـد الحياة. إنّه يوم هائل.. علا فيـه صراخ النساء والأطفال حتَّى بلغ عنان السمـاء، وركضَ النسوة في كلّ صوب مـشعثاتِ الشـعور وشبـهَ عاريات.. وأولئك اللّواتي كنّ منهنّ حـوامل كانت بطونُهنَّ تُبقَـرُ بضربةِ فـأسٍ، أو طعنةِ سيفٍ، ثمّ تُنتـزع ثمرةُ أحـشائهنّ، وتُهرس على الأسـوار..

«وبدأت هذه المجـزرة عـلى النحـو الذي سنـرويه : قُطعت أصـابعُ البـعض إذ كـان يُقـال لهم إنّ أصـابعَـهم سـوفَ تَكتبُ وحـدَها. وآخـرون صُبَّ الماءُ على رؤوسـهـم مع القـول لهم إنّ شعورَهم الطويـلة، باعتبارهم مسـيحيِّين، تستوجـبُ حلقها.. ثمّ كانت تُقطع رؤوسـهم. وغيرهم ذُبحوا مع نسائهم كالخراف.

«وقد ارتمت امرأةٌ ذاتُ ولدٍ وحيـدٍ يُدعى حبيب على ركاب القتلة، ضارعة إليهم أن يُبقوا لها على ولدها، فقتلوه على ركبتها.

«وولدٌ لامرأةٍ أخـرى، عمرُه ستّ سنوات، صاح بأمِّـه، وقد أمسك به الدروز، أن تفـتديه، فأجـابتْه: ليس لديَّ، يا ولدي، غـيرُ حيـاتي أفتديـك بها. فمـا كان من الرجال المـسكين بالولد إلاّ أن شطروه شطرَين ورمَوهما في أحضان أمِّه التي قتلوها مِن بعد.

«وهناك امرأة ثالـثة كان زوجـها يُدعى عبـد اللّه أبو نادر، رأته يُقتل أمامها وأولادَها الثلاثة يُذبحون بين ذراعيها»[٢٢].

---

(٢٢) لونورمون، الأحداث الطائفيّة، ص ٧٤–٧٥ من الترجمة.

«وامرأة مسيحيّة صبيّة، محتبسة في السراي مع زوجها وطفلها، رأتْ في البدء زوجَها يُقتل أمامها. أمّا هي فقد خضعتْ لأحطِّ أنواعِ الجور والامتهان؛ لكن اسمعيل الأطرش لم يجد ما لقيتْه من العذابِ كافياً، فأمر بأخذِ طفلها وتقطيعه إرباً أمام عيني والدته. وأجبرَها على شربِ كأسٍ طافحةٍ من دمِه. وعندها فقط رضي بتجريعها كأسَ الموت»[٢٣].

«وفي جميع النقاط التي امتدّت إليها المذابح، خُصَّ الكهنةُ بأشدِّ أنواع التعذيب التي كانت تتخلّلها السخريّة المقذعة والشتائم.. وحتّى لا أذكر غيرَ مثلٍ واحدٍ أقول: إنّه، في دير القمر، أَمسكَ الدروزُ والمسلمون بكاهنٍ ماروني.. فقطوا أصابعَ يدَيه وأدخلوها في فمه بالقوّة، قائلين له، باستعارةٍ تهكّميّة مثيرةٍ للكلماتِ الذي يلفظها الكاهنُ عند تقديسِه الخبزَ والخمر: «خذْ كلْ. فهذا هو جسدُ ربِّكَ»[٢٤].

٤ – مشاهد من مستشفيات صيدا

دخل الأب روسّو اليسوعي، برفقة السيّدة الرئيسة، بعضَ قاعات الجرحى، في مستشفى صيدا، ورفع تقريراً عن مشاهداته، وأوصى القارئين لتقريره قائلاً: «يجب أن تتسلّحوا بكاملِ شجاعتكم لأنّه ما سوف ترونه يثيرُ المشاعر.

«نبدأ بقاعات النساء، وهي ثلاث قاعات ملأى على التمام:

(٢٣) لونورمان، الأحداث الطائفيّة، ص ٦١–٦٢ من الترجمة.

(٢٤) ألمرجع نفسه، ص ١٤٦ من الترجمة.

هذه امرأةٌ تلقّت ضربةَ يَطَقَانٍ شقّتْ وجهَها بكامله من أُذُنٍ إلى أخرى. وهذه المرأة الثانيةُ قُطعتْ يدُها من المعصم بضربةِ سيف، عندما حاولتِ الدفاعَ عن زوجها الذي قُتل أمامها. وهذه الثالثة أصيبتْ بسبعةِ عياراتٍ ناريّة اخترقَ أحدُها أسفلَ بطنها وثقَبَ أمعاءَها..

«وهذه، في قاعةٍ أخرى، ابنةٌ منكودةٌ قُتل أهلُها، ليستْ جريحةً، لكنّها، بفعلِ ما ساورها من انفعالاتٍ مريرة، وقعتْ فريسةَ حمًّى تيفوئيديَّة عنيفة، ومنذ عدّة أيّام لم يفارقها الهذيان. وعندما دخلتُ القاعةَ وأبصرتْ هي رجلاً انتصبتْ في سريرِها، رغم جهودِ إحدى الراهبات التي حاولتْ إبقاءَها متمدِّدةً، وصرختْ بلهجةِ ارتعادٍ تمزّقُ الفؤاد، ولن أنساها مدى عمري: «الدروز. الدروز الذين جاءوا لقتلي!»».

«وإنّني لأحتاج إلى مجلَّدٍ لأروي كلَّ ما شاهدته في قاعاتِ النساء الثلاث هذه؛ ومع ذلك فبودّي أن أقولَ لكم أيضاً كلماتٍ عن قاعاتِ الرجال التي هي أكثرُ عدداً.

هنا عليَّ أن أعترف بأنّي كنتُ أقلَّ تأثراً. فالمشهد أَلِفْنَاهُ وقَسا قلبُنا بالنسبة إليه. فمَن لم يشاهد، حتى في باريس نفسها مع الأسف، أعمالَ إسعاف وسط حروبنا الأهليّة؟ غير أنّنا، هنا، نجد أنفسَنا حيالَ تفنُّنٍ في القسوة يثير المقت. والجروح المتسبّبة في دير القمر ترتعد لهولها الفرائصُ بنوع خاص. فالسادة المسلمون، عندما يضربون أناساً عزّلاً من السلاح، يجيدون ضرب السيف».

ويكمل الأب روسّو وصف مشاهداته في قاعات المستشفى، فيقول: «هذا شابٌ تعس توجب بتر أحد أطرافه.. وعلى مسافةٍ منه نرى عجوزاً كُسرتْ ذراعاه معاً.. وهذا الآخر حاولوا قطع رأسه فتلقّى ضربةً يَقْطَانٍ على رقبته مسّت فقارَ العنق، وضربةً أخرى من الأمام فتحتْ له حلقَه تماماً. فكيف بقي حيّاً؟ لا أحد يستطيع أن يفهم.. وهذا كُسِرَ فخذاه بطلَقٍ ناريٍّ واحد. وهذا الآخر مفتوح البطن. وفي هذا السرير يرقد فتًى مسكين.. لم يُعرفْ مَن هو ولا مِن أين هو. فقد أحاله الرعبُ أبله»[٢٥].

ثمّ يترك الأب روسّو المستشفى وينزل إلى حيث اللاّجئين في صيدا، ويسمع منهم روايات وروايات في فنِّ التعذيب والتمثيل وعمليّات المطاردة. ثمّ يدوِّن:

«إنَّ امرأةً كانت هاربةً باتِّجاه المدينة مع أولادها الثلاثة، فصادفَها أحدُ الدروز وأجبرَها على الجلوس، ذابحاً أولادَها على ركبتَيها.

«وعلى الطريق ذاتها كان كاهنٌ مارونيٌّ يقود معه خمسةَ أطفالٍ فقطَّعه المسلمون إرباً وفسخوا الأطفال.

«وفي قريةٍ جدٍّ قريبةٍ من صيدا فاجأتْ زمرةٌ من المسلمين والدروز بعضَ المسيحيِّين المنشغلين بدرس قمحِهم، فأحاطت بهم

(٢٥)ترى تقرير الأب روسّو في «لونورمون»، ص ٢٠ وما بعدها، وفي المحرّرات السياسيّة، الجزء الثالث وفي معظم الذين أرّخوا لأحداث لبنان...

وأجبرتْهم على إنجاز عملهم ووضْعِ حبوب الحنطة في الأكياس جاهزةً لأخذها. ثمَّ بعد إنهائهم ذلك، ذبحتْهم دون شفقة»[٢٦].

٥ - الخيال هذه المرّة دون الواقع

ما أنف القلم الدرزي عن تسيطر ما تفنّن به الدروز من أنواع العذابات، أنِف منه القلمُ الغربيّ بلا شكّ. وقد عبَّر عن ذلك الكاتب «لونورمون» بقوله: «إنّ القلم لَيَأنف من وصفِ جميع أعمالِهم البربريّة. ونحن الأوروبيُّون، بأخلاقنا التي لطَّفتْها الحضارةُ المسيحيّة، لا يمكننا تصديقُ حصولِ مثل هذه الفظاعات إلاّ عندما نراها بأمِّ العين»[٢٧].

وفي مكان آخر يقول: «إنّ الخيالَ لَيَرغب في أن يكون له الحقُّ والشكّ بهذا القدر من الفظائع، غير أنَّنا يجب أن نسلِّم بوقائعَ عَلِمْنا بها عِلْمَ اليقين»[٢٨].

ورغم ما جمع الكاتب من فظائع وأهوال، فهو يقرُّ بعجزه عن تدوين جميعِ ما حصل. يقول: «إذا أردنا أن نرى، واحدةً واحدةً، حكاياتِ التعذيب الذي أنزله البرابرة بالمسيحيّين في ذلك الموضع فقد لا تكفينا سنةٌ بكاملها»[٢٩].

(٢٦) لونورمون، ص ٢٦ من الترجمة العربيّة.
(٢٧) لونورمون، ص ٣٠ من الترجمة.
(٢٨) لونورمون، ص ٧٧ من الترجمة.
(٢٩) لونورمون، ص ٧٥ من الترجمة.

إلاّ أنّ الخيال الذي يلملم عادةً صُوَرَهُ من الواقع ويتفوّقُ عليه، يبقى عاجزاً عن تأليف صورٍ مماثلةٍ لما قام به الدروز من تفنُّنٍ في القساوة والتمثيل في التعذيب. وقد تبرِّر الفصول التاليّة هذا العجز. وسنرى «حكمةَ» الدروز في كلٍّ ذلك.



الدرس الخامس عشر

ظاهرةُ الطربِ الدرزي

أ - شريط من الوقائع

هناك ظاهرة خاصّة بالشعوب البدائيّة، هي ظاهرة الطرب والزهو والفرح والرقص والغناء على جثث الموتى. هذه الظاهرة لا تزال متأصّلة عند الدروز حتّى يومنا هذا.

منذ نشأة الدرزيّة ظهر الرقص والغناء فوق جثث القتلى. ففي معركة الاقحوانة، بالقرب من طبريّة، في ١٢ أيّار ١٠٢٩م، أجهزَ الزُّبَيْدِي، وهو درزيّ من رجال الأمير رافع بن أبي الليل، على صالح بن مرداس والي حلب، و«قطع رأسَه، وَعَادَ يَرْقُصُ بِهِ، وأعطاه للأمير رافع»[١].

والغريب المدهش في الأمر أنّ الدروز أنفسَهم سجّلوا على أنفسهم مثلَ حفلاتِ الطرب هذه فوق جثث القتلى. تقول وثيقة درزيّة حديثة جدًّا: على الجثث «انعقدتْ حلقاتُ الحداء والرقص

(١) تاريخ الإنطاكي، ص ٢٥٣. انظر تاريخ الموحِّدين الدروز الذي ينقل عنه.

والأهازيج، وأُطلقتْ عياراتُ النار ابتهاجاً في جميع قرى الجبل ساعاتٍ متواصلة، على حسب عاداتهم وتقاليدهم»[٢].

وفي أحداث القرن الفائت سجّلَ هذه الظاهرة مؤرِّخون شهودُ عيان. وحتّى الأجانب المحسوبون على الدروز توقّفوا على هذه الظاهرة من دون خفرٍ. نذكر منهم «المسترْ غْرَاهام» و «الكولونيل تشرشل». يقول المستر غْرَاهام، بعد زيارته دير القمر، في رسالته إلى القنصل مُور، عن مجازر ١٨٦٠ ما يلي:

«قد مررتُ بدير القمر، فوجدتُ بعضَ البيوت تحترق، وجثثَ القتلى دون دفن. ورأيتُ دروزاً في وسط هذا المشهد المفجع متلثِّمين لئلاً يَشمّوا نتنَ الجثث ينهبون البيوت ويحملون كلَّ ما وجدوا فيها. ولم نتمكّن من التقدّم في المدينة إلاّ بمزيدِ الصعوبة، لأنَّ جثث القتلى كانت مكدَّسة في بعض الأماكن بحيث تعذّر على خيولنا اجتيازُ الطريق. وفي وسط هذه المناظرالتي تقشعرُّ منها الأبدان كان الدروز يَضحكون ويمزحون»[٣].

وفي رسالة أخرى يقول: «رأيتُ في الساحة جثثاً بلا رؤوس، ورؤوساً بلا جثث، قد تُركتْ كلُّها دون دفن، فريسةً للضباع والوحوش الكاسرة. وفي وسط هذه المشاهد المفجعة، رأيتُ بعضَ الدروز جاءوا لأخذِ ما بقي من الأخشاب في تلك البيوت، يُقهقهون ويَبتهجون عند نظرهم إلى جثث ضحاياهم،

---

(٢) كتاب حرب الجبل، ص ٢١٧ عن أحداث ١٩٨٣.

(٣) المحرّرات السياسيّة، ٢/٩٢: عن المختارة في ٢٩/٦/١٨٦٠.

وهو مشهد كنت أعتقد أنَّه يدعو أسفلَ الناس إلى السكوت تهيُّباً»(٤).

وللمستر غْراهام رسالة أخرى في وصف حالة مسيحيِّي حاصبيّا وراشيّا، في ١٣/٨/ ١٨٦٠، أي بعد شهرين ونصف من المجزرة، يقول فيها: «أمّا الدروز الذين صحبوني (إلى حاصبيّا وراشيّا) فاستسلموا لمظاهر الفرح عند مشاهدتهم هذه الجثث. وأراني أحدُهم زوجَ "غدّارات" مفضَّضة كُسرتْ إحداها بينا كان يشجُّ بها رؤوسَ المسيحيّين. فندب غدّارته صارخاً: إنّها تعطّلتْ من جماجمهم الصلبة الملعونة.

ويعلّق غراهام على ما شاهد قائلاً: «إنّ الدروز هنا أمسَوا أشدَّ ظمأً للدماء وأكثر جرأة من ذي قبل. و.. هم يتكلّمون بوقاحةٍ مُفَاخِرِينَ بعدد المسيحيّين الذين ذبَحوهم»(٥).

أمّا تشرشل فينقل لنا صوراً راقصةً تضاهي ما رواه المستر غراهام. لقد علّق على مذبحة دير القمر في ١٤/١٠/ ١٩٨٤ قائلاً: «والدروز، عندما يثأرون، يثأرون بلا شَفَقة. فيغمسون أيديهم في الدم بِفَرَحٍ وَحْشِيٍّ، يفوقُ حدَّ التصديق»(٦):

When Druze Vengeance is once aroused, it is remorseless. They imrue their hands in blood with a savage Joy that is credible(٧).

---

(٤) المرجع نفسه، ٢/١٥٨: عن دير القمر بعد المجزرة.

(٥) المحررات السياسيّة، ٢/٢٧٢ – ٢٧٣.

(٦) تشرشل، ص ٣٢ من الترجمة العربيّة.

(٧) تشرشل، ص ٦٩ من الأصل الإنكليزي.

ويلاحظ تشرشل حال الأرامل المفجوعات والأيتام البائسين، ويدوّن فرح الدروز حيالهم قائلاً: «كان الدروز يُقَهْقِهُونَ ضَاحِكِينَ على بؤسهم، شامتين بما حلّ بهم من مصائب، قائلين لهم بوحشيّة، إنّهم إنّما تَرَكُوهُمْ أحْيَاء لِتَتَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَتَدْمَى»[٨].

The Druzes laughed at their desolation, taunted them with their calamity, and savagely told them they had been spared that their hearts might bleed[٩].

***

أمّا كتاب «مذبحة الجبل» فيتوقّف طويلاً على تفاخر الدروز وفرحهم أمام الفظائع التي ارتكبوها في حقّ المسيحيين وها هو يدوّن بدقة ما جرى في مذبحة دير القمر في ٢١/٨/١٨٦٠. يقول: «وقد أجرَوا (الدروز) من الفظائع والأعمال البربريّة ما تقشعرّ منه الأبدان، لأنّهم كانوا يَذبحون الأولاد في أحضان أمّهاتهم، والرجال على ركَب نسائهم، ويحرقون كثيراتٍ من النساء وهنّ أحياء في الطرق والشوارع، متفاخرين بتلك الأعمال الشنيعة، مُتَهَلِّلِينَ متنافسين. وكانوا يذرّون رمادَ أولئك المساكين في الفضاء»[١٠].

(٨) تشرشل، الترجمة، ص ١٣٨.

(٩) تشرشل، ص ٢٥٩ من الأصل الإنكليزي.

(١٠) مذبحة الجبل، ص ١٨٠ .

وعند مذابح حاصبيّا وراشيّا يخبرنا الكتابُ نفسُه ويقول: «صاح علي بك حماده داخل السراي بالدروز: كفّوا عن إطلاق الرصاص. وكمِّلوا المذبحة بالسلاح الأبيض. فسمعوا قوله. وسلّوا سيوفهم وخناجرهم ومديِّهم، وانقضّوا على فريستهم انقضاضَ الكواسر، مُغَنِّينَ مُتنافسين بأعمالهم البربريّة التي تشيب لهولها الولدان، وتقشعرّ من ذكرها الأبدان. وكانوا كلّما ازداد أولئك المساكين نواحاً واسترحاماً واستغاثةً ازدادوا (الدروز) قساوةً وفظاعةً وخشونة.

«وظلّوا بأعمالهم حتّى جاءوا على قتل جميع مَن كان بساحة السراي ومخارمها السفلى من الرجال.. وقد تغطّت ساحة السراي بجثث القتلى، وخرجتْ دماؤُهم من جدرانها. وصار في أرضها بركةٌ يَسبح بها المقتولون، ما بين مقطوعِ الرأسِ، ومبتورِ الرجلِ، ومكسورِ اليدِ، ومشقوقِ البطنِ، ومطعونِ الصدرِ، ومصابِ الظهر.. ولمّا أكمل هذا العمل في أولئك المساكين أمام والدةٍ ترى هلاكَ وَلَدِها، وزوجةٍ عذابَ زوجِها، وولدٍ حتفَ أبيه، وأختٍ مُصابَ أخيها، أخذَ الدروز يَدوسون أولئكَ القتلى بِنِعَالِهِم، ويَبحثون بينهم عمَّن به رمقٌ من الحياة فيكملون عليه.

«ولمّا أنهوا هذا العمل المريع، صعدوا إلى أعلى السراي حيث كان الأمير سعد الدِّين والأمراء والعساكر وبعض النصارى مع أكثر النساء. وهناك استأنفوا عملَهم، فبدأوا أوّلاً بالأمير سعد الدِّين، ولم يمهلوه ليصلّي ركعتين للّه قبل موته، فقطعوا رأسَه، وطرحوه من أعلى السراي إلى خارجها قائلين:

خذوا أيّها المسلمون رأسَ أميرِكم وادفنوه.. ثمّ أعمَلوا سيوفَهم بمن كان باقياً من النصارى وأفنَوهم عن آخرهم»[١١].

بعد انتهاء المجزرة، ارتاح الدروز قليلاً، وتنفّسوا الصعداء، وأسكرتهم الدماء المهراقة، راحوا فـ «جَمعوا رؤوسَ الأمراء الشهابيِّين الذين قتلوهم مع المسيحيِّين في القلعة، وعددُهم اثنا عشر أميراً، ورؤوسَ أعيانِ النصارى، ورتَّبوهم في ديوان الأمير فندي كمجلسٍ حافل، ووضعوا في أفواه أكثرهم عصيًا للتشفِّي والاستهزاء والسخريّة.

«وفي اليوم التالي الذي هو يوم الأربعاء في ٣٠ أيّار،.. بكّر الدروز، وأقَامُوا حَفْلَةَ سُرُورٍ وَأَفْرَاحٍ وَوَلائِمَ في محلِّ المجزرة الوحشيَّة، فَرَقَصُوا وَطَبَّلوا وَزَمَّروا وأَنْشَدُوا أبياتَ المعنَّى»[١٢].

وعند «بوجولا»، شاهدِ عيانٍ آخر، من السلك الدبلوماسي الأجنبي، هذه الملاحظة على ما حصل في حاصبيّا. يقول: «لقد جمع الدروز (في كنيسةٍ بحاصبيّا) هؤلاء التعساء، وكانتْ قَهْقَهَاتُهُمُ المُتَوَاصِلَةُ تتعارضُ بألم مع موقفهم المرعب ومع التدمير المحيط بهم»[١٣] Les Druzes avaient établis là (dans : une Eglise à Hasbéya) ces infortunés, dont les éclats de rire continuels contrastaient douloureusement avec leur affreuse position et avec les ruines qui les entouraient.

---

(١١) مذبحة الجبل، ص ١٥٤ – ١٥٥.

(١٢) المرجع نفسه، ص ١٦٦ – ١٦٨.

(١٣) Témoin oculaire, p. 66.

ويعود بنا «بوجولا» إلى حادثة من سنة ١٨٤٥، فيقول: «إنّ الأب كارلو، رئيسَ دير الكبوشيّين في عبيه، ذبحه الدروز في ممشى الدير. ثم وضعوا جثّتَه في الساحة وأحرقوها، وألّفُوا حَلَقَةَ رَقْصٍ شَيْطَانِيٍّ حولَ بقايا الشهيد»(١٤):

Dans la guerre de 1845.. Padre Carlo (Supérieur du couvent à Abay), fut assassiné par les Druzes dans le corridor de son couvent. Puis les bandits déposèrent son corps dans la cour, le brûlèrent et formèrent des danses diaboliques autour des restes du martyr.

٢ - التاريخ يتواصل

وأمّا ما حدث اليوم فليس بأقلّ وحشيّة ممّا حدث بالأمس. فالدروز لا يزالون كما كانوا. يسيرون «على حسب عاداتهم وتقاليدهم»(١٥)، ويتمسّكون بـ «صفات دينهم الشريف وتقاليدهم الأصيلة الحميدة»(١٦)، على ما قال شيخ العصر محمّد أبو شقرا في رسالته إلى المؤتمر الدرزي العالمي، بعد مجازر الشوف وإقليم الخرّوب وشرقي صيدا بقليل.

والشيخ إيّاه، في الرسالة نفسها، يعبّر عن فرحه بما أتمّ الدروز من عظائم وفظائع. يقول للمهاجِرين منهم: «أيّها الأحبّاء!

---

(١٤) Poujoulat, p. 213.

(١٥) كتاب «حرب الجبل»، ص ٢١٧.

(١٦) رسالة شيخ العقل إلى المؤتمر الدرزي المنعقد في نيوجرسي، راجع جريدة العمل ٢٥/٦/١٩٨٥.

تجتمعون اليوم ورؤوسُكم مرفوعة، بما تكشّف للعالم كلّه، عن مناقب بني معروف وجدارتِهم بالحياة الحرّة الأبيّة»[١٧].

هذه المناقب توقّف عندها الصحافيّون، إثر معارك الجبل والشحّار والإقليم، والتقطوا لها صوراً حيّةً من ساحات القتل، كان أحسن ما فيها استصحاب الجزّارين لآلات الطرب معهم، مثل الدفّ والطبل والطبّيلة والمجوَز، وقد أقاموا حلقاتِ الرقص والحداء، وهم بلباسهم التقليدي[١٨].

وفي صورة أخرى نشرتها الصحف الأجنبيّة، نرى جمهرةً من القَتَلة أمام جثّةِ مسيحيّ في الاقليم، على الطريق الدوليّة بين بيروت وصيدا، في بلدة الجيّة، يدوسونها بنعالهم، وعلاماتُ البهجة والفرح، بل الضحك والقهقهة، بادية على وجوههم[١٩].

***

فعلى أخصام الدروز السياسيّين أن يتفهّموا في عملهم السياسي هذه الحقيقة: إنّ الدروز، باتّباعهم التقاليد والعادات، يعملون بموجب تعاليم «الحكمة»، وعلى شبهِ «مثال أعلى» هو الحاكم الإله المعبود. هذا الإله الذي كتب عنه حمزة بأنّه كان

---

(١٧) المرجع نفسه.

(١٨) L'Orient-le Jour, 30,4, 1985

(١٩) Paris Match, 17 Mai 1985, Les Massacres des Chrétiens, Voir aussi le Nouvel Observateur.

يتفرّج على الركابيّـة يتقاتلون ويلعبون بأحاليل بعـضـهم بعضاً، وهو مسرور مغبوط[٢٠].

فـهم، إذن، بعـملهم هذا، وبطربهم لمرأى الجـثث المحطّمـة، يحقّقون انتـصـاراً لـ «حكمتهم»، وفوزاً سـاحـقاً على «الاضداد»، وتفـوّقاً للحقّ على الـباطل. يا لهـا من ساعـة سـعيـدة تلك التي ينفّذون فيها الثأر والانتـقام بالشكل الذي علّمتهم إيّاه «الحكمة». لقد آن أوانُ الابتهاج والنشوة، للثأر للآباء والأجداد.

(٢٠) أنظر رسالة ١١ بكاملها، و١٢ بكاملها.

الدرس الرابع عشر

آلات الطرب المجنون

١ - طريق العبادة والثواب

«للعـقل الأوّل» سـيف. «للنفـس الكلّيّـة» فـأس. «للكلمـة» سكّين. «للسابق» ساطور. و«للتـالي» خنجر. هؤلاء هـم «الحدود» الدرزيّة مع أسلحـتهم الـتوحـيديـّة هذه أسـلحة كـانت لهم منذ البـدء. وعلى خطاهم سـار الموحِّـدون ولا يزالـون. وكلّهم بالإله الحاكم المعبود يتشبَّهون. ومِن ينابيع «الحكمة» يستقون. وبهَدْيِ التقاليد يستنيرون. وخطى السلف الصالح يقتفون.

أيّتهـا «السيوف» المسـتلَّة فوق الرؤوس! متى إلى الأغـماد ترجعين؟ أَلِلْدِمـاء خُلقتِ أم للدفاعِ عن الحقّ؟ هل من مُعـجزةٍ في صـرخةِ طفلٍ بريءٍ تَرُدُّ عن عُنُقِـه سـيفـاً مشـحوذاً؟ هل ترجـو الضحيَّةُ من عيونِ السَيّـاف بريقَ رحمة؟! بيد أنّ السيّافَ، بدافع الدِّين والعقيدة و«الحكمة»، يَهْوي على الضحيّة مغبوطاً.

أيّتها «الفـؤوس» الهاوية على رؤوس الأبرياء! أَلِقَطْعِ رقابِ البـشَـرِ وُجـدتِ، أم لِقَطْعِ جـذوعِ الشـجَـر أنـتِ؟ ولكنَّكِ، في يد

«الشيخ العـاقل» الجزّار، أنتِ كـترنيمـة في فم طفل بريء. مَن لا يحمـل فأسَه ويتـبعني لا يسـتحـقّني، تقول «الحكمـة» وها هو «الجاهل»، قبل «الـعاقل»، يرجو مِن ضرباتِ الفأس مِـنَ اللّه خيرَ جزاء.

أيّتها «السكاكين» المشحـوذة! إنِّي أعرف من كتبِ «الحكمة» هذه الوصيّة لمؤسِّس الدرزيّة، قائمِ الزمـان، حمزة بن علي، العقل الأوّل، يقـول فيهـا لأحد مـساعـديه : «أوصِهِمْ بحـفظِ بعضِـهم بعضـًا. ولا يَمْشِي أحـدٌ منهُم إلاّ ومعَه شـيءٌ مِـنَ السلاح. وأقلّه سِكّين». أنتِ في يد «العاقل»، في هوسَـة المجزرة كسُبْـحةِ صلاةٍ في يدِ متصوِّفٍ درويشٍ قدِّيس. تخـتبئين بين الشملةِ والسروال كدرَّةٍ ثمينة لساعةِ الاستحقاق.

أيّتهـا «المناشير» المسنَّنة! خُـلقتِ لِنَشرِ الأخشـاب لا لِنَشر الرقاب. ولكنّ الموحِّـدين الأتقيـاء أوكلوا إليك رسالةً مـثلى تقوم على نشْر العظام وتقطيع لحوم البشـر. إنّكِ، في قبضةِ «العاقل»، أنشودةٌ من سـفرِ نشيدِ أناشـيدِ «الحكمة»، وعلامـةٌ من علامات الغلَبَة والظفر. وهم، بكِ، يَرجون من الباري ثواباً.

أيّتها «الخناجر»! لكِ في الجنّة مكان. آن الأوان لتربحي في هذ الدنيا أجْرَ السماء. غَـرِّزي في الصدور. شقِّي القلوب. أبْقِري البطون. إفـتَـحي في اللحم أخـداداً وأثلامـًا.. أنتِ في أيّام السلمِ صغيرةٌ، لا ذكر لكِ؛ ولكنّكِ في الملمّات كبـيرةٌ جبّارةٌ عتيّة. تفتكين وتجلّين. أنتِ ضـمـانة «العـاقل» الأمين، وجـزاء «الجـاهل» يوم الدِّين.

٢ - مبتكرات حضاريّة

سـيوف، فـؤوس، سكاكين، مناشـير، خناجـر، سواطيـر، أسـواط، قـداديم، مـوس، مدايا، مـشـاذب، مـحـاصـد، مناجل، محشّـات، حراب، حدآات، صفـائح، دبابيس، سنجات، يقطانات.. كلّهـا أسلحة «من الـعادات والتـقاليـد»، للقـتل، والقطع، والذبح، والنحـر، والشقّ، والبَـقْر، والـهَرْم، والفَـرْم، والضـرْب، والجلْد، والتعذيب، والترويع، والتمزيق، والتمثيلِ المهين.

ألذين شـاهدوا، أو سـمعوا، أو قرأوا، أو صـوّروا.. تـعرّفوا إلى هذه الأسلحـة «التوحـيديّـة». وهي لم تغب يوماً عن أحـداثٍ جرتْ فـوق أرض لبنان. فعلى مـدى قرن ونصف وفي مـحطّاتٍ تاريخـيّة محـدَّدة، في السنين : ١٨٤٠ ، ١٨٤٣، ١٨٤٥، ١٨٦٠، ١٩٢٧، ١٩٥٨، ١٩٧٥، ١٩٧٧، ١٩٨٣، ١٩٨٥ ، كـــانـت هذه الآلات القاطعة تطلع مـن مخابئها مـختالةً مترنِّحَـةً ظمأىَ لدماءِ الأبرياءِ من نساءٍ ورجالٍ وشيوخٍ وأطفالٍ ومرضى ومقعَدين.

أسلحـةٌ بدائيّة لم تـكن لتظهر لو لم يدفـعـها إلى الظهـور معـتقَدٌ دينيٌّ عمـيقٌ، يستبيـح لها دماءَ الأبرياء سبـيلاً إلى الجنّة الموعـودة.. ألم يقلْ رسـولٌ نبيٌّ: «إنّ الجنّـة رهن بالأسنّة؟!»؛ ألم يقلْ قـائمُ الزمـان بأنّه هو «المنتـقم من المشركين بـسيف مـولانا وشدّة سلطانه؟!». هل من دليل بعد على أنّ خلاصَ المؤمن منوط بالسيف والفأس والساطور؟!

***

٣ - التاريخ ينطق

لو لم ينطقِ التـاريخ، ويشـهد لنطقـه مؤرِّخـون وشهـودُ عِيان، لما تجرّأنا عـلى عرض ما تشمئزُّ منه النفـوس، وتقشعرّ له الأبدان، وتشيب لهوله رؤوس الولدان. إنّ الوحشَ المفترس، الذي يخور جـوعاً، إذا مـا وقع نظرُه في عيـون فريسـته، انكفأ عـنها مُشفقاً عليها. أمّـا الإنسانُ الوحشُ، الذي تدعمه «الحكمة»، فلا بدَّ له، لإرواء غليله، من أن يعملَ جـاهداً مغبوطاً في تقطيعِ ضحـيّته وتعذيبـها والتمـثيل بها. ولنا على «الفـرح الوحشـي» هذا[١] ألف ألف دليل ودليل.

قـال تشرشل في وصف مـعمـعة دير القـمر: «كـان لوقع ضرباتِ الفـأس والطبر صوت كـصوت قطع الأشجـار في غابة مـا»[٢] The blows given by hatchets, axes and bill hooks, as they fell on the human body, sounded like those of wood cutters felling a forest[٣].

وكان يتبع الفأسَ والسـاطورَ «كلُّ أنواع المسبّات واللّعنات والإهانات التي كـان يمكن الـنطق بهـا أو إجـراؤها. كـانت تنزل بواسطة الدروز على ضحيّتهم المستسلمة»[٤].

---

(١) تشرشل، ص ٣٢ من الترجمة العربيّة
(٢) تشرشل، ص ١٠١ من الترجمة العربيّة.
(٣) تشرشل، ص ١٩٠ من الأصل الإنكليزي.
(٤) تشرشل، الترجمة، ص ١٠٢.

ويشهد السيّد حمّود دريان، قوّاصُ قنصلية بروسيا في بيروت، بتاريخ ٢٥ حزيران سنة ١٨٦٠ فيقول: «دخلتُ المدينة (دير القمر) فرأيتُ الدروز مشتغلين مع نسائهم وأولادهم بنهبِ بيوت المسيحيِّين وإضرامِ النار فيها. ووجدتُ جميع الأسواق والطرقات مسدودةً بركام الجثث، وأقدِّرها بنحوِ ألفَين، ومعظمها فيه آثار جراحٍ في اليد اليمنى وفي العنق، ناشئةً عن خناجرَ أو أسلحةٍ قاطعة»[٥].

وعن القنصل الإنكليزي في بيروت إلى سفير دولته في الاستانة في ٢٣ حزيران سنة ١٨٦٠، شهادة رسميّة عن مجزرة دير القمر، يقول فيها: «وإنّ السراي غصَّت بجثثِ القتلى المتراكمة أكداساً فوق بعضها، وإنَّ آثار ضرب السيوف ظاهرةٌ في أيدي معظمِ المقتولين الذين حاولوا اتِّقاءَ الضربات بأيديهم وهم عزَّل. ومِن المقول إنّ عددَ القتلى يتجاوز الألفَين»[٦].

أمّا كتاب «مذبحة الجبل» فيستفيض في الوصف. يقول: «دخل الدروز للحال (إلى سراي دير القمر)، وانقضّوا على فريستهم انقضاض الكواسر، وبأيديهم الفؤوس مشهورة، والسيوف مسلولة، والحراب مجرَّدة. وأخذوا بقطْع الرقاب، وطعْن الصدور، وبتْر الأعضاء، وارْتكاب الشرّ، والتفنُّن في الوحشيّة.. وقد تفنّن الدروز بشرِّهم تفنُّناً غريباً، فعذَّبوا الأبرياء

---

(٥) المحرّرات السياسيّة، ٢/ ٩٦.

(٦) المرجع نفسه، ٢/ ٧٠.

بأنواع العذاب المرّ، فكان بعضُهم يقطع الرأس، ويبتر الأعضاء عضواً عضواً. ولا يُبالي بأنين المصاب وآلامه. وبعضُهم يقطعون أصابعَ النصراني.. ثمَّ لا يلبثون أن يُهدروا دمَه.. وبعضُهم كانوا يَصبُّون على رأس النصراني ماءً غالياً.. ويقطعون رأسَه بعد قطع أُذُنَيه، وأنفِه، وتشويه خلقتِه. وبعضُهم يأتون بالولد، ويذبحونه بحجرِ والدته. وبعضُهم يَجرّون الزوج ويُجندلونه على ركبة امرأته»[٧].

وليس من مؤرِّخٍ أجنبيٍّ زار بقايا المجازر إلاّ ولحظ استعمال الدروز لهذه الآلات البدائيّة، آلات الطرب الدرزي المجنون. فمنذ بدء المعركة، في ١٩ أيّار سنة ١٨٦٠، في بيت مري والمتن، يقول شاهد عِيان من السلك الدبلوماسي الأجنبي: «كانت النساء (الدرزيّات) تتبع فِرَقَ القَتْلِ للنهب والسرقة، مزوَّداتٍ بعلبِ الكبريتِ (للحريق). ويعلِّق الشاهد: «قد تكون هذه العلب الشيءَ الوحيد الذي استعاره الدروز من المدينة»[٨]:

...femmes munies d'allumettes, (C'est à peu près le seul objet qu'elles aient emprunté à la civilisation).

وعن مجزرة حاصبيّا قال الشاهدُ نفسُه: «لقد جرت مشاهدُ مجزرةٍ مرعبة كان الدروز يَخلعون الأيدي، يَنزعون الأطفالَ المتكبِّشة بصدور أمَّهاتِهم، ويقطِّعونهم تقطيعاً. لأنّه، بواسطة أسلحةٍ بدائيّة، من سكاكين وفؤوس ومخارز، كانوا

(٧) مذبحة الجبل، ص ١٨١ – ١٨٤.

(٨) Témoin oculaire, p. 35

يقومـون بتأدية هـذه المجزرة البشـريّة»[٩]. Car, C'est avec des armes primitives, des couteaux, des haches, des piques, qu'ils procédèrent à cette boucherie humaine.

٤ – حضارة القرن العشرين

وحديثاً، شاهد المشاهدون، ودوّن مَن استطاع النجاة، هذه الظاهرة الدرزيّة الحضاريّة. قال بول عنداري في مشاهداته المرئيّة: «.. تميّزَ الدروز بطريقتهم معاملةَ الأسير، يُعذّبونه شتّى أنواع العذاب، بالسكّين والنار، يَحفرون الصليبَ على جسده، ثمّ يذبحونه، أو يقطّعونه. هذا ما فعلوه –مثلاً– بجرجس داود من حارة حمزة، بعد أن خطفوه، وأرسلوه لنا في كيس نايلون مع الإسرائيليّين»[١٠].

وكم من شهود عيان نجوا من مذابح الجبل سنة ١٩٨٣، من قرى مسيحيّة عديدة، هرب أهلُها، ودُمِّرت بيوتها، والتجأت إلى دير القمر عن بكرة أبيها. هؤلاء الناجون لا يزالون، حتّى الساعة، تحت رعب السكّين والفأس والساطور والمنشار. وقد أخبرونا عن أحداث يعجز العقل البشري عن تصديقها. ويعجز الخيال عن تصوّر وقائعها. كم من أطفالٍ قطّعت أطرافهم ووضعتْ في أحضان أمّهاتهم! وكم من شيوخ تسلّى الذبّاحون بتقطيع آذانهم وأنوفهم وأصابعهم وسائر أعضائهم عضواً

(٩) المرجع نفسه، ص ٦٢. أنظر أيضاً ص ٨٤.
(١٠) الجبل حقيقة لا ترحم، ص ٩٠.

عضواً، بارتياح وغبطة، وكأنّهم يؤدّون للآلهة ذبائح تمجيد، أو كأنّهم أمام نعاجٍ ينزعون عنها إهابها، ثمّ يقطّعون لحمانها للأكل.

وآخرون نُشروا. وآخرون فُجّتْ جماجمهم واندلق دماغهم. وآخرون بُقرت بطونهم، وخرجت أمعاؤهم. وآخرون ذُبحوا على أسرّة شيخوختهم. وآخرون صُلبوا في الأحراش على جذوع الشجر. وآخرون طُحنت عظامهم. وآخرون شُقّ فكّهم الأسفل عن الأعلى. وآخرون نُزعت قلوبهم من صدورهم. وآخرون قطّعت أصابعهم وأدخلت في أفواههم ليأكلوها. وآخرون فُتِّحت شرايينهم وسقوا منها كأساً بعد كأس.. كلّ ذلك برويّةٍ وإمعان في التعذيب واستهزاء وغبطة ليس بعدها غبطة.

واستطاعت بعضُ وكالات الأنباء الأجنبيّة، بما تملك من عدساتٍ بعيدة المدى، وعدّة متقنة، وبما كان لأصحابها من جرأةٍ وتحدٍّ حتّى التهوّر والخطر، أن تصوّر هذه الوقائع بالألوان الطبيعيّة. ففي «باري ماتش» ثمّة مقال يحمل عنوان «الفأس والساطور ورِجلٌ على الجمجمة»(١١). وفي الـ «فِيغَارُو لِيتِّرِرْ» صورة لرجلٍ مسنٍّ مرعوبٍ يقول: «إنّي مرعوبٌ من فأس تحطّم عظامي»(١٢). وفي مستشفى الكارانتينا حيث نقلت الذبائح مشاهد تقشعرّ لهولها الأبدان(١٣)..

---

(١١) Paris-Match: Hache Coutelas et coup de botte.

(١٢) Le Figaro Litt. 11 Mai 1985: “La peur d’être abattu à la hache”, p.116

(١٣) أنظر الصور في معظم المجلاّت، وبخاصّة الفرنسيّة.

لقد فسّر لي أحد الناجين من مذابح الجيّة كلام رئيس البلاد: «أعطونا السلام وخذوا منّا ما يُدهش العالم». قال: إنّ ما يدهش العالم عندنا هو هذه الفأس وهذا الساطور».

ومَن مِن المعاصرين لم يسمع بـ «فرقة أبو إبرهيم» الدرزيّة؟! هذه الفرقة العسكريّة يبدأ عملُها بعد القصف والاحتلال، فتَذبح وتُهجِّر وتدمِّر وتَحرق.. في أيدِي أصحابِها الخناجر والفؤوس وجميع آلات الطرب الدرزيّة. أسَّس هذه الفرقة، حديثاً، ثلاثةُ مشايخ، هم شيخ العقل الدروز في لبنان، محمّد أبو شقرا، وشيخ عقل الدروز في إسرائيل، أمين طريف، والشيخ مسعود الغريب. تأخذ اسمَها من «إسمعيل التميمي»، صهر حمزة، وقائد قوّاته السرّيّة، المكنّى بأبي إبرهيم. زيُّها سروالٌ أسود وقبّعة بيضاء. تتألّف من حوالي خمسمائة شاب درزيّ من إسرائيل وسوريّا ولبنان.

هذه الفرقة اجتاحت قرى الجبل، في الشوف وعاليه، والمتن، وإقليم الخرّوب، والشحّار، وشرقي صيدا. وهي تتحمّل مسؤوليّة الذبْح بالآلات البدائيّة، تيمُّناً بالحدود الروحانيّين الذين كانوا يستعملون مثل هذه الآلات.

٥ - عبرة

على خصوم الدروز السياسيّين أن يتفهّموا في عملهم السياسي هذه الحقيقة: إنّ الدرزي يذبح ضحيَّته. ويلذّ له الذبح بالآلات البدائيّة. وذلك لسببين: اقتداء بالإله الحاكم المعبود الذي

رَوى عنه المـقـريزي هذا الخـبر: كـان الحـاكم «يقف عـادة عند حانوتِ ابـن الأزرق، ويحادثُ صاحِـبَه ويُبـدي عطفَه علـيه. في ذاتِ يوم أوقفه بين أثنين من الرُكَابيّـة ورَماهُ برمحٍ. ثمَّ استدعى ساطورًا فقذَفَ به رأسَه وجسـدَه. ثمَّ استدعى ماءً فغسَلَ يدَه. ثمَّ أمر بعـد ذلك بغسـلِه ودفنه، وأنْ تُعمَل له جنازةٌ حـافلة. وصلّى عليه قاضي القضاة»[١٤].

ويروي لنا أيضاً «أنّ القائد فَضْل بن صَالح دخلَ يومًا على الحاكم بالقـصر، فرآه بين يديه صـبيٌّ مَليح ابتاعَـه بمائةِ دينار، وقد ذَبَحَـهُ بسكّين في يده، واستـخرَج أحشـاءَه وأخذَ يقطّعـها، فارتدَّ الفَضْلُ إلى منزلِه مذعورًا. ولم تمضِ سـاعةٌ حتَّى أنفذ إليه مَن يقتلُه»[١٥].

أمّا السـبب الثاني فهو الإمـعان بتشويه جـثث «الأضداد» الكفّـار، وذلك حتّى لا تتـقـمّصَ نفسُ القاتـل بجسـدِ أحدِ مـهم. فتشـويهُ الضحيّـة والتمثيلِ بهـا ظاهرتان درزيّتان لهما مـغزى دينيّ عميق.

---

(١٤) المقريزي، مخطوط «اتّعاظ الحنفاء»، ورقة ١٦٦أ – ١٦٩أ.

(١٥) المـقريزي، مـخطوط «اتّعاظ الحـنفاء»، ورقـة ٦٠ب. أنظر أيضاً مـخطوط «سير البيعة المقدسـة» في دار الكتب المصرية بالقاهرة.

الدرس الخامس عشر

تهجيرُ الموتى

أغرب ما في «الحكمة» الدرزيّة انتِهاك حرمةِ الأموات، في نبش قبورهم، وتحطيمِ عظامهم، وحرقِ نعوشهم، وعرضِ جماجمهم سخريَّةً واستهزاء.. إنّها أعمالٌ تنبع من جوهر العقيدة والدِّين. بها يقتفي الدرزي خطى الحاكم الإله المعبود، ويثأر للموحِّدين الذين قُتلوا في أوائل الدعوة.

أمّا المعاني الدينيّة لهذه الأعمال المدهشة فنستلهمها من «الحكمة» وشروحاتها. ننقل من القاموس الدرزي ما يلي: «ألقبور هي الشرائع. سُمِّيتْ بذلك لأنَّ التوحيد كان مدفونً (هكذا) فيها، كما قال (قائم الزمان): "وبيَّنتُ لكم ما في الصدور، ونَشرتُ لكم ما في القبور. وهو التَّوحيد الذي كان فيها". وقال: "بُعثِرتِ القبور، وحُصِّلَ ما في الصدور، وَنَشرتُ لكم ما في القبور. وهو التَّوحيد". وقال في «الوادي»[1] أيضاً: "بُعثرَتِ القبور، وحُصِّل ما في القلوب والصدور". فالقبور هي

---

(١) رسالة الوادي من رسائل الحكمة، رقم ٥٢ صفحة ٣٧٦ – ٣٨١.

الشرائع، كـما تقدّم قوله: " تبنونَ قـبورَ الأنبياء، وترمّـون قبورَ الأبرار "، أي تقـتلوا الأنبـياء، وتبنـون عليهم مـزارات، وتقـتلوا الأبرار، وتحفروا لهم قبوراً»[٢].

أمّا تشـبّه الدروز بالإله الحاكم المعـبود فذلك مشـهور في سيرة الحـاكم. يقول القاموس الدرزي أيضـاً: «ونبشُـهم، أي بني أميَّة وبني العبَّاس، من قبـورهم. وذِكْرُ ذلك مشـهورٌ في التاريخ. فكان ذلك نَقض ما قالوه (المسلمون) إنَّ الولاية لهم»[٣].

وشـهادة المؤرّخين المـعاصرين للحاكم حول مـا صنعه في نبشِ قبـورِ الموتى لا يرقى إليها شكٌ. إلاّ أنّ حـمزة أضفى عليـها «حكمة». فهو يعتبرها من مـقوِّمات دعوته، ومن علاماته الإلهيّة، كما يعتبر «القبور» هي الشرائع الناموسيّة التكليفيّة التي جاء بها الأنبياء ليَـطمسوا معالمَ التـوحيد. لذلك اقتـضى على الحاكم أن يرفع عن التَّـوحيـد غطاءه، وأن يلعنَ أولئك الأنبيـاء الكذبة الذين جاءوا بتلك الشرائع التي هي كالأكفان البالية.

يقول الأنطاكي، مؤرِّخٌ معاصِرٌ للحاكم : في سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩ م.، «أمرَ الحـاكم بهدمِ دير القصـير في جبل المقطَّم، مـقرِّ البطرك القبطي، ونهبِ جميع ما فيه، وفتحِ المقابر، ونبشِ مَن كان فيها، وأخْذِ توابيتها، وطرحِ أعضائها»[٤].

---

(٢) الدرر المضيّة واللمع النورانيّـة في تلخيص ألفاظ الحكمة الشريفة ومـعانيها الروحانيّة. لفظة: قبور، ص ٢٣١ – ٢٣٢.

(٣) الدرر المضيّة...، لفظة: «نبش "، ص ٣٠٠.

(٤) تاريخ الإنطاكي، ٢٠٢.

وفي المقريزي أيضاً[٥]، ومخطوطِ «سِيَر البيعة المقدَّسة»[٦]، والأنطاكي[٧]، وابن تغري بردي[٨] وغيرهم، الخبر نفسه. يقول ابن تغري بردي: إنَّ الحاكم «هدَم كلَّ ما تبقَّى من كنائس. وأخرَج عظامَ الموتَى وَوَقَدَ بها الحمَّامات».

غير أنَّ حمزة الذي يؤكِّد ما جاء في «الحكمة» وتواريخ المعاصرين، يضفي على تصرّفاتِ الحاكم هذه معنىً توحيديًا و«حكمةً بالغة». فهو يعلّق على ما صنعه الحاكم من نبْش قبور، وتمثيلٍ بجثث الموتى، وتهديمٍ لكنائس النصارى، ودكِّ معالمهم، وكسرِ صلبانهم، وتكسير أجراسهم، وإتلاف صورِهم. يقول: إنّ الناس «يشاهدون منه ما لا يكون من أفعالِ أحدٍ من البشر. ولا سُمِعَ بِه في التواريخ والسِّيَر»[٩]. ويردّد بأنّ الناس «لم يعرفوا بأنَّ أفعالَ مولانا جلَّ ذكرُه، كلّها حكمة بالغة، جِدًّا كانَ أم هزْلاً»[١٠]. وهذه الأفعال المشينة، يعترف حمزة، بأنّ أحدًا من ملوك الأرض وسلاطين الدنيا يتجرّأ عليها . يقول: «أمَّا ملوك الأرض فما يستجرئ أحدٌ منهم على مثل ذلك»[١١].

***

(٥) خطط مصر للمقريزي، ٤/ ٧١-٧٢، اتّعاظ الحنفاء، ورقة ٦٥-٦٦.

(٦) مخطوط في خزانة دار الكتب المصرية بالقاهرة.

(٧) تاريخ الإنطاكي، ص ١٩٥.

(٨) ألنجوم الزاهرة لابن تَغْرِي بَرْدي، ٤/ ١٧٧-١٧٨.

(٩) رسالة ١٢/ ١٢٨.

(١٠) رسالة ١١/ ٩٨. أنظر أيضاً: ١٢/ ١٢٨.

(١١) رسالة ١٢/ ١٢٦.

أمّا شهادة التاريخ المعاصر، منذ القرن الفائت حتى اليوم، فلا تقلّ تأكيدًا على حسن صنيع الدروز بنبش قبور الموتى وإقلاق راحتهم. يقول كتاب «مذبحة الجبل»: «ولمّا انتهى الدروز من فتكهم هذا (في ذبح ٨٠٠ سجين في قلعة راشيّا) جمعوا رؤوسَ الأمراء الشهابيّين الذين قتلوهم مع المسيحيّين في القلعة. وعددهم اثنا عشر أميراً، ورؤوسَ أعيان النصارى، ورتّبوهم في ديوان الأمير فندي كمجلسٍ حافل، ووضعوا في أفواهِ أكثرهم عصيًا للتشفّي والاستهزاء والسخريّة»[١٢].

وليس عمل «الست نايفة جنبلاط»، كما ورد في كتاب تشرشل، وكما أثبتناه سابقاً، إلاّ صورة صادقة عمّا صنعه الحاكم[١٣]. وما رقْص الدروز وفرحهم الوحشي على جثث الموتى، كما أوردها كتاب «مذبحة الجبل» إلاّ إمعاناً في تطبيق تعاليم «الحكمة» واقتداءً بسير الحاكم الاله المعبود وقائم الزمان حمزة[١٤].

واليوم، كما بالأمس، صحفٌ ومجلاّتٌ عديدة توقّفت عند هذه الظاهرة الدرزيّة، والتقطتْ صورًا ومشاهدَ من القبور المصدَّعة، والجماجم البشريّة المعروضة، والعظام المكدَّسة.. لقد أخرجوا الموتى من قبورهم. خلّعوا أبواب مقابرهم. انتشلوهم من دهاليزهم. أحرقوا بقاياهم. ونثروا رمادَهم في كلِّ ريح.

---

(١٢) مذبحة الجبل،ص ١٦٧.

(١٣) أنظر فصلاً كاملاً في هذا البحث.

(١٤) تشرشل، ص ٣٢ من الترجمة.

تجوّل حفّارو القبور في جميع قرى الإقليم والشوف، فطاردوا الأحياء والأموات: هجّروا الأحياء، وأقلقوا الموتى. دمّروا المقابر والمدافن، كما دمّروا، من قبل، المنازل والكنائس. أحرقوا العظام والرفات، كما كانوا أحرقوا المزارع والشجر. ألموتى، على يد الدروز، يموتون مرّتين.

أمّا الذين دُهشوا من هول هذه الأعمال «الحكمية» المدهشة فكانوا مراسلي الصحف والمجلاّت الأجنبيّة. لقد حظوا بمشاهد لم يألفوها في تاريخ الحروب عندهم. ذُعرتْ مجلّة «باري ماتش» بما اكتشفت[١٥]. وتفاجأت مجلّة «نوفل أوبسرفاتور» بما رأت[١٦]. وكذلك «نوفل ماغازين»[١٧]، و «ريفو دي ليبان»[١٨]، والصحف المحلّيّة بمجملها.

والدروز، أمام ذهول العالَم يكذّبون. وأخفرهم مَن يتوسّل المساترةَ والتقيّةَ والمواربةَ سبيلاً إلى الحقيقة. هذا كان موقف وليد جنبلاط، عندما سألوه عن موضوع «نبش قبور الموتى في الجيّه»[١٩]. إلاّ أنّ ما صرّح به نائبُه «أنور الفطايري» في خطابٍ في برجا كان أكثر وضوحاً وصراحة. لقد قال عن سكّان الجيّه: سوف ننبش قبورَ موتاهم».

---

(١٥) Paris- Match, 17 Mai

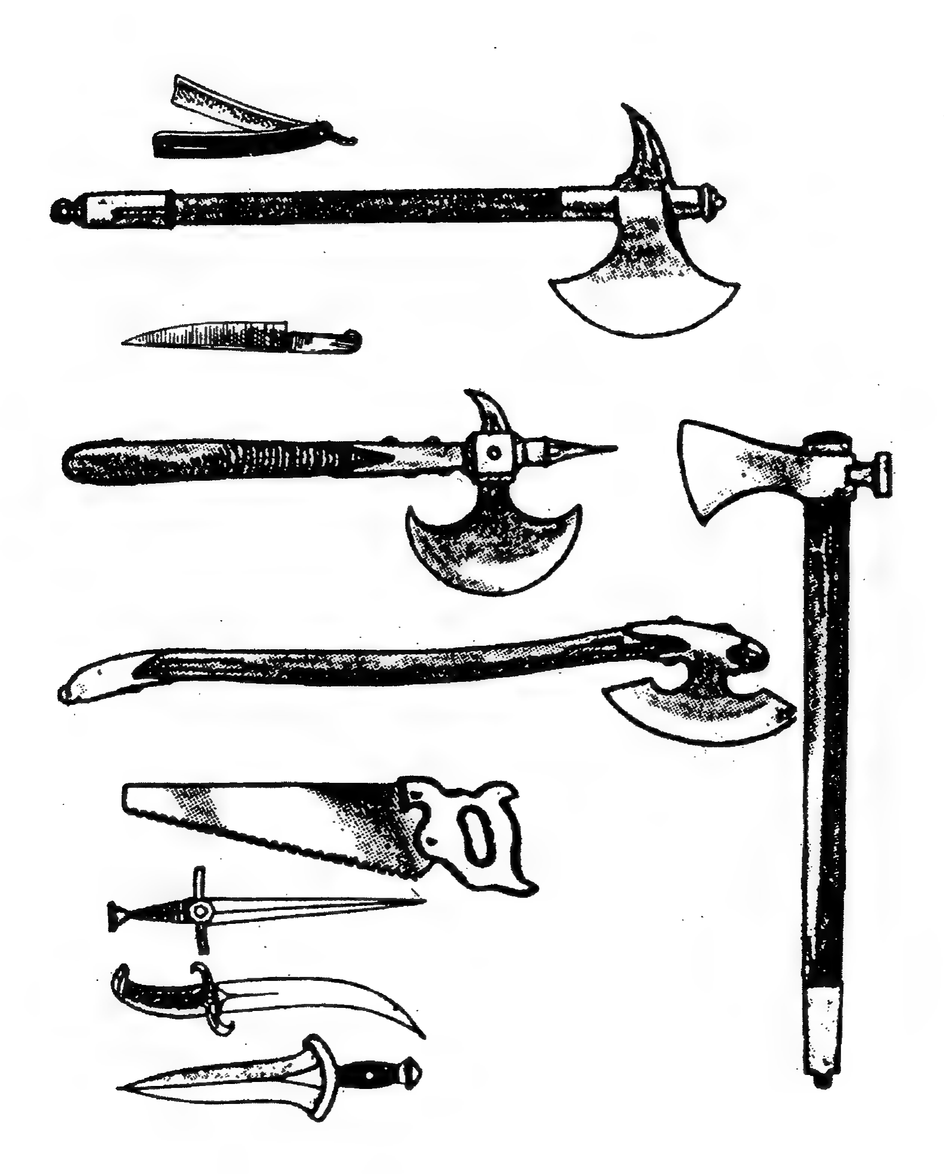
(١٦) Le Nouvel Observateur, 3-9,Mai, p. 33

(١٧) Le Figaro Litt. 11Mai

(١٨) La Revue du Liban

(١٩) أنظر جريدة السفير، ١٣/ ٥/ ١٩٨٥.

هكذا هو الدرزيّ في عـقيـدته وتقاليـده وممارساته. إنّـها لظاهرة درزيّة يتبـرّأ الإنسان، بكونه إنســاناً، منها. ألعقـيدة هي التي أفـســدتْ على الإنسان إنســانيّـتـه. وكان عليـهـا أن ترفع إنسانيَّتَه لا أن تذلَّها.



الدرس السادس عشر

الإشتراكيون التقدّميون ... تقليديون

«ألدّرزيّ، أجاب الباشا، كَـزيزِ الحصاد، يغنّي ويعيش على خيـرات الآخرين»[١]. بل الدروز عامّـة، كما يقـول «بوجولا» «لا يهتمّون إلاّ بحراثة حقولهم. وهذا، فعلاً، كل ما يعرفون مِن عمل. وليس فقط لا يملكون أيّةَ فكرةٍ عن الفنون، ولكـن أيضًا هم غرباء تماماً عن كلِّ نـوعٍ من أنواع المهن. أتعـرف عنهـم أعظم من هذا الجهل وهذه المسكنة حتـى في بناء بيوتهم! ليس بينهم إسكافيٌّ، أو نحّـاتٌ، أو خـبّـازٌ، أو نجّـار. هم يحـتـاجـون في كلِّ ذلك إلى المسيحيّين. يشترون منهم حتّى أبسط أمورالحياة»[٢].

هذا ما قاله عنهم الذين عاشوا معهم، واختبروهم، وتعرّفوا إلى خصائص مـجتمعهم. وما حـصل لهم من تقدّم وتطوّر يعود الفضل فـيه إلى جـيرانهم المسيـحيِّين. إنّهم يفـتقـدون أهم القيم الحضاريّة والإنسانيّة، إلى العمل، إلى نبل التعامل مع الآخرين.

---

(١) Poujoulat, p. 33. حمد باشا هو خليفة خورشيد باشا.

(٢) ألمرجع نفسه، ص ٤٩١ – ٤٩٢.

يقول «بوجولا»: «إذا كان الشرف والحريّة والمشاعر الكبيرة والنبيلة والحضارة تستطيع أن تأخذ لها في قلب الشرقيين سبيلا، أتظنُّ أنّ ذلك يحصل في قلب الدروز؟ وأن يكون لها عندهم جذور؟ إنّك لا تستطيع إثبات ذلك إطلاقاً»[٣]

أ - حسد .. فانتقام

إذا كان الدرزي عدوَّ التطوّر إلى هذا الحدّ فهو بالتالي عدوٌّ ناشدي العمل والتقدُّم. ولا غرو أن يكون المسيحيّون الطموحون موضوعَ غيرتِهم وحسدِهم، وأن يُثيروا عندهم روحَ الضغينة والانتقام.

هذا ما دفع مؤرِّخين إلى أن يردّوا أسبابَ الحروب الداميّة بين المسيحيّين والدروز إلى هذا الحسد والطمع :

أكّد تشرشل، في وصفه أهالي دير القمر سنة ١٨٤٥ ما نقوله، فقال: «كلّ محصولات القرى الدرزيّة في الجوار تسرَّبت إلى أيديهم (أي المسيحيّين). وهكذا بلغوا في النهاية مركزاً من الغنى وسِعَةِ العيش أثار حسَدَ ونقمة أسيادهم الإقطاعيين المشايخ الدروز من عائلة أبي نكد»[٤].

وممّا قاله عن أحداث سنة ١٨٦٠: إنّ غنى دير القمر أزعج الدروز «الذين كانوا، بكثيرٍ من الصعوبة يغضّون النظر عن

---

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٣.

(٤) تشرشل، ص ٦١ من الترجمة.

تقدّمهم الذي كان بنفسه مزعجاً لكبريائهم.. فالمسيحيّون في دير القمر تمتّعوا بازدهارٍ وتوسّع.. فتكردست الأموال عند رجالهم المعروفين، واقتنَوا الخيول، ولبستْ نساؤهم وبناتُهم الأثوابَ الحريريّة والطيالس، ورَهَجْنَ بالمجوهرات من ذهبٍ ولآلئ وماس.. وكان الدروز الذين يختلفون إلى أسواقهم ومخازنهم مُجبرين على التحلّي بسيرةٍ حسنة بتحفّظٍ ولياقة»[٥].

والشيء نفسه لاحظه مؤلّف كتاب «مذبحة الجبل»، فيقول عن أحداث سنة ١٨٤٥: «وتفرّغ أهلُ دير القمر للصناعة والتجارة، فربحوا الأموالَ الوافرة، وبنَوا القصور الباذخة، وزيّنوا صدورَ نسائهم باللآلئ والجواهر الباهرة، ولاحتْ عليهم لوائحُ النعمة والثروة، فطمعوا في الدروز، وحقد الدروزُ عليهم، فصاروا يترقّبون الفرص للإيقاع بهم ونهبِ أموالهم»[٦].

مقابل هذا يأخذ الكاتب على المسيحيّين جعجعتهم وتباهيهم بثروتهم وكثرة بذخهم، يقول: «وهكذا عادت الأحقاد. وكان السبب فيها، هذه المرّة أيضاً، دسائس الأتراك، وبساطة الموارنة، وحبُّ الدروز للحرب والغنيمة. ومع كلٍّ هذا الضغط وهذه الأسباب، لم يتأخّر النصارى في جبل لبنان وضواحيه عن النموّ والارتقاء»[٧].

---

(٥) المرجع نفسه.

(٦) مذبحة الجبل، ١٢٢.

(٧) المرجع نفسه، ص ١٢٥.

ويعود ليؤكّد بقوله: «وكان النصارى يَفتخرون بقوّتهم وثروتهم، ويُثيرون بذلك طمعَ الدروز وحقدَهم في كلّ حين»(٨).

وثمّة أيضاً شاهد عيان من السلك الدبلوماسي الأجنبي قد لمس لمس اليد طمعَ الدروز وحسَدَ أمراء الأمس لفلاّحي اليوم. قال: «إنّ موقع المدينة (دير القمر) الحرّة أثار حسد هؤلاء المتوحّشين وبغضهم، وبالأخص مشايخ أبي نكد، أسيادِهم القدامى»(٩).

وكذلك قال عن زحلة وحاصبيّا وراشيّا، فالتقدّم كان، في الحقيقة، مصيبةَ المسيحيين الأولى في هذه المدن. قال مؤلّف «مذبحة الجبل»: «وأمّا زحلة فنمت في تلك المدّة نموّا هائلاً، أوجبَ قلقَ الدروز وحسابَهم.. فاشتدّ الغَيظ بالدروز. واشتدَّ الميلُ فيهم إلى الانتقام»(١٠).

وقال أيضاً عن زحلة ودير القمر معاً: «أمّا الدروز، الذين كانوا ينظرون إلى تقدّم دير القمر وزحلة بعين الحسد ويطمعون بما لمسيحيّي هاتَين البلدتَين من الأموال، فقد سرُّوا من جنوح نصارى دير القمر إلى السلام، وتقاعدِهم عن الاستعداد لحربهم، وحسبوا بأنَّ تقاعد دير القمر يجعلهم مغنماً لهم»(١١).

---

(٨) المرجع نفسه، ص ١٢٦.

(٩) Témoin Oculaire, p. 32.

(١٠) مذبحة الجبل، ص ١٢٦.

(١١) مذبحة الجبل، ص ١٧١.

وعن راشيّا وحاصبيّا قال رجل السلك الدبلوماسي: «بفضل نشاط المسيحيّين الصناعي والتجاري.. لقد حصلوا على قسط وافر من الملكيّة. فكان غناهم تجربةً للدروز»[١٢].

وباختصار الكلام، كما يقول تشرشل: «ألهدوءُ المستَتِبُّ، والتقدُّمُ المطَّرد للمسيحيين، كان مزعجا لشعورهم»، أي لشعور الدروز[١٣].

إنّ الخلط الحاصل في عقول الغربيّين بين المسلمين والدروز جعل من المسيحيّين عرضة لحسدِ الفريقين معاً. فها هو القنصل الإنكليزي برانت يبرق إلى سفير دولته من الشام في ٣٠/٨/ ١٨٦٠، يقول له: «إنّ نجاح الأمّة المسيحيّة أثار حسدَهم وحرّكَ فيهم عواملَ الطمع.. وكان التجّار المسيحيّين أكثر نجاحاً من المسلمين. وقصارى القول: إنّ ذكاء الأوّلين ونشاطَهم جاءا بأثمارهم الطبيعيّة. لكنّهما زادا امتعاضَ الآخرين، ونكأ قرحة كلومهم الدامية.

«فجميع هذه المسائل أوغرتْ صدرَ المسلمين، وشعروا بانحطاطهم عن المسيحيِّين، منزلةً وثراء، فتحكّكت الحزازات في صدورهم.. وفضلاً عن ذلك فإنّ أبناء العرب في الجنديّة هيّجَهم الشوقُ إلى سبي نساء المسيحيِّين والطمع في الأسلاب. وقد سبق لهم أن ذاقوا حلاوةَ كليهما في حاصبيّا وراشيّا. ولذلك

---

(١٢) Témoin Oculaire, p. 58

(١٣) تشرشل، ص ٥٧ من الترجمة.

كانـوا أشدَّ ميـلاً إلى تأجيج نـيران الفتـنة، إشباعـاً لشهـواتهم وأطماعهم في الأسلاب»[١٤].

٢ - العمل : كرامة أم مذلّة؟

يعود غنى المسـيحيين، وبالـتالي طمع الدروز، إلى اعتـبار المسـيحيّـين العملَ، في جـميع أنواعـه وأشكاله، على أنَّه من أهمّ عناصر الحياة والنموِّ والتقدُّم؛ فيما هو بالنسبة إلى الدروز وإلى سائر الشعـوب البدائيّة محطٌّ لقَدر الإنسـان ومذِلّة. «ألمسلم، على ما يقول «بوجولا»، لا يعمل. وعملُ الآخرين يُزعجه ويضايقه. بل لا يهمُّـه أن يتشبّـه بالذين يعملون. بيـد أنّه يهمّه التـخلّص منهم كالتخلّص من حملٍ ثقيل. وإذا ما أصـبح العاملُ ثريًا فهو يحسده ويطمع في مـاله. ألمسـلمُ يكره كلَّ مـا يتـحـرّك حـواليـه. يكره، بالتالي، كلَّ مَن يتقدّم ويكبر»[١٥].

وقـد يكون سببُ كـره المسلمين عـامّـة، والدروز خاصّـة، للعمـل، اكتفـاؤهم بما هم عليه، وتقـوقعـهم على أنفسـهم. فهم «ليسوا بحاجـة إلى سواهم. نفوسُهم ضيّقة، لا يعـترفون بفضل أحـدٍ عليـهم. وليس شيء يمكن أن يكونَ صـالحـاً أو حقًّـا إن لم ينبعثْ عنهم»[١٦]. ثمّ إنّهم «لا يعرفون شيئاً، ولا يستطيعون فعلَ

---

(١٤)ألمحررات السياسيّة، ٢/ ٣٢٢ - ٣٢٣.

(١٥) Poujoulat, p. XV

(١٦) ألمرجع نفسه، ص ٩٦.

شيء. غيـرَ أنّهم قديرون على كلّ شيء»[١٧]. وكلُّ شيء من جهدِ الآخرين مُباح لهم.

من هنا، أمام تمتّع المسيحيين بالبحبوحة والازدهار، نتيجة جهد ونشاط دؤوب، كان الحسد والحقد وإضمارُ الشرّ ينخر في نفوس خصومهم. يقول تشـرشل: «أصبح المواطنون المسيحيّون أمـراءَ المتاجـر، يَعيـشون في قـصور مـزدانة بالرّخام ومطليّـة بالذهب. لقد تباهوا بغناهم، وتفنّنوا بمفـاخر الزينة، وتمتّعوا بكلّ أنواع الإنفـاق والبذخ. كـانوا يُثيـرون حسـدَ وغيـرةَ جيـرانهم المحمّديّين الأقلّ سعادة»[١٨].

ويقول بوجولا: «مـسلمو الشام لا يستطيـعون الكفاحَ مع المسيحيّين بعملهم وذكائهم. هم يرونهم كلّ يومٍ يكبرون. فقرّروا إبادتهم»[١٩].

وعن ذلك أيضـاً يقول «كـتاب مـذبحة الجـبل» عن الأتراك الذين لهم «شـهرة في كـره النصارى من رعـيّتـهم بنوعٍ أخص لأنّهم أكثرُ الناس ميلاً إلى التقدّم وأوفرهم ذكاءً واستعداداً للنموّ والاستقلال»[٢٠].

---

(١٧) المرجع نفسه، ص ٣٩٠.

(١٨) تشرشل، ص ٦٧ من الترجمة.

(١٩) Poujoulat, 390.

(٢٠) مذبحة الجبل، ص ٩٤.

ويقول بوجولا أيضاً: «منذ فتح القسطنطينيّة حتّى اليوم، لم يعش الأتراك إلاّ من عمل المسيحيّين وذكائهم. ها هنا مشهدٌ رائعٌ يستحقُّ الانتباهَ إليه من قِبَلِ السياسيِّين والفلاسفة والمفكِّرين»[٢١].

موقف المسلمين عامّة، والدروز خاصّة، من المسيحيّين، دفع بهؤلاء إلى التكتّم على الأموال والأرزاق، واتخّاذ الحيطة والحذر من الحسّاد والطامعين، وقد أشار إلى هذا الواقع شاهدُ عيان بقوله: «في القديم كان المسيحيّون مجبرين على إخفاء ثرواتهم بعنايةٍ عن أعين المسلمين. وذلك كي لا يُثيروا حسدهم»[٢٢].

٣ - دروس ومواعظ

على خصوم الدروز السياسيّين أن يتفهّموا بعملهم السياسي الحقيقةَ التالية: إنّ العمل فخرٌ للعاملين. لكنَّ ثروتَهم تُثير حسدَ الخمولين ونقمَتَهم.. لهذا، قرّر هؤلاء الخمولون خوضَ معركةٍ إبادة ضدَّ العاملين، وتسلَّحوا بشعاراتٍ برّاقةٍ خدعتْ كثيرين، إذ رفعوا أثناء أحداث السنوات الأخيرة شعارَ «المحرومين»، والمغبونين، والبؤساء.. وشعار «التقدُّميِّين الاشتراكيِّين»، و«حزب العمّال»، وطبقة البروليتاريا.. ضدَّ البرجوازيين وأصحاب الامتيازات والنعم..

---

(٢١) Poujoulat, p. 201.

(٢٢) Témoin oculaire, 164.

إزاء هذا كان المسيحيّون في غفلةٍ، ولا يزالون. فلم يخفوا ما وفّروه من نعم وخيرات، كما يفعل «المحرومون» (!)، بل تهافتوا على العديد من المشاريع والأعمال الصناعيّة والتجاريّة، حتى ظنَّ العالَم أنَّ المسيحيِّين في لبنان هم آكلو أموال اليتامى و«المحرومين»، وأنّهم هم الذين ضربوا على خصومهم حزام البؤس والجوع.. ورأى المسلمون والدروز في ذلك ذريعةً لعمليات الإبادة والإطاحة بحكم المسيحيِّين..

ألا فليعلمْ كلُّ جاهلٍ غيورٍ على إصلاح المجتمع، بأنّ الكارثة ليست في الذين حَرَموا «المحرومين»، بل الكارثة، كلُّ الكارثة، سببها يكمن في كره «المحرومين» لكلِّ عمل، وفي تبجّحهم بأنّهم هم «التقدُّميّون الإشتراكيّون»!

إنّ الفرقَ، في الشرقِ، بين المسيحيّين وسواهم هو هذا: ألمسيحيّون يعملون. يقدّسون العمل. وسواهم لا يعمل. بل يكره العمل.

والأنكى من كلِّ شيء أن يتسلّح رجال الإقطاع والامتيازات والثروات الطائلة من الدروز والشيعة بسلاحِ «التقدميّة الاشتراكيّة»، أو بوصف أنفسهم بـ «الغبن» والبؤس»، أو بإيهام العالم أنّهم روّاد كلِّ إصلاح ونموّ.. لقد خدَعوا العالمَ بهذا الكلام. ولا يزال العالمُ يجهل الأسبابَ الداعية إليه.. ولو انَّه كان على معرفةٍ بحقيقةِ العقيدة و«الحكمة»، لما انحاز إلى أحكام سطحيَّة سخيفة كهذه.

الدرس السابع عشر

الحقدُ التاريخي

ألحقـد، عند الدروز، لفظة دينيّة يكثر استـعمالهـا في كتب «الحكمـة» وتفاسـيرها، وكـذلك في الأحـاديث السـياسـيّـة والاجتماعـيّة. ولها في التـاريخ الدرزي أبعاد ومـعانٍ روحـيّة وخلقـيّة، حـتّى إنّهـا تكوّن عنصـراً هامّـا من عناصـر «التربيـة التوحيديّة». فهي تعتمد على «العرفان» الذي يُضفي عليها صبغة وجدانيّة عميقة في الضمير الدرزيّ. من هذا المنطلق يستقرّ الحقد في اللاّوعي الدرزي، وينمو عبر الأجيال في الفرد وفي الجماعة.

للحقد، إذاً، قيمـة عرفانيّة، توحيديّة تاريخيّـة، جماعيّة. إنّه يرافق أحـداث التاريخ. ويظهـر في الملمّات والمحن. إلاّ أنّ ظـهورَه يبـقى رهناً بالظروف وجسـامـتهـا. وإذا ما سنحتْ له الفـرص المؤاتية، تجسّدَ ثأراً وقتلاً وانتهاكاً لكلّ المحرمات.

ألحـقد في الإنسـانُ نزعـةٌ في جبلّـته؛ إلاّ أنّه في الإنسـان المتحضِّر توجد له ضوابط؛ وكذلك في المجـتمعات الراقية يُبَرمج وفاقاً لمصالحها. أمّا في المجتمـعات البدائيّة فهو متوحِّش جارف،

ينفجر حتّى أنّه لا يُبقي على شيء. إنّه ينتقل فجأةً وحالاً من الصدر إلى اليد، فينفذ بواسطة آلاتٍ بدائيّة كالفأس والساطور والمنشار والسكّين.. وهو يمتدّ من الفرد إلى الجماعة، من الشيخ إلى العشيرة، امتدادَ النار في الهشيم، ذاك أنّ شيخَ العشيرة، ليس عقلاً يقوّم الأمورَ بتؤدة ورويّة فحسب، بل هو انفعالٌ عصبيٌّ يهتزُّ ويثور ويجمح.

في الحقد العقلاني تروٍّ وتقييدٌ لتقويم النتائج؛ وفي الحقد الانفعاليّ هياج وانفلات دونما نظر في العواقب. على هذا، لا يقف الزعيم القائد موقفًا عاديًا كلاسيكيًا أمام «جمهوره» لينسِّق ويخطّط ويوجِّه، بل المطلوب منه، في الملمّات والصعوبات، أن يحشد النفوس ويحشو الصدور حقداً ليحوز النصر.

وصولاً إلى هذه الغاية، تلعب المظاهر الدورَ الأهمّ، ويكون للطنين والجعجعة وهدير النبرة التأثير الأكبر : إهمال في الملبس، إهتزاز في الجسم، إلتواء القامة، شرودُ اللِّحاظ، تبكيل اليدين خلف الظهر، وقذف الكلام اللاّمتوازن واللاّمتزن، إستعمال الألفاظ النابية، العمل على تهييج الحشود بكلِّ وسيلة.. جميعها صفات مميِّزة وممتازة عند «قادة» جماعات الحقد.

وما يزيد في التأثير أن تضفي على هذه التحشّدات مسحاتٍ دينيّةً فلا يعود الظرف عاديًا ومرحليًا، بل إنّه «عيد الحقد» يُحتفل به بخشوع وقدسيّة، فيه ترتهن النفوس والأجساد. إنّه الحجّ المقدّس للحصول على البراءة. إنّه رحلة العمر لبلوغ الخلاص.

جاء في القاموس الدرزي: «ألحقد هو الضعف»[1]. قد لا يعني هذا التحديد، لغير الدرزي، شيئاً مهمّا. ولكن، مَن يعرف بعضَ ما جاء في «الحكمة» من كثرة استعمالها لهذه اللفظة ومشتقّاتها، يلمّ إلماماً واضحاً ببعض أبعادها. وها نحن نوجز في هذا التحديد أمرَين:

ألأمر الأوّل: تفسير الحقد بسببه. أي إنّ الضعف هو سبب الحقد، ضعف الدروز في تاريخهم جعلهم يسايرون أعداءَهم في الظاهر، ويُضمرون لهم في الباطن كلَّ شرّ. وعندما لم يكن باستطاعتهم، لضعفهم، النيلَ من «الأضداد»، يعبِّئون نفوسَهم حقداً، ويشحنونها بغضاً. ولكن، عندما يشعرون ببعض القوّة، يتحوّل ما في نفوسهم من حقد وضغينة إلى تدميرٍ لأعدائهم تدميراً كاملا.

وقد لا ندرك كيف يتمّ ذلك، لكنّنا نستطيع لمسه ورؤيته من النتائج. ونتائجه العاديّة أمور غير عاديّة: ذبح الأبرياء، قضاء تامّ على «الضدّ»، قتل النساء والاطفال والشيوخ، تعذيب وتشويه وتفنّن في التقطيع، تدمير كامل لمنازل الأعداء، للكنائس وأمكنة العبادة، إحراق الزرع، واتلاف الضرع.. أي قضاءٌ مبرم على كلِّ ما يمتُّ إلى الضدِّ بصلة..

ألحقد بنتائجه هذه هو مظهر من مظاهر البداوة، وصفة ملازمة للعشائر الأولى في التاريخ. بهذا يصحّ تعريف «دِيدرُو»

---

(١) الدرر المضيّة... لفظة «حقد»، ص ١١٦.

له: «الحقـد هو غضب الضعـفاء». وبمقدار مـا يتحمّلُ الضـعيف ويصبر، بمقدار ذلك يكون فعلُ الحقد في نفسه كبيراً. إذاً، فالذين يتحلّـون بـ «الصبر والاحـتمـال» يتميّـزون بالحقـد في أقصى درجاته وأعنف مظاهره.

ثمَّ إنّ الضعف الذي يولّد المسـاترة والمسايرة و«الاستـتار بالمألوف عند أهله» والتـقيّـة والكتـمان... هو نفـسه يحـقن هذه النفـوس ويحشـدها سـخطاً وغضـبـاً وضغـينة. وعنمـا تؤاتي الظروفُ الضعيفَ ليتنفّس، ينفجـر تنفّسه حقداً على أقرب الناس منه، أو على الذيـن أجبـروه علـى المسـايرة والمسـاترة.. من هنا يجب أن نفـهم كيف أنّ ضـرباتِ الدروز كلَّها تكون اسـتئـصالاً وإبادات جماعيّة. ويجب أن نفهم أيضـاً أنَّهم لا يخوضون معركةً يكونون فيها خاسرين.

وبسـبب هذا الضـعف أيضـاً، ينعـزل الدروز في قـراهم، ويتقوقـعون في جبالهم وأوديتـهم، ويغلقون على دينهم الأبوابَ والنوافذ، ويحتجبون عن المديـنة، ويرفضون مصاهرة الآخرين، ويكتفـون باليسير اليسـير من الحضارة.. هذه العـزلة هي أيضاً ساهمت في تعبئةِ النفوس حقداً، وشحنِها بغضاً وضغينة. ويوم يعطى لهم أن يتنفّسوا يكون تنفّسهم حمماً بركانيّة وألسنةً ناريّة تحرق وتدمّر وتقضي على كلٍّ مـا يعود إلى الضدّ، حتّى ولو كان ما يعود إليه قد ينفعهم.

والأمر الثاني في تحديد «الحقـد بالضعف » يعني محاولة إيجاد عذرٍ للحاقد. فالضعـيف، في مفهوم التربية، لا يُلام على ما

يقوم به من ردَّات فعلٍ، لأنّ ما يأتيه من أعمال إنّما تمليه عليه غريزة الدفاع عن النفس. وبذلك عندما يفسح له المجال يَعمد فوراً إلى ارتكاب القتل والذبح والنهب والكذب من دون أن تحدَّ اندفاعَه مسؤوليّة ما، أو ينخسُه وخز ضمير.

***

أمّا مميّزات الحقد الدرزي فهي، بالمقارنة بينها وبين مميّزات البغض، وبالاعتماد على مظاهرها في التاريخ والسلوك، تستحقّ منّا الاهتمام والوقوف عندها. وفي أيِّ حال أنتَ لا تُثير في الدرزيّ حساسيّةً إذا ما وسمتَه بالحقد. ألحقد عنده مادّة فخرٍ واعتزاز، وهو يدعو جماعتَه، التقدّميِّين منهم والمتخلِّفين، ألعقّالَ والجهّال، الأمراءَ والعامّةَ، الرجالَ والنساء، الكبار والصغار، إلى أن «يعلِّموا أولادهم الحقد». ولقد قالها الوزير وليد بيك جنبلاط بالفمّ الملآن: «عَلِّمُوا أوْلادَكُمُ الحِقْدَ».

إذا كان البغضُ، في تعريفه المألوف، انفعالاً سريعاً، فالحقد الدرزي بغضٌ مستمرٌّ متواصل. ألحقد عند الدروز يتفاعل، يتضخّم، يكبر مِن جيلٍ إلى جيل، يتخطّى الفرد إلى الجماعة. أمّا البغض المألوف فيزول بزوال أسبابه. ويعود الإنسان، بعد زواله، إلى صفائه وغفرانه.

في الحقد يتذكّر الدرزيُّ قهرَه التاريخي، يستحضر أمام عينَيه نكباتِ آبائه وأجداده عبر التاريخ. أمّا البغض المألوف فلا يعود إلى حوادث التاريخ. ألحقد يتغذّى باستمرار، لا من شرٍّ

الأضداد فحسب، بل من «ضعف الحاقد» نفسِه. ذلك يعني أنّ الحقد يتفاعل في نفس الحاقد ويندفع منها حتّى وإن انتفى الموضوع.

يتغذّى الحقد من تنافر الطباع بين الدرزي و«الضدّ» أكثر ممّا يتغذّى من تصادم الأفكار بين الحاقد والمحقود عليه. فالحقد الدرزي، بهذا المعني، منوط بالطبع لا بالتطبّع. وهو يلازم بنيةَ الدروز الاجتماعيّة أكثر ممّا هو صادر عن سوء تربية أو عن أخلاق سافلة.

إنّ حقد الفرد في الدرزيّة يكون على مستوى الأمَّة. يحقد الواحد وكأنّه يدافع لا عن حقوقه وحسب، بل عن حقوق الأمّة برمّتها. لذلك فهو عنيفٌ في حقده، لكأنَّه ينفّذ بيده ما تستطيع تنفيذَه أيدي الجماعة كلِّها. ولذلك أيضاً يجد لنفسه مبرِّراً في حقده. فهو يذبح ويدمِّر ويقطِّع، لا عدوّه الشخصي فقط، بل عدوَّ الأمَّة كلِّها. فلكأنّ الحقدَ واجبٌ مقدّس يقوم به الدرزيُّ بدافع المحبَّة لجماعته. لذلك فهو يرجو عليه من الباري ثواباً.

في الحقد الدرزي ذكريات تاريخيّة محفورة في مخيّلة الأمَّة. كلُّ صورة من صورِ الماضي تمرُّ، بوعي أو بلا وعي، في مخيّلته، تُثير فيه شعوراً غريباً فتّاكًا إنتقاميًا. فإذا ما رأى الدرزيّ سكّينا أمام عينيه، أو وجدَ منشارًا أو فأسًا أو ساطوراً أو أيّة آلةٍ حادّة، يمرّ في مخيّلته شريطُ أيّام القهر الماضية، فيهتزُّ فورًا لأخذ الحيطة والحذَر، ويقف وقفةَ الدفاع عن النفس، كأنَّ

أحــداً يتربَّصُ به ويــرومُ قتلَه. يكفي أن يــرى الدرزيُّ مسلمــاً أو مسيحيًا أو يهوديًا أو نُصَيريًا أو أيّ «ضدٍّ» تاريخيٍّ له حتّى تثورَ فيه أحــاسيسُ الانتقام والثــأر، وتفورُ فيه شهــوة القتل والذبح. وإن لم يحقِّقْ شهوتَه يعتبر أنَّه كلّفَ نفسَه أمراً لا تُطيقه[٢].

وما يزيد في خطورة الحقد الدرزيّ شعورُ كلِّ فردٍ بواجبِ الانتقام للأمَّة بكاملها، وغــريزتُه بالثأر للموحِّدين الذين قُتلوا في أوائل الدعـــوة. وهو، في ذلك، يظــنّ مع «بيك» Becque : «أنّ الثأر هــو الصيغــة الأكثــر تأكيــدًا للعدالة». لو انَّ الدرزيَّ الــفرد يَنتقم لنفــسه وحسب، لكانَ شَبعَ مِن القــتل والذبح ورائحةِ الدم؛ إلاّ أنَّه يرى، تتميمًا لواجبٍ دينيٍّ مقدَّس، وعــملاً لمشيئةٍ إلهيّة، أنّه ينتقم للدرزيّة منذ نشأتها حتّى آخر الدهر.

وبمقــدار ما تطــول مدّةُ الانتظار، مع مــا فــيــه من تصبّــرٍ وتجلّدٍ واحتمال، بمقدار ذلك تشحن النفوس قسوةً وعنفاً. وعلى كلِّ درزيّ غيور أن يدرِّبَ نفسَه علــى هذه الفضائل، لأنَّها الإعدادُ المتواصل حتَّى تحين الفرصةُ المقــدَّسة. ومتى تحين تَظنُّ يوماً من أيَّام الدينونة حلَّ في الأرض.

---

(٢) كان في أحد مستــشفيات بيروت، م.م.أ. ممرّضتان: درزيّة ومــسيحيّة. دعت الأولى صديقــتَها لتــمضيــة عطلة آخر الأسبــوع في قريتــها الشوفــيّة، فلبّتِ الثانيةُ الطلب، وأمضت ليلتها في بيت صــديقتها الدرزيّة.. وقبل بزوغ الفجر، بكّر والد الدرزيّة الذي لم يذق النوم قــاصداً مديرة المستــشفى يلومهــا بشدّةٍ على سماحــها للمسيحيّة أن تنــام في بيت درزيّ. قال لها: «إنّني اللّيلةَ لم أنم، إذ أتممتُ عملاً بطوليًا بعدم قتلها».

ألبغضُ والحبُّ، في مألوف الجميع، ينبتان على التوالي في صدرٍ واحد. يَبغضُ كثيراً مَن أحبَّ كثيراً. ففي أساس البغضِ حبٌّ سابق. أمّا الحقد فليس من الضرورة أن يعقب حبّا سابقاً. ولكن، حتّى يُؤتِي الحقدُ ثمارَه لا بدَّ من أن يُقيمَ الحاقدُ علاقاتِ حبٍّ يرتاح إليها «الأضداد» ويطمئنّون. عندئذ يكون الحقدُ حقداً درزيًا مكيناً.

لأجل ذلك يربِّي الدرزيُّ له أصدقاء من «الأضداد»، ويخلص لهم، ويحبّهم حتّى تحين ساعةُ الذبح، تماماً كما يربِّي المزارع فراخَ الدجاج ويعتني بها ويغذّيها لتكتنز شحماً ولحماً إلى أن يَحينَ حينُ الذبح والتنعّم بها. وأدهش من ذلك أنّ الدرزيَّ لا يسمح لسواه، حتّى ولو كان درزيًا مثله، أن يسبَقه إلى هذا العمل البطولي، وذلك حتّى يشفي غليلَه هو، وحتّى لا يكسَب غيرُه أجرَ الانتظار والصبر والاحتمال. وكثيراً ما كنّا نسمع الدروز يقولون: «من الأفضل للضدِّ «أن يُذبح على يد صاحبه من أن يُذبَحَ على يدِ درزيٍّ آخرَ غريب». وقد تكلّمنا سابقا على هذه الفضيلة.

يعيش الحاقدون في مجتمعٍ بدائيٍّ عشائريٍّ دينيٍّ مغلَق. ألكلمة فيه لشيخ المشايخ أكثر مما هي للزعيم السياسي. ولهذا ليس من العسير تكتيل الأفراد ودفعهم إلى القيام بثورةٍ ما. وربَّما يكون أسهل على «الحاقدين» قلبَ الأنظمة القائمة أكثر من «المحرومين». هؤلاء يدفعهم البؤس والجوع، أمّا أولئك فيدفعهم الأخذُ بالثأر والانتقام. حافزُ هؤلاء إجتماعي خارجي، أمّا حافز

أولئك فديني باطني. قد يتراجع «المحرومون» عن ثورتهم لأنَّهم يتحملون قسطاً وافراً من حرمانهم؛ أمَّا «الحاقدون» فلا تراجع عندهم إلى أن يُحقِّقوا هدفهم في القضاء على «الضدّ»، لأنَّ «الضدَّ» لا يزال «ضدًا» مهما صنع.

وهذا ما يفسِّر مرّةً أخرى فضيلة «الغدر» الدرزي. وهذا أيضاً ما رأيناه وسمعناه في حرب الجبل والإقليم : جميع المسيحيّين المغدورين في الشوف وعاليه هم من «الحزب الاشتراكي» ومحسوبون على الدروز؛ ومع هذا ذُبحوا ذَبْحَ النعاج. ومعظمهم شيوخ ونساء وأطفال، ومع هذا ذبحوا. وفي شرقي صيدا والإقليم قامت «القوّات اللبنانيّة» بمبادرة إخلاء المنطقة من السلاح والمسلَّحين، ومع هذا هجم الدروز هجمتَهم «الحاقدة»، وذبحوا الأهالي ودمَّروا المنازل.

وعند تهجير الجِّيِّه والدامور في كانون الثاني ١٩٧٦ اتّصل النائب الاشتراكي المسيحيّ عزيز عون بكمال جنبلاط يقول له: «يا كمال بيك! إنّ معظم الدامور لكَ، تصوِّت لكَ، خلِّص الدامور». أجاب كمال بيك ببرودة درزيّة: «كان هناك دامور. وبعد الآن لا دامور». ولمّا اغتيل كمال بيك، في ١٦/٣/١٩٧٧، كانتِ فرصة درزيّة مؤاتية لأن يهجم الصديق على صديقه ويذبحه. فـ «الضد»، إذاً، لا يزال «ضدًا» مهما صنع.

ألحِقدُ داءٌ رديءٌ لا دواءَ لهُ يُوري الصدورَ إذَا ما جَمْرُهُ حَدَثَا

فَاستَشْفِيَنَّهُ بصَفحٍ أو محادثةٍ فإنّما يُبرئُ المصدورَ ما نَفَثَا.

قد أصاب ابن الرومي، إذا ما قصر قولُه على الأفراد. ولكنّه لم يعمِّم نظرته على الجماعات حتّى يتعرّف على مدى الحقد التاريخي اللاّواعي. قد يكون تقصير ابن الرومي هذا ناتج عن انتمائه إلى عصرٍ سبق ظهور الدرزيّة.

***

على خصوم الدروز السياسيِّين أن يتفهَّموا في عملهم السياسي هذه الحقيقة: حقيقة وجود «فضيلة» درزيّة جماعيّة تسمّى «فضيلة الحقد». إنّها حقاً «فضيلة وقائيّة»، كالغدر والثأر والتمثيل، فضيلة وقائيّة في أيّام السلم والنّظام، وفضيلة «هجوميّة» في أيّام الحرب والاضطرابات.

إنّها تعايشُ العنفَ في أقصى حدّته، وتستغلّه أفضلَ استغلال. تبرز باستمرار في الخطب والتصريحات. تتجسّد في الفأس والساطور. ترتوي من الدماء الغزيرة. تعشّش في الصدور. تترنّح بين الخرائب والدمار. تعيش على أنقاض الجوامع والكنائس. تعتزّ في سرقة الأجراس والأيقونات. تتمجّد في إبادة الأضداد.. وأجرها عند قائم الزمان درجات عاليات.

الدرس الثامن عشر

أمّة الجزّارين

في الجلسة السادسة لمندوبي الدول الستّ، في ٢٦/١٠/١٨٦٠، قال مندوب النمسا دي وِكْبِكِرْ: «زعماء الدروز جميعهم مذنبون. بعضهم لأنّهم عملوا بيدهم، والآخرون لسكوتهم»[١].

أمّا في الجلسة العاشرة، بتاريخ ١٤/١١/١٨٦٠، فقد قرّر المندوبون جميعُهم «القبضَ على جميع الدروز واتّهامَهم، لأنّهم، بأسرهم، غمسوا أيديهم في مذابح الجبل، مع تفاوتٍ في الجرم، وأتمّوا خرابَ المسيحيّين القاطنين فيه.. فوافق مندوب النمسا مصرِّحاً بأنّه، لمّا كان جميع الدروز مذنبِين، فيتعذّر محاكمتهم.. وأشار.. لمجازاة سائر الأمّة الدرزيّة، قوامها: حرمانها في المستقبل من كلّ حقوقِها السياسيّة التي تمتّعت بها في الماضي»[٢].

---

(١) المحرّرات السياسيّة ٣/٢.

(٢) المرجع نفسه، ٣/٤١-٤٢.

وفي الجلسة نفسها أكّد المجتمعون لفؤاد باشا بأنّه «إذا أراد مجازاةَ جميع المذنبين، لا ينجوا درزيٌّ من العقاب»(٣).

أمّا الكاتب «بوجولا» فاعتبر الدروز «كلّهم مجرمين، حتّى الأولاد منهم. ففي دير القمر شُوهد آباء دروز يضعون في أيدي أولادِهم سكاكين، ويحرِّضونهم لقتل صغار الموارنة»(٤):

Les Druzes "sont tous coupables, même les enfants, car à Deir-el-Kamar on a vu des pères druzes mettre dans les mains de leurs jeunes fils des couteaux en les excitant à frapper les petits maronites" (٥)

جميع الدروز، في نظر معظم المؤرِّخين، قَتلوا، وذَبحوا، ونَهبوا، وسَلبوا، وأحرقوا، ودَمَّروا، وهَدَّموا القرى، وجَرفوا المنازل، ودَكُّوا المعابد، ونَبشوا القبور، وهَجَّروا الموتى، وأتلفوا الزرع، ونَحروا الضرع...

ولهذا السبب تقرأ في التاريخ تعابير جريئة جدًا بحقِّهم، أمثال: أمّة الجزّارين، أمّة السفّاحين، قصّابين، نهّابين، غانمين، قَتلة، مشعلي الحرائق، سكارى بالدم والنهب، ظمأى إلى الدماء.. وما أشبه

Population de massacreurs et d'incendiaires.
Nation d'égorgeurs et de pillards.

---

(٣) المرجع نفسه، ٣/ ٤٥.
(٤) Poujoulat, p. 144
(٥) Poujoulat, 144

Nation de voleurs et d'assassins... affamés de butin et de sang; ivres de sang et de pillage..(٦)

ولهذا السبب أيضـاً يرى بعض المؤرّخين الرّائين أنّه يجب تنظيف لبنان من هذه الأمّــة المجرمــة. يقول «بوجولا»: «تنبّــهوا واتركوني أقولها مــرّةً واحدة لا غير... يجب أن يُطرد الدروز من هذا البلد. إنّهم الأداة المتوحّشة لسياسة استنبول»(٧).

"Tenez, Laissez-moi le dire une fois pour toutes: expulser de ce pays (le Liban) les Druzes, instrument (٨) sauvage de la politique de Stamboul".

وفي مناسبــة أخرى أكّد قوله بأنّه «يجب تطهـير لبنان من كلّ مــا هو درزيّ، وهذا اقــتناعي العـميق. وفي هذا الـمجــال لن نكون مــخـدوعين البـتــة، بل هي نقطة أســاســيّة في المــسـألة السوريّة»(٩).

Mais avant tout il faudra, c'est ma pensée la plus intime, purger le Liban de tout ce qui est druze. C'est là, qu'on ne s'y trompe pas, le point capital de la question syrienne.

ويلاحق «بوجــولا» الدروز حتّــى حوران، يقــول: «إنّ على القوى المتحضّرة في العالم، تحـصيلاً لشرف الإنسانيّة المهانة

---

(٦) راجع; Témoin Oculaire, p. 272; Poujoulat, p. 238; 235; 45; 42; 47...

(٧) Poujoulat, 182.

(٨) Poujoulat, p.91.

(٩) المرجع نفسه، ص ١٣٩ – ١٤٠.

في هذه البقعـة من الأرض، أن تهاجم حوران، معقل المـجرمين، وتقضي عليهم بضربة قاضية لا قيام لهم منها أبداً:

Le Hoaouran pourrait bien devenir comme une citadelle des Druzes et des Musulmans de toute sorte, se dressant contre la civilisation européenne, dont la Syrie proprement dite sera un jour le foyer. Et c'est dans le Hauran qu'il faudra tôt au tard frapper un coup décisif.

والشيء نفسه رآه مندوبو الدول الستّ عندما قرّروا في جلستهم السادسة عشرة، بتاريخ ٢٩/ ٢/ ١٨٦٠. قالوا بـ «إخضاع بلاد حوران نهائيًا لأنّه لا أمل لأهالي لبنان والبلاد المجاورة بإحراز طمأنينة حقيقيّة ما دام مثيرو القلاقل يجدون فيها معقلاً حصيناً وملجأ أميناً»(١٠).

وأغرب ما في الأمر أن يكون اللُّورد دوفْرِين مندوبُ إنكلترّا «ملحًا بسرعة العمل»(١١) أكثر من سواه.

والأغرب الأغرب أن يكون البدو في حوران عرفوا الدروز واختبروهم، وقرّروا إخراجهم من حوران بقوّة السلاح..

وأغرب من كلِّ شيء أن يدوِّن ذلك كتابُ «الدروز عبر التاريخ» لمؤلِّفته الدرزيّة نَجْلا عزّ الدِّين. قالت: «ولمّا رأتْ قبائلُ العربان شدّةَ بأسهم وازدياد عددهم، عزمتْ على إخراجهم من تلك المنطقة بقوّة السلاح، وتألبتْ مختلفُ القبائل المعادية..

---

(١٠) المحررات السياسيّة، ٣/ ١٦٥.

(١١) المحرّرات السياسيّة، ٣/ ٢٨٣. صكّ الجلسة ٢١، في ٢٩/ ١/ ١٨٦١.

لقتالهم»[١٢]. هذه العداوةُ عـداوةُ العالَمَين: المتـحضّرِ والمتـبدّي، للدروز قضتْ عليهم بأن يرحلوا. لكن، إلى أين؟

عالمان هما على طرفي نقيض استقبلا الدروز : المسيحيُّون في لبنان، والبـدو في حوران. هذان الشـعبـان كانا ومـا يزالان ضحـيّةَ الـدروز المستـمرّة. المسـيحـيّون في لبنان، لخُلُقـيّتـهم المسيـحيّة، ذُبحـوا على أيدي الدروز مرّاتٍ ومرّات. أمّـا البدو في حوران، لخبرتهم البدويّة، فكانوا أكثر ذكاء وتعاملاً مع الواقع.

ويبـقى شعب ثالث هو في طـريق اختـباره. وهو الشـعب اليـهـودي. فـهل يُوَفَّـق كـالبـدو؟ أم سـتنقلبُ عليـه الدوائر كالمسيحيّين؟ أرجِّح الثانية، كما سنرى في القسم التالي.

---

(١٢) نجلا عزّ الدين، الدروز عبر التاريخ، ص ١٩٧.



القسم الثالث

ضحايا الدرزية

قد لا يكوّن هذا القسم دروساً في السلوك الدرزي، بحصر المعنى. ولكنّه يعكس صورة هذا السلوك على ثلاثة شعوب تعيش مع الدروز: شعبٌ قام باختبارٍ تعيسٍ جدًا. وشعبٌ هو في طريق الاختبار. هذا الشعبان هما: الموارنة واليهود. أمّا الشعب الثالث فهم المسلمون الذين لا يزالون، رغم ما يعرفون، مخدوعين مطمئنّين، يعطونهم براءة ذمّة، وتغطية دستوريّة ودينيّة على حدّ سواء.

الدرسُ التاسع عشر

أغبياء التاريخ

قد يبدو نشازاً أو ابتعاداً عن مسلسل البحث هذا الفصل الخاصّ بالموارنة. بيد أنّ الذي تتبّع الأفكار التي عرضناها في دروسنا السابقة والوقائع التاريخيّة التي أوردناها، يرى أنّ هذا الدرس يدخل في صلب ما قيل؛ بل إنّه ضرورة لإكمال ما طرحنا حول الدروز في عقيدتهم ومسلكهم.. من دونه قد يعوز الصورةَ بعضُ خطوط جوهريّة، بل قد يشوبها بعض التشويه.

يملي هذا الفصل اختلاطُ الموارنة بالدروز على مدى عشرة قرون، وتعايشُ الفريقين معاً بين مدّ وجزر، بين أخذ وردّ.. أكثر من ذلك، بين شطارةٍ وغباوة، تسامحٍ وحقد، إطمئنان وخداع..

في مقابل تستّرِ الدرزي وتمسكنِه وازدواجيّته، نجدُ انفلاشَ الماروني وعنجهيّته وبساطته. فالماروني يتمكّن فيتمسكن، والدرزيّ يتمسكن ليتمكّن.

وفي مقابل التماسك الدرزي والالتزام بأوامر قائدهم، نجد التفكّكَ والتشرذمَ عند الماروني، فضلاً عن غباوة قادته.

على ضوء هذا، لا بدَّ من الاستنتاج بأنّ ما استطاع الدروز تحقيقَه على مدى تاريخهم، من قتلٍ وذبحٍ وسلبٍ ونهبٍ وتهجيرٍ وتدمير، وما عدّوه انتصاراً، لا يعود عندهم في معظمه إلى ذكاء ودراية ومهارة، بل إلى غباوة قادة الفريق الآخر، وما تستتبعه هذه الغباوة من تفرّد وأنانيّة وقلّة حذر وضعف في الدراية والتخطيط.

علي هذا نطرح السؤال ونحاول أن نستكشف العوامل التي أدّت إلى نكبات متلاحقة نزلت بالمجتمع الماروني، علَّ هذا الاستكشاف يدلّنا على موطن الداء ويساعد على ايجاد العلاج مهما كان مرًا.

***

تعبير واحد يختصر كلَّ ما حلَّ بالموارنة، عبر التاريخ : «غباوة القادة».

عودةٌ إلى التاريخ، القديم منه والحديث، وتبرز الحقائق مدوّية، فنتأكّد، بما لا يقبل الشكّ، من أنّ الويلات التي فتكتْ بهذا الوطن، على مرّ العصور، وهي لا تزال على ازدياد وتفاقم، إنّما مردّها إلى «غباوة القادة».

أيّ بحث عن عذرٍ لتبرير فشل القادة الأغبياء لا يتمكّن من محو حكم التاريخ المبرم، الذي دونّه شهود عيان، وسجّله مؤرّخون، محليّون وأجانب؛ لكأنّ هذه «الغباوة في القادة» «أصبحت «ماركة مارونيّة مسجلّة» (م.م.م.).

ومنعاً لأيّ اتّهامٍ بالتحامل، أو الانفعاليّة والتهوّر، وتأكيداً لموضوعيّة لن أحيد عنها، أستعرض وقائع التاريخ، وأعتمد على كتبٍ ووثائق، مكتوبةٍ ومخطوطة، سريّةٍ ومعلنة، خاصّةٍ وعامّة، سطّرها المؤرخون على مدى قرون.

هؤلاء القادة المعنيّون هم من كلٍّ مستوى : سياسيّون وروحيُّون وعسكريُّون ومفكِّرون وحزبيُّون وعقائديُّون وموظَّفون رسميُّون وغيرُ رسميِّين..

لقد فَجّرت الحرب-الكارثةُ كلَّ شيء، اكتوى الوطنُ بنيرانها، وأُتخمتِ الأرضُ بجثثِ الضحايا، وغَصَّ الجوُّ بالدخان، واشتبكتِ التلالُ والجبالُ بالقذائف والصواريخ، وأُهرقت الدماءُ البريئة على كلِّ عتبةِ بيت، وتفرَّقتِ الأمَّةُ كعسكرٍ مهزوم، وفسدت أخلاقُ الشباب بأنوع الرزايا، ودَهمتِ الأخطارُ حتَّى أرحام النساء.. ومع كلِّ هذا، بل فوق كلِّ هذا، ما زال القادةُ الأغبياءُ يَحكمون..

في هذه الغمرة السوداء، وسط انقساماتٍ تزداد، وظلمةٍ تشتدّ حلكة أمام مئات الألوف من المهجَّرين البائسين، وآلاف الضحيا البريئة، والقرى المدمّرة.. ما زالت الحربُ تنهم، وما زال الموت ينهش، وما زال المصير قاتماً، والمستقبل غامضاً. والقادةُالأغبياءُ يَحكمون..

ألمفكِّرون يحكمون وهم في سباتهم غائصون. والكنسيّون يحكمون وهم في غبطتهم مطمئنّون. والسياسيّون يقودون وهم

بغباوتهم يَحكمون. والعسكريُّون يفرّون هاربين بدبّاباتهم ومدافعهم أمام زمرات مسلّحة بألعاب ناريّة.. والثعالب، في الطرف الآخر، ترقص زهواً وانشراحاً.. والقادةُ الأغبياءُ يحكمون كشيوخ قبائل بائدة.

ألموت يزحف فلا يكلُّ. والدمار يشمل المدن والقرى. والنار تمتدّ فلا تُبقي على شيء. فرحمة بمن تَبقَّى! لا تقولوا لنا: ما زلتم أحياء لأنّ فيكم مَن يموت أيضاً.

كيف الخلاص! والقادة الأغبياء هم إيَّاهم في السلم والحرب. هم الموالون والمعارضون معاً. هم رجال كلِّ ساعة. هم الملهَمون في كلِّ شيء. هم عباقرة في كلِّ مرافق الحياة: في الصناعة، والتجارة، والسمسرة، والمال، والتربية، والدفاع، والعلاقات الخارجيّة.. وفي كلِّ اختصاص.. وإذا دَهمتْهم السنون، وضعوا مكانَهم أولادَهم، وأعدُّوا لنا الأحفادَ والصنائع..

ألشرُّ في الكون لا يكمنُ في فوضى الذرَّات، أو في مكتشفاتٍ نوويّة تنشرُ الموتَ والدمار، أو في ثوراتٍ تتفجَّر، أو في كوارث طبيعيّةٍ من براكين وزلازل؛ بل الشرّ كلُّ الشرِّ هناك، في «قادة أغبياء» ، جهلة، أمِّيِّين، متخلِّفين، مشرذمين، جشعين، مغرورين، متغطرسين، أنانيِّين، مدَّعين.. باعوا الضمير والأخلاق، وافتقدوا الرؤيّةَ والقرار، وحكموا بولدنة واستخفاف، وبنوا القصور من أموال الفقراء، وساسوا الوطن كمزرعة، واختلفوا في اقتسام المغانم، وأوصلونا إلى حيث نحن..

هذه الصورة، صورة هؤلاء القادة الأغبياء، على قبحها، في كلّ ما حملت من كوارث، بارزة للعيان في ثنايا التاريخ، لكأنّها «م.م.م.» باسمهم وعلى اسمهم، لهم فيها حقّ وامتياز.

فمن التاريخ نستلّ الحقيقة. وإلى التاريخ نحتكم.

***

اطمئنّوا: ألغباوة التي نتكلّم عليها لا تعودُ إلى أكثر من مائة وخمسين سنة. إنّما هي اليوم في أوجها. واطمئنّوا أيضاً: «ألغباوة» مرضٌ غيرُ سار، فهي تمسُّ فقط من ادَّعى لنفسه جدارةً بسياسة أمور الناس. واطمئنّوا أخيرًا: إنّ الأبرياء الذين سقطوا، هم شُهداء عند ربِّهم يُرزقون. شُهداء استُشهدوا مرَّتين: مرّةً بسبب القادة الأغبياء، ومرّة بسبب ذبْح الوثنيِّين لهم.

***

يقول «بوجولا»، في معرض مقارنته بين قادة الموارنة وقادة الدروز ما يلي: «ألنصارى أُسُود، وقادتُهم كلاب. والدروز كلاب، وقادتهم أُسُود»[١].

Les Chrétiens sont des lions et leurs chefs sont des chiens; les Druzes sont des chiens et leurs chefs sont des lions

ويقول لونورمون: «ماذا يستطيع شعب أن يفعل مهما كان باسلاً عندما يفتقد القادة، ويكون خصومُه حَسَنيّ التنظيم؟»[٢].

---

(١) Poujoulat, 503.

(٢) Lenormant, p. 149

Que peut faire une population, quelque brave qu'elle soit, sans chefs contre les adversaires bien organisés!

ويقول تشرشل: «في هذا يكمن سـرّ السيادة الدرزيّة على المسيـحيّين في الميـدان.. فالزعمـاء الدروز أوفر جرأةً من زعـماء المسـيحـيّين.. ولو انّه كان للمـسيـحيّين قـادةٌ بارعون.. لما كـان للدروز مـا يفاخـرون به. فهـؤلاء، بسبب غـباوة أولئك، أصـبح عندهم ادّعاءٌ وهميٌّ بالجرأة والشجاعة الخارقتين»[٣].

And herein consists the whole of the superiority of the Druzes over the Christians in the field... The Druze chiefs are personally more daring than those of the Christians... If the Christians had good leaders... The Druzes would have nothing to boast of... The latter have acquired a fictitious reputation for extraordinary courage and bravery, immensely exagerated, purely from the tactical deficiencies of their rivals.

بسبـب غباوة هؤلاء القـادة، «تشرّدت آمـال المارونيّين في الهواء. والمسيحيّة نفسُها خُدِعتْ، وأهينَتْ، وحُقِّرت»[٤]:

Hopes of Maronite ascendancy scattered to the winds, and Christianity itself, betrayed, insulted and abased.

وبسببهم أيضـاً، صدر على الموارنة هذا الحكم المبرم: إنّهم «لا يَصلحون لتولّي إدارة شؤونهم بذاتهم»[٥].

Churchill, The Druzes and the Maronites, 143.(٣)

(٤) المرجع نفسه، ص ٩٢ من الأصل الإنكليزي.

(٥) المحرّرات السياسيّة، ٣/ ١٢٠، بتاريخ ١٢/١٢/ ١٨٦٠.

والجنرال الفرنسي دِي بُوفُـور «يعتقد بتـعذّرِ وجودِ رجلٍ بين الموارنة ذي جـدارةٍ متّصفٍ بالنزاهة، وله السيطرة الـكافية لإشغال هذا المنصب الصعب». وكـان بودِّ الجنرال، ومعه دولته، أن يجعل من لبنان «معقلاً يلجأ إليه جميعُ مسيحيّي سوريا»[٦].

وحديثاً قـال قائد قطاع بحمدون في القـوّات اللبنانيّة: «إنّ أسباب خـسارة المسيـحيّين في حرب الجـبل، سنة ١٩٨٣، إنّما مـردّها إلى «عدم التـنظيم، وانعدام الثـقـة بالزعـماء الأنانيِّـين، المفتـقرين إلى المقدرة والكفاية، المـتخاصِمين أبداً فـيما بينهم، المستعـدِّين للمساومة على القضايا والمـصالح العامّة، من أجل قضاياهم ومصالحهم الشخصيّة»[٧].

منذ قـرن ونصف كان الاقـتتـال بين القـادة المارونيِّـين، وحتى بين الإخوة، قـائماً على قدم وساق. مثلاً: «ميـخائيل كرم، أخو يـوسف بك كرم، كـان بخاطر الحكومـة، وكان مطابقـاً على أخـيه. ولم يرتضِ بأعـمالِ أخـيـه. إنّما ابنُه بطرس بك كـان في حضن عـمِّه يوسف بك ومعـه دائماً»[٨]. واستـغلّ داود باشا هذا الخلاف الأخوي فـ «ولّـى الحكومة في زغرتا ميخـائيل بك كرم حيث وجده مضـادًا لأعمال أخيه»[٩].

---

(٦) المحرَّرات السياسيّة، ٣/٨٣-٨٤ بتاريخ ١١/٩/١٨٦٠.

(٧) بول عنداري، الجبل حقيقة لا ترحم ، ص ١٧.

(٨) أنطون ضاهر العقيقي، ثورة وفتنة في كسروان، ص ١٤٥.

(٩) المرجع نفسه، ص ١٤٨.

ويشير شاهدُ عيان، وهو أنطون العقيقي، إلى اختلافٍ آخر بين يوسف كرم وطانيوس شاهين، زعيمَي الموارنة آنذاك. يقول. «أخيراً هرب طانيوس ومَن معه، فحضر يوسف بك إلى ريفون، وقعد في مدرسة ريفون، وأمَرَ مَن معه في نهبِ بيتِ طانيوس شاهين، فنهبوه وكلَّ ما فيه. وطانيوس ولَّى الإدبار خفية»[١٠].

وعبثاً حاول النصارى إيجادَ قائدٍ لهم صاحبِ رؤية وقرار، يقود مسيرَتهم ويعمل من أجلهم. فمنذ أحداث القرن الفائت «كانوا يشدِّدوا ذواتهم، ولكن بدون فائدة، لعدم وجود مَن هو مترئِّس عليهم»[١١].

وعبّر عن الشيء نفسه صاحبُ كتاب «مذبحة الجبل». قال: «قد كان النصارى يَسيرون بلا قائد، ولا نظام.. والدروزُ يهاجمونهم.. ويعملون بأمرِ رئيسٍ واحد. في حين أنَّ النصارى كانوا كلُّهم رؤوساً، لا يخضع الواحدُ منهم لغيره. وهذا هو السببُ في فشلهم. ومِن حسن حظِّ الدروز أنَّ أكابرَهم أشجعُ وأعقلُ مِن قوّاد النصارى.. ولهم كلمةٌ نافذة في مَن دونهم من أهلِ طائفتهم. وأمَّا النصارى فأكابرُهم رؤساءُ الدِّين أو التجَّار الذين يَخافون من اسم الحرب، وإنْ كانوا يُحرِّضون الناس عليها، وليس بينهم واحدٌ يَصلح للقيادةِ والرئاسة»[١٢].

---

(١٠) المرجع نفسه، ص ١٣٥.

(١١) المرجع نفسه، ص ١٠٧.

(١٢) كتاب مذبحة الجبل، ص ١٤٠.

وفي الوثائق الثابتة التي عثرنا عليها تأكيد لهذه الظاهرة المارونيّة: كتب أهالي بيروت في ١٦/٨/١٨٥٩ إلى البطريرك الماروني يقولون: «وأمّا النصارى نايمه حسب عوايدها.. لأنّه غير موجود لحدٍّ الآن ريِّس خَبير يسوسهم مع وجود الرؤوس المعروفة في الدروز لسياستهم. ويلزم أن نعرض لغبطتكم ما نحن فاهمينه وناظرينه، وهو أنَّ حقيقة رؤوس النصارى نايمه حسب عوايدها. ولكن باقي الشعب صاير منه غيرة غير اعتياديّة. لكن الذي موقِّف الأعمال عدم وجود ريِّس أهلاً للعمل»[١٣].

وليت القيادة المسيحيّة ظلّت «نايمه حسب عوايدها» وحسب، بل كانت تفيق على مصالحها مرّةً كلَّ أربع سنين، ثمّ تعود تغطُّ في نومها. وإذا ما أفاقت صدفة خلال نومها الموسمي فلكي ترى الوطن بأجمعه يزحف من أمام عينيها، وتزعزع القلاقلُ والاضطرابات أركانَه. ثمَّ تعود، اذا ما هدأت الأحوال، إلى استرخاء طويل.

وقد عبّر قائد من القوّات اللبنانيّة عن اختباراته التعيسة في الجبل فقال: «ألجبل المسيحيّ لم يعرف يوماً العمل الجماعي بعد حوادث ١٨٦٠. أمّا السياسة، سياسة الزعامات، فحصرت همَّها في الانتخابات، دون أن تفكّر في عمل يشدّ المواطن المسيحيّ إلى جبله، ويعمّق جذوره في بنية تحتيّة راسخة. فلا قرية مسيحيّة يمكن الوصول إليها من دون المرور بقريةٍ درزيّة. لا مستشفيات،

---

(١٣) من وثائق مكتبة بكركي، ورقة ١٩.

لا خدمات، حتى إنّ مدينة بحمدون ليس فيها مستشفى واحد»[١٤].

وأيضاً «في بيروت.. ألشلل التامّ في المجتمع المسيحي، وانهيار ثقته بالقيادات، كلٍّ قياداته. كان يجب أن يتّخذ أحدهم قراراً تاريخيًا. لكن ذلك لم يحدث»[١٥].

واسترخاء القيادات جرّ حتماً إلى استرخاء المسيحيّين كافّة. و«حكم قرية لا يسري إلى أخرى.. وما اجتمع أهلُ قريتَين من النصارى سويّةً، بل كلُّ قرية لوحدها»[١٦]. هذا في القرن الفائت، أمّا في الحاضر فصاحب كتاب «الجبل حقيقة لا ترحم» يبرز هذا الواقع فيقول: «أمّا قطاع المعوش فلم تجرِ فيه أيّةُ معركة. وأوّلُ بلدة مواجهة كانت المريجات التي لم يكن يوجد فيها، طوال مدّة وجودنا في الجبل، أكثر من عشرة أشخاص، يختلفون باستمرار على من سيترأسّ البلدة»[١٧].

أمّا عن استخفاف القادة بجسامة مسؤوليّاتهم فحدِّث ولا حرج. استخفاف فيه الكثير من الولدنة، واللّهو، والغرور، والبطء في التحرّك، والتشاورات العقيمة، والانتظار المملّ، واللاّمبالاة، والإجتماعات الفارغة، والتسلّي بالسخافات، والجعجعة بوجوب

---

(١٤) بول عنداري، ألجبل حقيقة لا ترحم، ص ٦٤.

(١٥) ألمرجع السابق، ص ١٩٩.

(١٦) وثيقة من أرشيف بكركي، ورقة ١٩ب.

(١٧) بول عنداري، ألمرجع السابق، ص ١٤١.

توحيد الكلمة، والقيام بتحرّكات غير مجدية، وطرح آراء وأفكار لامسؤولة... وما إليه من ولدنات سخيفة.

عن ذلك قال القائد التعيس بقادته: «عندما كانت الدبابات (العدوّة) تغيّر معالم الجغرافيا في بحمدون، كانوا يتكلّمون عن إنصاف التاريخ في القصر الجمهوري»[(١٨)]. وردّد آسفاً وببلاغة لن يدركها الأغبياء: «بحمدون انتحارٌ بطولة.. في ظلِّ ولدنة»[(١٩)]. وبدعم موقفه بما قاله شارون للحكيم يلوم فيه القادة المسيحيّين: «هذا شغل أولاد. ما الذي يقوم به المسيحيّون اليوم؟! لازمْ حَدَا يوقف ويقول نحن كشعب نريد هكذا.. حدِّدوا مواقفكم. وليكن أحد منكم رجلاً»[(٢٠)]. ويسمع أيضاً من نائب الكولونيل الإسرائيلي «بوسّي» يصف القادة المسيحيين بأنّهم «أولاد لا يعملون بجدِّيّة»[(٢١)].

وفي القرن الفائت أيضاً صورة واضحة عن ذلك الاستخفاف وتلك الولدنة. جاء عن طانيوس شاهين أنّه، بعد اندلاع الفتنة، تقدّم نحو نهر الكلب، على الطريق الدوليّة العامة، ليظهر عضلاته أمام العالم. ولكنّه لم يتقدّم بعد نهر الكلب خطوةً واحدة[(٢٢)]. ويعلّق شاهد آخر: «فيما الموارنة، بقيادة طانيوس

---

(١٨) ألمرجع نفسه، ص ١١٧.

(١٩) ألمرجع نفسه، ص ١١٧.

(٢٠) ألمرجع السابق، ص ١٠٠

(٢١) ألمرجع نفسه، ص ٩١..

(٢٢) Témoin Oculaire, p. 31.

شاهين، يتظاهـرون بالقوّة على نهر الكلـب، كان الدروز يَدخلون بالفعل دير القمر»[٢٣].

ألولدنة إيّاها تظهر في تـصرّفات الأغبـياء وفي مظاهرهم الخدّاعة. جاء عن يوسف بك كرم أنّه دخـل على الحاكم العثماني «مرتدياً ثوبًا أحـمَرَ محبـوكًا بخيـوطِ الذهب، ومَحفوفًـا بمجالي الأبَّهَة.. لكنّه لم يَرِدْ حدودَ كسـروان. ولم يحرِّك ساكناً، في حين أنّ زحلة كانت مـحصورة، وهي على مـسافة قصـيرة من المكان المرابِط فـيـه. بيـد أنّه لا يمارى في صـعـوبة إيجـاد رجلٍ أوفـر جدارة»[٢٤].

وفي المعنى نفـسه يقـول شاهد آخـر: «بينما يوسـف كرم يجـمع قـواه، وينظّم مـيليـشـياته فـي كسـروان، كـان الدروز يقتحمون ديرَ القمر، ويدكّون جزين وضواحيها»[٢٥].

أليـست هذه الدلائل كـافـيـةً لتـؤكّـد على غـبـاوة القـادة المسيحيّين المستمرّة عـبر التاريخ؟! هؤلاء الأغبياء لم يُحسنوا في حياتهم السياسيّة عملاً: لم يجمعوا الصفوف، لم يوحِّدوا الكلمة، لم ينتصروا إلاّ لمصالحهم، ولم يسـتفيدوا من بطولة شعبٍ أودتْ بمقاتليه حتّى الشهـادة. وبحقٍ قيل قديماً: إنّ المارونيّة «لم تعرف

---

(٢٣) Lenormant, p. 140.

(٢٤) المحرَّرات السياسيّة، ٣/٨٨، رسالة اللورد دوفرين إلى السير بولفر سفير إنكلترا في استانبول، بتاريخ ٢٠/١١/١٨٦٠

(٢٥) Témoin Oculaire, p. 50.

في الغالب إلاّ شجاعة الشهداء بدلاً من شجاعة الجنود»[٢٦]:

La majorité des Maronites a fui au lieu de combatre, et n'a su souvent avoir que le courage des martyrs au lieu de celui des soldats.

وقيل حديثاً: «إنّ ما كان مطلوباً من المسيحيّين، في مواجهةِ الجبل، ليست البطولة التي وصلتْ إلى حدِّ الانتحار، بل قيادة مسيحيّة موحَّدة»[٢٧].

***

وهناك أيضاً حقيقة تاريخيّة ثابتة تشهد على غباوة القادة، وهي الضجيج والطنطنة والجعجعة والعربدات الفارغة. يقول شاهد عيان أجنبي: «إنّ خطأ الموارنة كان دائماً في ضجيجهم أكثر مِن عملهم: ففيما هم يملأون الأرضَ صراخاً في استعداداتهم الحربيّة، التي لم تكن لتوجد عندهم إلاّ في مخيّلتهم، كان الدروزُ يعملون بصمتٍ وباندفاعٍ لا يَعرف الملل»[٢٨].

ويؤكّد صاحب «كتاب مذبحة الجبل» هذا الظاهرة، ويقول: عندما أرسلت فرنسا مالاً إلى البطريرك الماروني كان ذلك «على طريقةٍ علنية، فجعل الموارنة يفتَخرون بالأمر، ويتباهون بمساعدة فرنسا لهم. ويقولون إنّهم سوف يسحقون الدروز

(٢٦) لونورمون، الترجمة العربيّة، ص ١٤١، وص ١٤٧ من الأصل الفرنسي.

(٢٧) الجبل حقيقة لا ترحم، ص ٢٠٨.

(٢٨) Témoin Oculaire, 31.

سـحـقـاً، وينزعـون كلَّ سلطة من أيديهم.. ثـمَّ أصـدر البطرك منشـوراً فقـابله النصارى بالتـهليل والتكبـير وضـربِ البنادق، وفرحوا لنشره فرحاً زائداً، وبالغوا في إظهار السرور والشماتة. ومشايخُ الدروز أمامَهم ناقمون»[٢٩].

ويلاحظ الكاتب نـفـسُـه كـيف كـان الموارنة «يجـاهرون بالانتمـاء إلى الدولة الفرنسـيّة، حتى إنّهم كـانوا يملأون الجبل زينةً»[٣٠].

كما لاحظ الشيء نفسه الدكتور مـيخائيل مشاقة في قوله: «فـسـوء تصـرّف النصـارى وعـدم مـلاحظتـهم العـواقب بأنَّ مقدرتهم التي يتوهَّمون وجودَها فـما هي بالنسبة لقوّة الدولة إلاّ كنسبة العـصفور للباشق. وهذا وإنّ المظاهرة بشـدّة العزم جعل الدولة لا تأتمن جـانبهم خـصوصاً لمجـاهرتهم بالانتمـاء لدولةٍ أجنبيّة مع أنّها غريبة عنهم»[٣١].

والملاحظة إيّاها نراهـا عند القناصل الأجـانب. قـال اللّورد دوفْرين إلى سفير دولته في الإستانة: «ازداد تعجرفُ المسيحيِّين بقوّةِ المساعدات الأجنبيّة التي فازوا بها». ويختم رسالته بالقول: «ألموارنة هم عـاتون، متـغطرِسون مـع الضـعـفاء ومملقـو الذين يخشونهم»[٣٢].

---

(٢٩) مذبحة الجبل، ص ٧٥.

(٣٠) ألمرجع نفسه، ص ١٢٨ – ١٢٩.

(٣١) منتخبات من «الجواب على اقتراح الأحباب»، ص ١٨٢.

(٣٢) ألمحرَّرات السياسيّة، ٣/ ٢٤ و ١٨؛ بتاريخ ٣ / ١١/ ١٨٦٠.

هذا الغرور، كما تقول وثيقة درزيّة من ذلك التاريخ، «جعل أهالي جزّين يتـجمّعون في كلّ ليلة إلى قـريتَي جزِّين وبكاسين، شاكّي الأسلحـة، فيقلقـون الأرض بالأغاني الحماسـية وإطلاق البارود، كأنّهم ينذرون دروز الشوف بالويل والثبور»[٣٣].

مثـل هذا التهـوّر الماروني الفارغ «جـعل الدروزَ يتأهَّبـون للقـتال الشـديد. فدارت المخـابرة بين مـشايخـهم في كلّ أطراف البلاد، وامتلأتِ المسالك برسلهم الذاهبين والآيبين. وهذه عادتهم يتَّفقـون سرًّا على نوع القتال وأحواله قبل الشـروع فيه، بين أنّ أعداءهم يقصدون من غير استـعداد، فيأخذونهم على حين بغتة، ويفاجئونهم بكل بلاء شديد»[٣٤].

هذا يعني عدم تبـصّر قادة الموارنة بالأمـور، وتهوّرهم في الأمـور المصـيـريّـة، وضـعف الرؤية عندهم، وضـجـيـجـهم اللامحدود، فالدروز «يحـسبون الحساب للمستقـبل، ويتهيَّأون للدفاع أو للحرب. وأمّا النصـارى فأسكرتْهم جرأة البطريرك (؟) ومسـاعدةُ الأمير بشـير لهم. ولم ينظروا في الغيـوم التي كانت تتلبّـد فوق رؤوسـهم»[٣٥]. فـالدروز ما فـعلوا شيـئاً إلاّ «فـعل الحكمـاء العـاقلين. وظهَـرَ الفرق بينـهم وبين أخصـامـهم الذين سلكوا مسلك التهوّر والعداء المضرّ»[٣٦].

---

(٣٣) الحركات في لبنان، ص ٣٨. أنظر أيضاً: ص ١٦٠.

(٣٤) مذبحة الجبل، ص ٨٢.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ٧٨.

(٣٦) المرجع نفسه، ص ٧٨ – ٧٩.

والملاحظة نفسها تتكرّر، والاستخفاف إيّاه يضرب رؤوسَ الأغبياء. إسمع هذا الاستخفاف: «لم يخطر ببال النصارى وقتئذ أنّ الدروز قضَوا ذلك الشهر كلَّه (بين حادثة بعقلين ١٤/٩/١٨٤١ و ١٣/١٠/١٨٤١) في الاستعداد والتأهّب وضمّ قوّاتهم بعضها إلى بعض من كلٍّ الأنحاء، وهم ساهون لاهون»[٣٧].

عن هذه الظاهرة عبّر القائد التعيس: نحن بحاجة إلى «قيادة مسيحيّة موحّدة، تضع قدمَيها على الأرض، ولا تذهب إلى الحرب فيما الناس منها عائدون، وتعود من الحرب والناس إليها ذاهبون. قيادة تنتظر العروس بمصابيح مليئة بالزيت»[٣٨].

ولهذا السبب يعتبر «الأحداث هي التي تقرّر المستقبل في غياب القرار-الرؤيا القادر على استباق الحدث والمستقبل»[٣٩]. ثمّ يختصر وضعَ المسيحيّين المأسوي بقوله: نحن في «مجتمع مسيحي مفكّك، غاب عنه القائد، والقرار، والرؤيا»[٤٠].

***

ثمّ هناك حقيقة تاريخيّة قد لا تقلّ خطورة عمّا ذكرنا، وهي قد تكون من المسلّمات في المجتمع المسيحي عامّة والماروني خاصة، ألا وهي حقيقة اختلافاتهم المزمنة، وانقساماتهم،

---

(٣٧) ألمرجع نفسه، ص ٨٢.
(٣٨) بول عنداري، ص ٢٠٨.
(٣٩) ألمرجع نفسه، ص ٢٠٩.
(٤٠) ألمرجع السابق، ص ٦٥.

وتحزّباتهم، وتفكّكهم، وتشرذمهم... وقد عبر عن ذلك تشرشل، في القرن الماضي، خير تعبير. قال:

«إنّ تأخّرَ المسيحيّين في التنظيم الحربي عن الدروز ظهر جليًا.. فالمسيحيّون تقدّموا بد ون أقلّ أمر. وكانوا يتفرّقون يميناً وشمالاً. فقد كان كلّ واحد يسير حسب رغباته. وفي الموقعة، قرب عين داره، كانوا بلا ريب يُطلقون النار على بعضهم بعضاً. وبينما كانوا منشغلين هكذا، أفاقوا ليجدوا أنفسهم متضعضعين ومحاطين تقريباً بالعدوّ. أمّا الدروز فعلى خلاف ذلك، كانوا يتقدّمون بهدوءٍ إلى نقط معيّنة تحت قيادة زعمائهم الذين كانوا يؤدّون لهم طاعة عمياء»(٤١).

هذا التفكّك كان يتمّ على كلّ صعيد وفي كلّ مجال: تفكّك وانقسام بين الإقطاعيين أنفسهم، تفكّك وانقسام بين الفلاّحين أنفسهم، تفكّك وانقسام بين الإقطاعيّين والفلاّحين، تفكّك وانقسام بين المسيحيّين كافّة: بين الروم والموارنة، ثمّ تفكّك وانقسام بين المقاتلين على الجبهة الواحدة، ثمّ في الحزب الواحد، في البيت الواحد، وبين الأشقّاء..

وليس علينا أن نقومَ بجهدٍ كبير للتأكّد من ذلك. وما نقوم به ليس إلاّ استعادة ما سجّله التاريخ إلى الذاكرة. يقول صاحب «مذبحة الجبل»: «وكان النصر للدروز، ذلك لأنّ النّصارى كانوا فِرَقاً وأحزاباً، لا تنضمُّ منهم قريةٌ إلى أخرى، إلاّ بعد الجهد

---

(٤١) تشرشل، ص ٧٩ من الترجمة.

الجهيد، ولأنَّ الدروز كانوا يدهمونهم على غير انتظار منهم»[٤٢].

ويروى شاهد عيان أجنبي عن أحداث دمشق: «فيما دمشق تسقط وتحترق، ويُذبح الناسُ فيها بالآلاف، كان المسيحيّون، الروم الكاثوليك، يتزاحمون بالجدل حول اعتماد الرزنامة الشرقيَّة أم الرزنامة الغربيّة.. بهذا هم خلفاء أولئك البيزنطيِّين الذين سقطت عليهم القسطنطينيَّة وهم منشغلون بجنس الملائكة»[٤٣].

ويروح شاهد عيان آخر، وهو أنطون ضاهر العقيقي، ليخبرنا بمرارة عن «النزاع بين آل الخازن»، وبين «الرعايا الذين أخذوا يلهجون فيما بينهم عن هذا الصنيع معتدِّين ذواتهم أنّهم صاروا كالعبيد بيد المقاطعجيّة. وما عاد لهم قول ولا مشورة في شيء.. وأقلّ واحد من بيت الخازن كان يهين أكبرَ واحد من الأهالي عدا عن القتل والحبس»[٤٤].

ولم تكن ردّة فعل الفلاّحين أقلَّ عنفاً من فعل الخوازنة. «ومن الثابت أنّ الفظائع التي اقترفها المسيحيّون أتباعُ طانيوس شاهين على بعض نساء الأسرةِ الخازنيّة الضعيفات يتجاوز كلَّ ما اتُّهمت به الأمّة الدرزيّة»[٤٥]. ويعلّق اللورد الإنلكيزي صاحب

---

(٤٢) مذبحة الجبل، ص٨٥ –٨٦.

(٤٣) Témoin Oculaire, p. 162

(٤٤) ثورة وفتنة في كسروان ، ص ٧٠ – ٧٢.

(٤٥) المحرَّرات السياسيّة، ٣/ ٢٥١؛ بتاريخ ١٨/ ١/ ١٨٦١.

هذه الملاحظة بقوله: «ومثل هذه المعائب كثيرة في تاريخهم. بيد أنّ الدروز هم من هذا القبيل أكثر شفقةً منهم. فلا يقتتلون مع بعضهم ويحترمون النساء»[٤٦].

ويشهد شاهد آخر، وهو صاحب مخطوط «كتاب الأحزان» على هذا الانقسام المسيحيّ الهائل الذي أودى بالأمّة إلى الخراب. يقول: «فنهضتْ جماعة الدروز بقلبٍ متّفق جميعاً، خلافاً للنصاره المنقسِمين الرأي»[٤٧]. بل يؤكّد على أنّ أهالي زحلة «صاروا ينتقموا من بعضهم بعضاً. وطمعت بهم جماعة الدروز لعلّة عدم اتّفاقهم ولعدم وجود راس فيما بينهم مدبِّر ويطيعوه .. كلّ منهم راس ولا يسمع لأحد. ولعدم اتّفاقهم قد آل ذلك لخراب المسيحيّين أجمع في إيالة الشام»[٤٨].

وحديثاً لاحظ القائد التعيس في الجبل ذلك الانقسام الماروني، كما لاحظ تضامن الدروز وتكاتفهم. قال: «في مقابل روح التضامن والانضباط والانصياع للزعماء، وحرّيّة التكيّف وفق الظروف السياسيّة السائدة التي عُرف بها الدروز، إضافة إلى التكتّم والخديعة في التعامل السياسي والعسكري، اشتهر الموارنة بالجرأة والاندفاع والثّقافة، فتفوّقوا على الدروز في مختلف الميادين. غير أنّ النزعة الفرديّة والروح الاستقلاليّة أضعفت تماسكهم، وسبّبت لهم انقساماتٍ خطيرة في ظروفٍ

---

(٤٦) المرجع نفسه، ٣/١٣٧ – ١٣٨، بتاريخ ١٩/٢١/ ١٨٦٠.

(٤٧) كتاب الأحزان (مخطوط جبيل)، ص ٣.

(٤٨) المرجع نفسه، ص ٣–٤.

حرجة بفعل الخلافات الشخصيّة والحزبيّة. وكان هذا سبباً كافياً لخسارتهم القوّة الناجمة عن التفوّق العددي والبسالة النادرة»[٤٩].

***

فضلاً عن كلٍّ ما ذكرنا، ثمّة حقيقة مارونيّة تاريخيّة ثابتة، ألا وهي انقسام المتقاتلين أثناء القتال. فريق يقاتل، وفريق يتفرّج، وفريق يهرب، وفريق ينهب، وفريق يعارض، وفريق يخون، وفريق ينضمّ إلى صفوف الأعداء..

منذ القديم لاحظ هذه الظاهرة شهودُ عيانٍ ومؤرِّخون. فصاحب «كتاب الأحزان» قالها بوضوح وبدون مواربة: «ننظر كثيرين متَّفقِين مع الدروز ضدّ إخوتهم لأسباب مناصب وحكومات، ولأجل بعض خيرات زمنيّة.. حيث منهم من.. يسرق من إخوته كلاماً ويقدّمه للدروز»[٥٠].

والشاهد نفسه سجّل الخيانة بين الزحالنة. قال: «عدم اتّفاق الزحالنة بقلب واحد. والباين أنّه لم يزل أحدُهم طالب الانتقام من عدوِّه، ولم يصفح له حتى إلى ذلك الوقت، لأنّه انعرف أنَّ الشاب منهم يضرب صفوف الدروز من وراء المتراس، ويخشى من أرفاقه لئلاّ يغدروه من قفاه»[٥١].

---

(٤٩) بول عنداري، ص ١٥.

(٥٠) كتاب الأحزان، ص ٥.

(٥١) المرجع نفسه، ص ١٧.

ولم تكن هذه الخيانة، بنظر الشاهد، خاصةً بالزحالنة فحسب، بل هي ظاهرة مسيحيّة عامّة. يقول: «إنّ الذي أنعتُ به أهل زحلة في عدم اتّفاقهم بقلبٍ واحد فليس مختصٌ بهم فقط، بل هو بالأحرى إلى كامل مسيحيِّين سوريا»(٥٢).

أمّا عن الخيانة في دير القمر فيعود الكلام فيها إلى تشرشل. قال: «في أوّل هجوم على دير القمر، في ١/٦/١٨٦٠، تمكّن المسيحيّون من أعدائهم، فقتلوا منهم أكثر من مئة، وعدد كبير من الجرحى.. حتّى إنّ المسيحيِّين اشترك نصفُهم فقط -هؤلاء الذين كانوا في جوار مركز الهجوم-؛ والقسم الثاني رفض الانضمام، ومَنَعَ أيضاً إمدادَ رفاقِه بالذخيرة اللاّزمة.

«فالخيانة فعلتْ فعلَها، لأنّ بعضهم كانوا على اتّصالاتٍ سرّيّةٍ مع آل أبي نكد أسيادهم السابقين. وكثيرون اعتقدوا أنّهم بمحافظتهم على التصرّف الحيادي يضمنون عطف الأتراك الخاصّ. وهكذا، ففي أشدِّ حالات الضيق كان المسيحيُّون متردّدين ومنقسمين.. وفي اليوم التالي استسلمت دير القمر»(٥٣).

واذا كانت الخيانة غير كافية لتدمير الأغبياء، فالفوضى الضاربة في صفوفهم قد تكون قاضيةً عليهم لا محالة. هذه

---

(٥٢) كتاب الأحزان، ص ١٧. أنظر أيضا ص ١٨...

(٥٣) تشرشل، ص ٨٣ من الترجمة العربيّة.

الفوضى سجّلها شاهدٌ عيان أجنبيٌّ فقال: «إنّ فلاّحي كسروان وجدوا أنفسَهم دون أيّة سلطة، فهم يعيشون في فوضى حقيقية»(٥٤):

Les paysans du Kesrouan se trouvaient sans aucune espèce de gouvernement... ils vivaient dans une véritable anarchie.

وكما هو خمولهم أيّام الهدوء والسكينة، هكذا هو أيضا، وعلى أشدّ منه، أيّام الاضطرابات والملمّات. وهل ينحصر كلام الخوري صعب، مندوب المطران بطرس البستاني، على أهل جزّين دون سواهم؟ قال الخوري في تقريره للمطران: «رأيتهم قليلي الكلام، صفْرَ الوجوه، وَانيَّ الحركة، منطرحينَ تحت الجوز، خاملين، خامدين، تُوقِظ الواحدَ منهم فلا يستيقظ»(٥٥).

أو هل نتساءل عن صحّة ما وصف به العقيقي أهلَ دير القمر؟ وهل ينحصر كلامه عليهم دون سواهم؟ قال العقيقي: «فالنصاره، لصغر عقولهم، ولزيادة تغفّلهم، ولبساطة قلوبهم، ومِن وفور أتعابهم من الكفاح، خصوصاً عدم مخابرتهم بما حدث في باقي المحلاّت، قد سلّموا أسلحتهم للحكومة»(٥٦).

---

(٥٤) Témoins Ocularie, 25.

(٥٥) ألحركات في لبنان، ص ١٠٧.

(٥٦) أنطون العقيقي، ص ١١٥.

والحقّ يقال. وقد قاله تشرشل عن الأغبياء: «إنّ إناء غضبهم الذي أعدّوه للدروز انصبّ بهولٍ على رؤوسهم»[٥٧].

بسبب غباوة القادة ألصقت بالمارونيّة كلّ تهمة. ألصِقت بها، مدّة الأحداث الأخيرة، صفة «الانعزاليّة»، وهي منها براء، وقد لا تصحّ إلاّ على هؤلاء القادة الأغبياء. و «الانعزاليّة» حقّ لهم وامتياز.

وحجّتنا نستلّها من موقفهم تجاه توصيات المؤتمرات المارونيّة العالميّة ومقرّراتها. أين أصبحت هذه المقرّرات؟ وما تحقّق منها؟ بل كيف أُعدّ لها؟ فلا وكالة عالميّة للإعلام أنشئت، ولا ترجمة للتراث حصلت، ولا مشاريع اجتماعيّة نفّذت، ولا مراكز للدراسات فُتحت، ولا منح دراسيّة للطلاّب الموارنة قدّمت، ولا سكرتاريّة للاتحاد الماروني قامت في روما، ولا المصالحة بين «الأحزاب» والفئات عمل لها مُصلح ما، ولا لجنة طوارئ تلاحق الأحداث وتكون بمستواها..

فهل يندرج أصحاب تلك المؤتمرات أنفسهم تحت عنوان هذا البحث!؟

وهل كان ينقص لبنان سوى ثلاثة: ألقائد، والحليف، والقرار-الرؤيا؟ هذه الثلاثة غابت غياباً كاملاً وشاملاً عن «أغبياء التاريخ». فهم لا رؤية لهم ولا رؤيا. لا سياسة عندهم

(٥٧) تشرشل، ص ٣٤ من الترجمة.

ولاحليف، لا مفاهيم واضحة صريحة لقِيم وطنيّة، أو اجتماعيّة، أو ما ورائيّة، أو خلقية..

***

ومع هذا... فليطمئنّ الموارنة. ليطمّئن هذا الشعب الذي، منذ وجوده، تميّز بصفة «الرفض المطلق لواقع الحال»، وتميّز ببطولة نادرة جعلت الجبال تتنفّس حرّية، وبسطت التلالَ تحت يديها مدرّجات، وأشعلتِ الأرض الجدباء بعملها زهراً وزهواً.. هذه البطولة لن تموت. لقد تكردست عليها مائة وخمسون سنة من «الغباوة» ولم تمت. فهل يميتها اليوم ثعالب تتلهّى وتترنّح بروائح جثث كريهة!!.

الدرس العشرون

اليهود والدروز

لا بدّ من استكمال البحث؛ أي من التطرّق إلى عنصرٍ جديد دخل الساحة المحلّيّة بوجهٍ سافر معتدٍ، وأصبح له تأثيره الفاعل في ماجريات الأحداث، بل ربّما كان له التأثير الأكبر والأخطر.

ما نقصده هو الوجود اليهوديّ، في جذوره التاريخيّة، في ما ظهر منه وما استتر، ولا سيّما تلك العلاقة التي تشدّ اليهود والدروز بعضهم إلى بعض بأكثر من رباط ومصلحة وودّ.

أ - هؤلاء وأولئك...

ليس بين اليهود والدروز قرابة إثنيّة أو عرقيّة أو حضاريّة. بل هناك قرابة قد تكون أكثر لصوقاً. إنّها قرابة أوجدها ذلك التماثل بين الأوضاع والظروف التي حكمت الشعبَين. هذه القرابة قد تتفوّق على تلك التي تؤالف بين أبناء الدين الواحد.

أليهود اضطُهِدوا لدى بزوغ المسيحيّة فهاجروا وتشتّتوا وانتشروا في الشرق يتحسّرون على أرض الميعاد طوال ألفَي سنة إلاّ قليلاً.

والدروز نبذتهم الأرض التي نشأوا عليها بعد «غيبة» موسِّس دينهم القسريّة، فلجأوا إلى مناطق أخرى وجماعات أخرى، منذ البدء.

أولئك تقوقعوا في «غيتُّوَاتٍ» تكفل مصالحهم، تشدّ إزرَهم، وترعى شؤونهم، وتقيهم عواصف قد تهبّ عليهم من هنا وهناك.

وهؤلاء استتروا في «تقيِّتهم» وباطنيّتهم، يسايرون، ويتستّرون في المألوف عند غيرهم، ويخادعون الجميع لضمان أمنهم وسلامتهم.

أولئك عايشهم على مدى قرون مركَّبُ الأقلِّيَّة المضطهَدَة، فكانوا يطيِّبون عزلتهم بحلمِ «أرض الميعاد» الذي يدغدغ غربتهم وشتاتهم.

وهؤلاء فرُّوا من مصر، يلاحقهم كابوسُ القهر والاضطهاد، راجين أن يجدوا أرضاً يَحتمون فيها على أمل أن يؤسّسوا لهم كياناً مستقرّا آمِناً.

أولئك أضمروا العداء للمسيحيّة التي اتّهموها بشقِّ صفوفهم وإضعافهم وتشريدهم، ولا سيَّما أنّ «مسيحَها» خرج من صفوفهم، ونسخ شريعتَهم.

وهؤلاء حقدوا على الإسلام الذي نكَّل بهم، ولا سيّما أنّ مؤسِّس الدرزيّة هو الحاكِم المسلم الذي تحدَّى النبيَّ وتخطّاه في ادِّعاء الإلوهة.

٢ - تماثل...

شعبان انسلخا عن أرضِ النشأة، نزحا إلى مناطق أخرى، لم يتمكّن أيٌّ منهما من أن يكوِّنَ أمّةً تحكم نفسها بنفسها، ولم تُسنحْ لهما فرصة لأن يتميّزا بطابعٍ خاصٍّ وهويّةٍ مستقلّة.

لقد كان كلٌّ من الشعبَين، اليهودي والدرزي، يعيش في «هجرته» الازدواجيّة بكامل معناها. كلٌّ منهما كان، في كلِّ وقتٍ، حاملاً لهويّتين: هويّة الوطن الذي نبت فيه وارتزق منه وعاشر أهلَه وتعلَّم لسانَه، وهي الهويّة التي يحملها في جيبه. وهويّة ثانية، وهي الأهمّ عنده، ألهويّة التي يُخلص لها، ويَعمل على تحقيقها، ألهويّة العنصريّة، هويّة الانتماء إلى دينٍ منكودِ الحظِّ، مضطهَدٍ، ألهويّة التي يحملها في قلبه وقد رهن لها كلَّ كيانه وعاطفته.

هذه الميِّزات عزلت اليهود والدروز عن العالَم. وضعتْهم في «غيتوات» حافظتْ هي عليهم، وحافظوا هم عليها، على مرِّ العصور، فتميّزوا بمعتقداتٍ ومقدّساتٍ وعوائدَ وتقاليدَ، جعلتْهم متميِّزين عن الأكثريَّة المسيحيّة أو المسلمة التي حلّوا بين ظهرانيها.

هذه الميِّزات لم تجعل الشعبَين، إجمالاً، منفتحَين على الآخرين، فيَخدمونَهم بشيءٍ من عندهم، أو يُبدون لغيرهم محبّةً أو احتراماً، أو يُقدِّمون للعالَم ما يفيد غير مصالحهم الخاصّة.

لهذا، فهم، خوفاً من أن يذوبوا في الأكثريّة القائمة، وأن تضيعَ هويّتُهم، ويضمحلَّ الأمَلُ الموعود، كانتِ الشركةُ بينهما تتّصف بالحقد على مَن ألحقَ بهم الهزيمة وجلب لهم التشرّد.

٣ - ... وتمايز

هذه الأوضاع، التي جمعتْ بين اليهود والدروز، تقابلها أخرى، من صنع المحيط والبيئة والزمن، ميّزت بينهم:

عاش اليهود، في شتاتهم، في مجتمعٍ مسيحيٍّ، فعرفوا قِيمَ الحريّة والمساواة والديموقراطيّة (إذا استثنينا الاضطهاد النازي)، فاستطاعوا أن يؤثّروا في السياسة والاقتصاد ومختلف العلوم. وهذا ما أفسح لهم الإعدادَ لإنشاء دولة خاصّة بهم، بمساعدةِ الدول الغربيَّة الكبرى وتأييدها إلى أن حقّقوا إقامة دولة إسرائيل على أرض أجدادهم.

أمّا الدروز فاحتوتهم رقعة محدودة، يحكمها الاسلام ويسودها، إجمالاً، الاستبدادُ والكبت والظلم والجهل، فانزَوَوا في الجبال الوعرة، والوديان الآمنة، والأمكنة النائية، ليجنِّبوا أنفسَهم الأذى والاضطهاد. وكانوا، إذا ما أطلّوا برؤوسهم يرجون انعتاقاً، يُواجَهون بالضربة القاصمة، أو كانوا أيضاً يُستَخْدمون للتآمر والمساندة ونصرة فريقٍ على آخر..

هكذا، لم يُتَحْ لهم أن يكونوا فاعلين على الأرض التي حلّوا فيها، ولم يستطيعوا أن يحقّقوا حلماً في تكوين سلطةٍ مستقلّةٍ بهم.

٤ - في خدمة إسرائيل

إنّ الأحداث التي عصفتْ بالشعبَين، وأدّت إلى تهجيرهما وتشتيتهما من مواقع نشأتهما، كانت سبباً لتقرّبهما بعضهما من

بعض. وعرف اليـهودُ، بنوعٍ خاصٍّ، كـيف يستغلّون نقـمةَ الدروزِ على مواطنيهم من كلِّ ملّة؛ فـاعتمدوا عليهم، ولا سيّـما المقيمين في فلسطين. فجـعلوهم محاربين معـهم، معاونين لهم، متـآمرين على سـائر الأمم والملل. بهـذا، كان اليـهـود، مع الدروز، يمهّـدون لبناء الدولة اليهوديّة، وبعدَ ذلك لدولةٍ درزيّة.

وقد يكون أنَّ اليهود استطاعوا أن يدغدغوا أحلام الدروز في مسـاعدتهم للـتحوّل من مـضطهَديـن مقهـورين إلى مضطـهِدين قاهرين، من أقلِّيَّةٍ خاضعةٍ إلى قوّةٍ نافذةٍ على رقعةٍ محدودة.

فهل يُثير دهشتَنا هذا التـعاون الدرزي مع الدعوة اليهوديّة؟! هل نتساءل، بعد هذا، عمّا إذا كان الدروز حلفاء اليهود أم لا؟!

إنّ تطوُّعَ الدروز كـعـمـلاءَ لإسـرائيـل في المحـيط العـربي والإسـلامي، لهـو من بديهـيّـات الأمـور. فـالدروز قـادرون على التجـسّس، وعلى أداء الخدمات للإسرائيـليّين، نظراً لانخراطهم في هذا المحيط العربي والإسـلامي، ونظراً للهجتهم العربيّـة الخالصة، فضلاً عن باطنيّتهم التـي تمكِّنهم من التظاهر بالغَيرة على العروبة والإنتماء إلى الإسلام والولاء لكلَيهما.

لهذا، كانوا خيرَ وأهمَّ مَن دعم اليـهود في تثبيت أقدامهم في أرض فلسطين، وفي إنـشاء دولـة إسرائـيل، ثمَّ في الدفـاع عنهـا، بدخولهـم، وحدَهم من بين العـرب، في جيش الدفاع الإسـرائيلي، ومساعدتها في السيطرة على قطاعات عديدة، والتوسّع في مناطق عربيّة إسلاميّة جديدة.

لقد كان الدروز العامل الفعّال والمباشر في تسهيل احتلال الجولان سنة ١٩٦٧.

أيٌّ عجبٍ بعد هذا في أن تمنح إسرائيل المواطنين الدروز إمتيازاتٍ لم تمنحها لأيّةِ فئةٍ عربيّة أخرى؟

عندما اجتاح الجيشُ الإسرائيلي جزءًا كبيراً من لبنان، سنة ١٩٨٢، وضمْنَه المناطق الآهلة بالدروز، لم يُطلق درزيٌّ واحد رصاصةً واحدة على إسرائيليٍّ واحد. بل استقبل الدروز إخوانَهم اليهود بكلِّ مظاهر الفرح والبهجة. يومَها قال إنعام رعد، رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي، لوليد بيك جنبلاط، زعيم الدروز، متعجِّباً: «أوَهكذا يدخل الإسرائيليُّون المختارةَ والمناطق الدرزيّة، وترشُّون عليهم الزهور والعطور، ولم تُطلقوا عليهم رصاصة واحدة؟! وأنتم رئيس «الحركة الوطنيّة» ومهمّة هذه الحركة الأساسيّة محاربة إسرائيل في أيِّ وقت؟». إلاّ أنَّ وليد بيك أجاب رعداً درزيًا: «لقد فاجأونا ودخلوا بيتَنا فماذا تريد أن نصنع ؟! أندمِّرُ بيوتَنا على رؤوسنا؟!».

لكنَّ جنبلاط لم يفاجأ لأنّه يعرف عدداً كبيراً من قوّادِ الجيش الإسرائيلي وجنوده، الذين دخلوا المختارة؛ وكان معظمهم من دروز إسرائيل الأشاوس.

ه – الدروز يقبضون الثمن

وقابلت إسرائيل، حتماً، الوفاءَ بوفاءٍ أعظم، وردَّتِ المعروفَ إلى بني معروف، بمهارةٍ ولباقةٍ وحنكةٍ لا يعادلها سوى الكلام

الفظّ في عداوتهم لإسرائيل، والحرب على كلِّ إسرائيل، وتدمير إسرائيل مهما كلّف الثمن.. ولم يفعل كلامُ عبد الناصر في «رمي إسرائيل في البحر» فعلَه إلاّ عند الدروز، حتّى أصبح شعارَهم وجوازَ مرورهم بين العرب والمسلمين. ولا أظنُّ أحداً من بين العرب والمسلمين يضاهي الدروز في الكلام على دحر إسرائيل، منذ موسى حتّى آخر الدهر. ناهيك عن الشتائم التي يكيلها الدروز على كلِّ مَن يتعامل مع إسرائيل.

٩ – ذروة الإزدواجيّة

يحدث كلٌّ هذا في الوقت الذي تعلو من هنا وهناك، من هذا الزعيم الدرزي وذاك الشيخ، تصريحاتٌ لاهبة تبزّ أحيانا كثيرة ما تفوّه به أكثر الزعماء العرب والمسلمين تطرّفاً، منذ الأربعينات حتّى اليوم، في مهاجمة اليهود والتهديد بدحرهم والقضاء على دولتهم.

ألكلّ يذكر تصريحاً شهيراً وخطيرا أدلى به في شهر آذار سنة ١٩٨٥ الوزير وليد جنبلاط، فيه يتوعّد الإسرائيليِّين بإلقائهم في البحر، ولو بعد ثلاثمائة سنة، تماماً كما فعل أجدادُه بالصليبيِّين. لكنَّ القليلين يُحيطون بالحقيقة كاملةً، ويدركون أنّ جنبلاط توافق على قذفِ وعيده هذا مع ثلاثةِ ضبّاطٍ إسرائيليِّين كانوا قبل يومٍ في ضيافته في قصر المختارة. وقد اعترف الضبّاطُ أنفسُهم في الليلة نفسِها أمام أحدِ شخصيّات جزِّين البارزين. قالوا له: «سوف تسمع غداً تصريحاً خطيراً لوليد بيك بحقِّنا». وأخبروه عن جودة العرق اللبناني الذي شربوه ليلَتها مع وليد بيك.

هذه ظاهرة من ألوف، ذكرناها لكثرة الذين انخدعوا بها. قلتُ يومهـا للمخدوعين: لو كنتُ إسرائيليًـا لَسُرِرتُ جدًا لهذا التـصريح اللأهب الذي لا يُقدَّر بثمن. ولكن، هل أســداها الوزيرُ الدرزي بغيرِ ثمن؟!

٧ – هل تتفتّح العيون؟

كلّ الذي عرضنا لا يعني تشكيلَ استراتيجيّةٍ ثابتةٍ دائمة بين اليهود والدروز. بل قد تتبدّل المعادلات، وتتغيّر المقاييس. وقد يرى الإسرائيليّون أنفسَهم متورِّطين في سياسةٍ غير متوازنة، فيدركون أنَّ الحليف الذي اختاروه هو حـليف إزدواجي، إنتهـازي، باطني، مـارس على اللَّه نفسـِه «تقـيّة» قـد تكون أخطـر مظاهر السلوك البشريّ، منذ بدء الكون حتّى نهايته.

هذا الدرزي المتمسِّك بـ «الحكمـة»، والذي استطاع أن يساير الإسلام، مـدى ألف سنة ونيّف، وفي الوقت ذاتِه يلعنه. يكرِّم النبيَّ محمَّداً وهو يشتمـه، هو نفسه يستطيع أن يمارس على الـيهوديِّ المتمدِّن أموراً لا يستطيع أن يكشفَها مهما بلغ من التمدّن.

وسوف يتـأكّد اليهـود، عاجلاً أم آجلاً، أنَّ الحـقيقـة وحدَها ستنتصر. سوف يعلم أنَّ النور وحدَه يُضـيء، والناسَ لا يمكنهم أن يتعـاملوا إلاّ بميزانٍ واحـد، ومقيـاسٍ واحد، وبصراحـةٍ ووضوحٍ وصدقٍ ومعرفةٍ ونور.. بغير هذه المعايير كلُّ شيءٍ يكون مرحليًا.

الدرس الواحد والعشرون

المخدوعون الطاقة

فليتفضّل المسلمون، سنّةً وشيعة، على اكتشاف الدرزيّة بأنفسهم ولينكّبِ المسلمون، سنّةً وشيعة، على قراءة، «رسائل الحكمة». وليتعرَّفوا، سنّةً وشيعة، على أصدقائهم.

ليتفضّل حامي حمى المدينة المكرّمة ومفتي الأزهر أن يعطيا للدرزيّة «براءة ذمّة»، ولكن بعد كشف أوراق «الحكمة».

يوم تنحسر غيوم الحرب عن بيروت ستعرف مكّةُ وباريس أنَّ سبب الحرب كان واحداً لا غير: حرب بين الظلمة والنور، حرب بين الظاهر والباطن، حرب بين الصدق والكذب، حرب بين الحقيقة و«التقيّة».

لنا على المخدوعين أمنية: أن يطلبوا من «الدرزيّة» تحديد القيم. ماذا تعني «التقدُّميّة» في الدرزيّة؟ وماذا تعني أيضاً «الإشتراكيّة»؟ و«العلمنة»؟ والحرّيّة؟ والديموقراطيّة؟ والوطن؟ والثورة؟ والأمّة؟ والأرض؟ والحقيقة؟ والإنسان؟ والخير والشرّ؟.. والعروبة؟ والإسلام؟ والمسيحيّة؟ واليهوديّة؟..

وليتـفضل واضعـو الدستوراللّبنـاني الذي أعطى هو الآخر «براءة ذمّة» للدرزيّة دون أن يدري هؤلاء الأغبـياء أبعادَ ما أعطَوا. فهل يحقّ لهم أن يعترفوا بمنظَّمةٍ ، أو نادٍ، أو جـمعيّةٍ، أو مؤسَّسة، أو حزب، أو حـركة، أو أيٍّ تجـمّع، من دون أن يعرفـوا قوانين هذه المؤسّسات وأهدافَهـا، وعلاقاتِها بالمجتمع والقِـيم العامّة والقانون العام، وبعضـها ببعض؟!

لقد ارتكب الدستور «كبيـرةً»، وواضعوه اقترفوا «جريمةً» : كبيرةً لا مغفرة لها، وجريمةً تستحقُّ، بحقٍّ وبعدل، حكم الإعدام.

يقولون: إنّهـا «ديانة» تخصّ أصحابَها. ونقـول: لكنّها ديانة لها مواقفها العدائيّة من الإسلام والمسيحيّة واليهوديّة، أكثر ممّا لها صلة باللّه ومصـير الإنسان وخلاصِه. وهذه المواقف الـعدائيّة هي أساسيّة وجوهريّة في الدرزيّة أكثر من أن تكون عابرة وعرضيّة.

ويقـولون: إنّهـا «ديانة سـرّيّة» ومـا شـأن الـدسـتـور بـ «الأسرار». ونقول: كيف تكون سرّيّة ويمارسـها أكثر من ثلاثمائة ألف شـخص. أجل، إنّ سريّة الإنسـان مقـدّسة لدينا، نحـترمـها، نقدّسها، نحافظ عليها. إلاّ أنّهـا ليست سرّيّة الإنسان بمقدار ما هي سرّيّة المعرفة والكتاب والحقيقة.

خاتمة البحث

دِفاعاً عن شرف الإنسانيّة

في ١ آب سنة ١٨٦٠ وجّه الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث رسالةً إلى سفير فرنسا في لندن، السيد دي برسيني M. De Persigny، جاء فيها: «أفَغير الدفاع عن شرف الإنسانيّة يُجبرنا على إرسال جنودِنا إلى ذلك البلد (لبنان)؟»(١):

Quel intérêt autre que celui de l'humanité m'engagerait à envoyer des troupes dans cette contrée?

وفي رسالة من وزير الخارجيّة الفرنسيّة، السيّد توفنيل Thouvenel إلى سفير فرنسا في لندن، جاء فيها: «يجب أن تتدخّل المدنيّة باسم الإنسانيّة»(٢): Il fallait que la civilisation intervînt au nom de l'humanité.

---

(١) Louet, p. 12, note

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٦.

و«أن نحصل على الرضى الواجب علينا للإنسانيّة»(٣):

Obtenir les satisfacions due à l'humanite.

وفي السابع من الشهر نفسه، خطب الجنرال الفرنسي دي بُوفُور، قائدُ الحملة الفرنسيّة إلى لبنان. وجاء في خطبته الأولى لجنوده، وهم على أهبّة الصعود إلى البواخر. قال: «أيُّها الجنود المدافعون عن أنبل قضيّةٍ وأعظمها. لقد قرّر الأمبراطور، باسم أوروبّا المتمدِّنة، أن تذهبوا إلى سوريا، وتساعدوا عساكر السلطان، لتثأروا للإنسانيّة التي أُذِلَّتْ هناك بحقارة. إنّها رسالة نبيلة، وأنتم أهل لها»(٤):

Soldats, Défenseurs de toutes les nobles et grandes causes, l'Empereur a décidé, au nom de toute l'Europe civilisée, que vous iriez en Syrie, aider les troupes du sultan à venger l'humanité indignement outragée. C'est une belle mission dont vous êtes fiers et dont vous savez vous montrer dignes.

وكتب السيّد «لُوِي» Louet، معتمَدُ دفعِ رواتب الجنود الفرنسيِّين، يقول: «إنّ المدنيّة المهانة تُطالب عقابَ الجرائم الكثيرة المرتكبة»(٥): La civilisation indignée réclame le châtiment de tant de crimes.

---

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٧

(٥) المرجع السابق نفسه، ص ٤٧.

ويشـدّد «لُوِي» على «الرسالة الإنسـانيّـة» التي يقوم بهـا الجيش الفرنسـي أكثر ممّا هو يقوم بحملة عسكريّة. يقول:

Il est essentiel de ramener au plus vite la sécurité parmi les populations chrétiennes; c'est une mission d'humanité que le général de Beaufort place bien au-dessus de la faible gloire que donnerait à nos armes une rencontre avec les Druzes.

ويعتبر أنّ الرسالة الإنسانيّة أولى من العمليّات العسكريّة:

A défaut d'un rôle militaire, le corps expéditionnaire a accepté franchement la mission d'humanité.

***

وفرنسيون آخـرون، ممّن رافقوا الحملة الفرنسـيّة، عرفوا أهميّـة هذا الواجب الإنساني، واعتـرفوا بضرورته الملحّـة، فرأى «بوجولا» أنّه «على الجنود الفرنسيّين أن يقـوموا بواجبٍ تفرضه الإنسانيّة»[٨]: Pour accomplir un devoir d'humanité.

إنّهـا، بنظـره، «سـاعـة الإنسـانيّـة»، وليـست «سـاعـة سياسة»[٩]: L'heure présente n'est pas une heure politique pour la Syrie, c'est une heure d'humanité, cette humanité déjà si outragée par les Turcs et par les Druzes dans ce pays. J'insiste sur ce point...

---

(٨) المرجع السابق نفسه، ص XVII.

(٩) المرجع السابق نفسه، ص ٢٣٣.

والجـرائم التي حـدثت فـوق أرض لبنان مـسّت شـرفَ الإنسانيّة والحضارة في الصميم. ويجب الثأر لها(١٠):

Vengeant avec un immense éclat tant d'outrages faits à l'humanité, à la civilisation.

بل لا بدّ من التعويض عمّا حـدث للإنسانيّة والحضارة من تجريح وإهانة(١١):

L'immense outrage, et un outrage gratuit, s'il en fut jamais fait par les musulmans de Damas à l'humanité, à la civilisation, au Christianisme, doit être de toutre nécessité recevoir, à Damas même, une séparation éclatante et complète.

***

ولم تغب الناحيـة الإنسانيّة عمّـا كتبه آخـرون، من إنكليز ومحلّيّين. يقول الأمـيرال الإنكليزي، مارتن، لفـؤاد باشا، بتاريخ ٢٥/٧/١٨٦٠: «إنّ إساءة كـبرى قد وقـعت على العالم المتـمدّن من جـرّاء الأعمـال البـربريّة التي ارتُكبت ضـدّ المسـيحـيّين في سوريا»(١٢):

A most grievous wrong has been inflicted upon the civilised word by the barbarities...

---

(١٠) المرجع السابق نفسه، ص ٤٠٣.

(١١) المرجع السابق نفسه، ص ٤٢٣.

(١٢) أنظر تشرشل، ص ١٢٣ من الترجمة العربيّة، ص ٢٢٨ من الأصل الإنكليزي، وانظر أيضاً كتاب مذبحة الجبل، ص ٢٤٤.

ويقـول الكولونيـل تشـارل تشـرشل: «إنّ الوقت آتٍ دون إبطاء، عندما ستصبح نـداءات المسيحـيّة والإنسانيّـة فاعلةً في اجتذاب الآخَرين إلى التـعاطي بالمسألة الشرقيّة المثـيرة للغضب الشديد»[١٣].

***

هذا في القـرن الفائت. أمّا اليـوم، وقد فـاقت الجرائم فـيه أضـعاف مـا حصل بالأمس. وتـعقّـدت الحلول على يدِ الأطراف المتنازعين. واشـتـرك في ارتـكاب الجـريمة أكـثـيـر من منتـفعٍ ومستـفيد. وتقطّرت الدماء مـن أصابع كثيرة وعـديدة. وتدفّقت الأسلحة من أكثر من مصدر. واستفـاقت الإنسانيّة لترى شرفها يهـان ويداس بحقـدِ درزيٍّ، ولؤمِ نُصَيـريٍّ، وغبـاوةِ مسيـحيٍّ، وجـهلِ سنّيٍّ، وتعصّـبِ شيـعيٍّ، وقصـرِ نظرِ عـربيٍّ، وحقـارةِ فلسطينيٍّ، ومصلحةِ يهوديٍّ، وخـمولِ فرنسيٍّ، وألاعيب روسيٍّ، ونذالةِ أميركيٍّ، وصمتِ أوروبّيّ..

ألضحيّةُ كان لبنان. وسوف تتـبعه ضحايا لن تحرِّكَ، هذه المرّة، همّةَ أحدٍ للدفاع عن شرف الإنسانيّة المهان..

فـهل يَستـفـيق الدّرزيّ، يومًـا، ليرى نفـسـه مطرودًا من فردوسه! أم أنّه سيبقى الوحيدَ في الأرض ينفِّذُ جريمةَ قايين!

***

(١٣) تشرشل، ص ٨ من الترجمة.

أَحسَــبُني مقصـِّـرًا إذا ما أقفلتُ بحــثي هذا من دون خاتمةٍ أنسى فيهــا الوقائعَ المفجعة التي رَوَيتُ نُتَفًــا منها، وأتغاضى عن الضغــائن والعداوات التي أدَّتْ إلى كــثيرٍ مــن غصَّاتٍ وحــرقات، وأطوي التاريخَ الزاخرَ بالمكائد والمجازر، وأعلو فوقَ هذه الأرض المروّاة بالدم والمتخمة بالجثث والضحايا.

أشيحُ نظري عن كلٍّ هذا، فلا أعــودُ أرى أمامي إلاّ الإنسانَ مــجرَّدًا عن هويّتــه العائــليّة والطائفــيّة والمــذهبيّــة، عن انتمــائه العقائدي، عن ارتباطه الأرضي.

من هذا المنطلق نتقابل، يَشدّنا الرباطُ الإنساني دون سواه. من هذا المنطلق أتوجّــه إلى الدّرزي،، شريكي في الإنســانيّة وفي هذه الأرض، أبثُّ ما يجودُ به العقل والقلب، متــمنِّيًا عليه أن يتقبّلَ كلماتي بمنطق العقل الخالص ومشاعرِ القلب المنفتح:

أخي الدرزيّ!

* عليكَ أن تنسلخَ عن مــعــتقــداتٍ ورواسبَ وتوجــيهــات زفّتْهــا «الحكمةُ» إليكَ، فكانتْ على بصرِكَ عَمــاءً، وعلى بصيرتك حجابا.

* إخْتَلِ إلى وجــدانك بصدقٍ وتجــرُّدٍ فتنقلبَ لديكَ الــقِيَمُ وتتبدَّلَ المفاهيم وتتحوّلَ من السرّيّة والتــقيّة والكتمان والتقوقع إلى التعامل الصريح والانفتاح النيّر والتعاون الصادق.

* إعــملْ في النور أعــمــالَك، ودَعْ غــيــرَكَ يســتنرْ بنورِك وبعطائكِ الخيّر.

* أَصغِ إلى نداء الضمير فينطرد من قلبك الحقدُ وشهوةُ الثأر والقتل، وتعمرُ المحبّةُ والوداعةُ نفسَك.

* صُمَّ أُذُنَيكَ عن دعواتِ الغدر ونوبات العصبيّة، واستقبلْ أناشيدَ الرحمة والفرح والأخوّة.

* نَمِّ في نفسِكَ، بَدَلَ «الصبر والاحتمال»، فضيلتَي الرجاء والمحبّة.

* أنظرْ إلى الأرضِ الطيِّبةِ الكريمةِ فيسقطْ من يدكَ السكّينُ والفأسُ والساطور والمنشار.. وتَمَسّكْ بالمعولِ والمحراثِ وأدواتِ الخير والعطاء.

* إشخصْ إلى القِمم الشامخة فتتوحّدْ نظراتنا في الأعالي، وتتلاقى رغائبنا عند هدفٍ واحدٍ سام، يجمعنا عنده.

* إسبَح في مياه المحيط الواسع فتمتلك الآفاق وتخرج من عزلتك.

* أزلْ من مخيّلتك صُوَرَ الضحايا ونشيجَ المقهورين وغصّاتِ المعذّبين، وأغْنِها باللّوحاتِ الزاهية والموسيقى العذبة وكلِّ ألوان الفنِّ والجمال.

* إطوِ «رسائلَ الحكمة». واخرج من «خلوتك». وتخطَّ «التقيّة» إلى فسيح الكون. فتتفجّر في أعماقك ينابيعُ المعرفة والنور والحقيقة الشاملة.

تعالَ ننظّف يدينا من الحرام، ونغسل الأرضَ من الدماء،

ونطهّر خبايا الضمير من الآثام. لنتبادل المغفرة عمّا اقترفنا ضد بعضنا بعضاً بحقّ أو بغير حقّ... بهذا نطوي الأيّام مغمورين بالفرح والحبّ والسعادة.



المصادر والمراجع

* أنظر: «سلسلة الحقيقة الصعبة»، خاصةً الكتب التالية: «بين العقل والنبيّ»، رقم ٦، و«رسائل الحكمة»، رقم ٧، و«مصادر العقيدة الدرزيّة»، رقم ٨.

* أنظر أيضاً سلسلة «الأديان السرّيّة»، الأرقام ١–٥.

* أنظر المراجع والمصادر في كتاب «بين العقل والنبي».

١) مذبحة الجبل. صدر أصلاً تحت عنوان: «حسر اللثام عن نكبات الشام»، مصر ١٨٩٥، من دون ذكر لاسم المؤلّف، أو دار النشر.

٢) مجموعة المحرِّرات السياسيّة والمفاوضات الدوليّة، من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩١٠. ثلاثة مجلّدات، تعريب فيليب وفريد الخازن، مطبعة الصبر جونيه، ١٩١٠.

٣) ثورة وفتنة في لبنان (١٨٤١–١٨٧٣)، أنطوان ضاهر العقيقي، نشرها يوسف إبراهيم يزبك، دار الطليعة، بيروت، سنة ١٩٣٦.

٤) كتاب الأحزان في تاريخ واقعة الشام وجبل لبنان وما يليهما بما أصاب المسيحيين من الدروز والاسلام في ٩ تمّوز سنة ١٨٦٠. مؤلّف مجهول انتهي من الكتابة سنة ١٨٦٤ (مخطوط جبيل).

٥) ألحركات في لبنان إلى عهد المتصرّفيّة. ألراوي: حسين غضبان أبو شقرا، ألمؤلّف: يوسف خطّار أبو شقرا، ألناشر: عارف يوسف أبو شقرا. ألمكتبة الأهليّة، بيروت سنة ١٩٥٢.

٦) ألجبل حقيقة لا ترحم، بول عنداري، لا دار نشر، سنة ١٩٨٥.

٧) مجلّة الشباب المسيحي، عدد ٦: أذار–نيسان ١٩٨٥.

8) Colonel Charles CHURCHILL, The Druzes and the Maronites under the turkish Rule. From 1840-1860. B. Quaritch, London 1862.

تشارلز تشرشل، بين الدروز والموارنة في ظلّ الحكم التركي، ١٨٤٠–١٨٦٠؛ ترجمة فندي الشعّار، دار المروج، بيروت ١٩٨٤.

9) François LENORMANT, Une persécution du Christianisme en 1860; Ed. Ch. Douniol, Paris 1860.

ألحوادث الطائفيّة في لبنان، بين الأمس و اليوم، ١٨٦٠–١٩٨٣، ترجمة أنطوان خويري، منشورات دار الأبجديّة.

10) Ernest LOUET, (Payeur de l'Expédition), Expédition de Syrie. Beyrouth, Le Liban-Jérusalem, 1860-1861. Notes et Souvenirs. Ed. Amyot, Paris 1862.

11) Baptistin POUJOULAT, La vérité sur la Syrie et l'Expédition française, Ed. Gaume et Duprey, Paris 1861.

12) UN TEMOIN OCULAIRE, Souvenirs de Syrie (Expédition Française de 1860); Ed. Plon, Paris 1903.

الفهرس

القسم الثالث : ضحايا الدرزيّة



